رواية

وهم ووهن

محمد دراز

دار الكنزي للنشر والتوزيع

الكنزي
ALKANZY

رئيس مجلس الإدارة
محمد صلاح شديد

المدير العام
إيناس الدسوقي

مدير الإنتاج
أحمد عبد الوهاب

الطبعة الأولى
الكتاب : وهم ووهن
تأليف : محمد دراز
تصنيف الكتاب : رواية
مصمم الغلاف : عبير محمد
إخراج : أحمد عبد الرحمن
المقاس ١٣ × ١٩
رقم الإيداع : ٢١٦٩ / ٢٠١٩
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 6660 - 22 - 9

All Rights Reserved
Alkanzy for Publishing and Distribution
+01062104822
Alkanzy.co@gmail.com
info@alkanzy.net

محفوظة جميع الحقوق

إهداء

الإنسانية لا تُهدى..

لا يهمك من الماضي يؤلمك .

الأهم ألا يقتلك الحاضر بماضيك .

محمد دراز

فبراير ٢٠٠٨

تحلقت الأسرة في نصف دائرة بالصالة.

تتوسطها «فاطمة إبراهيم خليل» مستندة إلى مسند لُصق بحائط باهت اللون، أزرق يميل إلى البياض فقد بريقه، وتساقط طلاؤه كما تتساقط الهموم عن أصحابها مع مرور الزمن، أو علَّه لَم يحتمل كل تلك الذكريات وحده؛ فمال على الأرض لتحمل عنه ولو قليلاً.. تجلس الأم في بهاء، تلك المرأة القوية التي لم يهزمها الزمن، ولم يحكم عليها بالشيب كمثيلاتها في القرية، رغم ما هم فيه من صغر السن، فالأربعون ليست بالكثير، ولكن الأيام تجعل مَن هم في مثل سنها من الفقر في حالة يرثى لها، وليس الفقر هنا فقر مادي فالحالة غالبًا ما تكون ميسورة، وإنما فقر الفكر وعدم الشعور بالارتياح في طبقة مهددة دائمًا بالانهيار.. ولكنها تختلف تمامًا عنهم جميعًا، لطالما رأت أن المرأة مهما طال بها العمر فهي ما زالت صغيرة، تحتفظ برونق الشباب وبسمة الطفولة.. يخدم كل ذلك عنايتها بنفسها.

لها عينان نجلاءان سوداوان، يعلوهما حاجبان رُسما بدقة. وأنف دقيق وفم يميل إلى الاتساع تعلوه شامة حُسن في جنبه الأيسر على بشرة بضة، وشعر فاحم منسدل على كتفيها، ونهدان شاهقان

لم يهزمهما ثلاثة أبناء تباعًا، تميل إلى السمنة قليلاً، لا يزيد جسدها أو ينقص، تبدو مثالية.. تكورت على فخذها الأيمن «فيروز» التي ورثت عنها كل ملامح وجهها، بقُصة كادت أن تُخفي عينيها، تُحدق في التلفاز، ترسم كل تفاصيل أبطاله في مخيلتها وتهيم معهم جميعاً، وعلى فخذها الأيسر تكورت «فريدة» التي ما أخذت من أمها من صفات بقدر ما أصابها من أبيها، بأنف معوج، وعينين عسليتين ضيقتين، وفم صغير، اللهم ليس إلا شعرها الذهبي الذي تتفاخر به.. وبدت من رقبتها بقعة بيضاء مميزة، كانت تقول لها وفاء البيباني صديقة العمر في الصغر «إنه مرض يُدعى البُهاق»، وتقول أمها «أنها ولدت بها ولو كان مرضاً لأنتشر بجسدها».

هي دائماً ما ترفع من معنويات أبنائها كي لا تهزمهم مشاعرهم فتُنكس رؤوسهم وتُحبط عزائمهم وينطفئ ما بداخلهم من بهجة.

التحف الثلاثة بلحاف لم يظهر من النائمتين على جنبهما سوى رأسيهما، وبدت الأم بكامل جسدها كلوحة فنية متكاملة، وما إلى جوارها إلا حواش للصورة كي تمنحها معنى، بدونهما تفقد بريقها.

جلس فريد في غرفته خلف الحائط الذي تستند إليه أمه.. غرفة بسيطة، في نهايتها مكتب ألقيت عليه الكثير من الأوراق والمُذكرات المبعثرة في كل اتجاه منه، وإلى يسار المكتب حائط به مكتبة تحمل بعض الكتب، وألوان من ورقه الدراسي ومذكرات الثانوية العامة، وفي أول هذا الحائط باباً يحمل مشجب علق عليه ملابسه وغياراته، أمامه سرير لُصق بالحائط، يمتد من نهاية باب البلكون إلى طرف المكتب وإلى جواره خوان رص فريد عليه أوراق مادة الفيزياء، التي يدرسها اليوم، وإلى جوارها مذكرة نحاها جانباً، وأخرج من بين تلك الأوراق مجموعة ورقية رسم على أول ورقة فيها مجموعة أرقام

ورمـوز رياضيـة .. وأخـذ يفـر الأوراق تباعـاً حتـى منتصفهـا وشرع يخـط في أول الصفحـة:

يا مؤرقاً قلبي بغير جناية كيف اللقاء وروحك لم تُتيم

ثم تأملها، وأمال رأسه إلى راحة يُسراه، وبدأ يُرددها مرة تلو مرة.

وقال في نفسه هامساً:

أعتـاب عـلى حبيـب لم يعلـم مـن حبـي إليـه شـيئاً، أم وهـم وتعلُّـق بحبالـه عـلى أمـل اللقـاء؟

الأشـياء كلهـا دائـماً تبـدأ بالحلـم، وتنتهـي إلى واقـع مُـشرق طالمـا أيقـن صاحبهـا حقيقتهـا، كل الأفـكار العلميـة والاختراعـات بدايتهـا حلـم، ومـن ثـم فكـرة ثـم محاولـة وتطبيـق، أمـا المشـاعر؟

مؤكد أن الآمال التي نتعلق بها لن تُبتر طالما يغديها الدعاء!

وأخـذ يتذكـر مـا مـضى مـن عمـره في مراقبـة مَـن أحـب، تذكـر أول نظـرة، وأول همسـة في درس الابتدائيـة وأول لفتـة حقيقيـة، تذكـر كيـف كان يهـرول كـي يراهـا مـن بعيـد بعـد المدرسـة، وكيـف كان يختبـئ خلـف أعمـدة الشـوارع؛ كـي لا تـراه فتحرجـه نظراتهـا، مـع أنـه كان يتمنـى أن يلتقيـا ولـو لمـرة واحـدة؛ يقـص عليهـا مـا في صـدره ويرحـل مـع أنـه يعلـم ضعفـه في ذلـك، فلـو تقابـلا وأتيحـت كل الفـرص كـي يبـوح بـكل مـا تمنـى ومـا حلـم بـه يومـاً مـا؛ فلـن يبـدر منـه سـوى احمـرار خـده وألقـة عينيهـا وجمـود لسـانه.. هـل نجنـي ثـمار الحـب في زمـن لا يعـترف سـوى بالعُهـر؟ أعتقـد أن لـو سـمع أحـد بمثاليـة نظرتـه للحـب لبصـق عـلى وجهـه ثـم رحـل.. أي غبـي هـذا الـذي يُلقـي بنفسـه في أعتـاب موجـة صاخبـة لا تـترك أثـرًا لحـب، ولا تقبـل خارجهـا مثاليـة مبتذلـة إلا وتجرفهـا، الجميـع هنـا يأخـذ ويغـترف مـا يقـدر عليـه ويجـري ولا مـكان

خارجها سوى لمن تمكن من الخروج من تلك الموجة العاتية منتصراً، موجة الهزيمة.

أخذ يفكر طويلاً في نهاية هذا الحب الذي لا طرف ثانٍ له سوى في أحلام يقظته، متى يغدو الحلم حقيقة فيتسرب من الخيال واقع كله بهجة؟ مؤكد عما قريب ستنقشع ستارة الظلمة تلك لتكشف عن أخرى وردية تبتسم، تتوسطها هي.. وشرد بفكره بعيداً، ولم يكد يتعمق حتى أخرجه -من تيار كان سيرسي به بعيداً على شاطئ الأحلام- صوت جرس الباب.. هرولت فيروز فتجاوزت باب الشقة في خفة إلى السلم، حتى باب البيت، وفتحته، شملتها نسمة هواء باردة، وتهلل وجهها وهتفت:

- عم السيد البرنس أتى.

فحملها من على الأرض وقبَّل خدها، وقال باسماً:

- كيف حالك يا فيروز؟

- الحمد لله.

- أين ماما وأخوتك.

فتناهى إليه صوت فاطمة من على السلم، التي تبعت ابنتها ونظرت لترى من الزائر.

- تفضل يا أخي تفضل حصلت لنا ألف بركة ونور.

فتساءلت فيروز بانكسار وخيبة أمل:

- ألم يأت بابا معك.

– سيأتي في الأسبوع المُقبل إن شاء الله.. الله يكن في عونه عليه أعباء كثيرة.

وقف فريد على باب الشقة مبتسماً، ومد يده إلى السيد البرنس وقال بحرارة:

– تفضل تفضل.. كيف حالك يا عم السيد؟

– بخير حال الحمد لله.

وجلس الرجل على شلتة وأسند ظهره على مسند مجاور للمسند الذي كانت تستند إليه فاطمة، التي أسرعت بدورها توقد على الشاي، وتساءلت من المطبخ المقابل للصالة بصوت ارتفع قليلاً كي يبلغ سمعه:

– ألم يخبرك عطية بموعد قدومه، مرت خمسة عشر يومًا والأولاد لم يروه.. وفي كل مرة نُكلمه يقول سآتي ولا يأتي.. آخرها أمس.

– قال إنه سيأتي في نهاية الأسبوع المُقبل، المشروع قيد التسليم، ولا أحد ينزل سوى المشرفين هرباً.. نسوي الأمر مع المهندسين من أجل زيارة وخلافه.

ثم أنزل فيروز عن كتفه، واستند على ركبتيه، وأخرج من جيبه ظرفًا، وقال موجهاً حديثه إلى فريد، وقد دخلت الأم إلى الصالة حاملة صينية الشاي:

– أبوك أرسل معي هذه النقود لكم.. أعتقد أنه أخبركم بذلك.

فأماء فريد برأسه بالإيجاب، وشكر الرجل فاطمة:

– ليس له لزوم التعب يا أم فريد.

واستطرد:

– بالكاد نقدر على الفرار من الموقع يوم الخميس مبكراً، عطية يعمل بالليل والنهار، وساعات الراحة عنده قليلة، تكفيه كي يُكمل فقط عمله للغد.. الجميع يضغط على الفنيين، وبالذات اللحامين، سيكون تشغيل المشروع بداية شهر مارس ولم يعد هناك وقت.

فقالت فاطمة مواسية:

– الله يكون في العون.

واستأذن الرجل في الانصراف، ولم يكمل شرابه بعد، وحاولوا أن يضغطوا عليه كي يجلس، ولكنه كان يرغب في العودة فالوقت قد تأخر.

ورحل.

وكانت الساعة على مشارف التاسعة مساءً، وبدأت السماء تفتح أبوابها فنزل المطر، وتكتل في البرك فأصاب الشارع شللاً، وقد خلا تماماً من السابلة.. حتى الحيوانات اختبأت، وازدادت البرودة وأخذت تنهش في حوائط البيوت فتُهيج الذكريات وتعبث بالماضي وتُنذر أصحابه بالصواعق.

٢

ألقت فاطمة على الردهة نظرة مُتفحصة. تتحرك في نشاط تلتقط ورقة من الأرض أو كيسًا فارغًا لبسكويت أو شيبسي وتلقي بهم في سلة قمامة بيدها اليسرى. الصباح يسري نوره، وخيوط الشمس تنشر دفئها على المدرسة، تُلطف من برودة الجو، وتُخفف من حدته. فاطمة تعمل في المدرسة الابتدائية منذ زمن، رغم ما عرضه عليها زوجها وكرره على مسامعها كثيراً بأن تترك هذا العمل؛ لأجل أبنائها وخوفاً من نظرات الناس، التي لا يلقون لها بالاً وتجرحهم، ولكنها كانت ترفض دائماً غير مكترثة بنظراتهم لعاملة نظافة في المدرسة، مُتحججة بأن بالنواة قد تسند الزير، فهي وظيفة أول عن آخر، والوظائف لها مميزات مهما تكاثرت عيوبها. ولكن شد ما يُهلكها أن تجد أي من أبنائها يُردد على مسامعها أنه ابن عاملة الزبالة في مدرسة الصالحية. دائماً هي ما تلتفت إلى الهفوات التي تجرح الأنفس ولكن ينتهي كل شيء عندما تُفكر في عمل زوجها المهدد دائماً بالتوقف، فهو يعمل شهراً ويتوقف سنة وهكذا، ينتظر مشروعاً جديداً حتى يدر عليه مالاً يسدد به ديونه، ويصرف ما تبقى منه في لوازم البيت وجهاز فريدة، أما مرتبها هي فتدخل به في جمعية تنتهي ببعض المال، تدخر كي تُجدد البيت وتُساعد في نقل المعيشة ولو قليلاً. قد يكونوا في حال جيد، كما يقول عطية دائماً وأن هناك من هم أسوأ منهم، ولكن هي دائماً تتطلع إلى الأعلى ولا تقنع بهذا النوع من الخنوع. وترى أن القناعة كُفر بالقدرة. فكيف لله أن يمنح المرء الطاقة التي يستخدمها في هدم الجبال، ولا يقدر على تحويل مسار حياته. أي ضعف هذا؟

القناعة الحقيقية هي قناعة بالبلاء، قد يكون البلاء حقاً فقر أو حالة ميسورة حتى، ولكن ما شأن ذلك بالتطلع للسماء، فلو لم يتطلع المرء للسماء ما قدر على صنع طيارة وما أخترق الفضاء، دائماً التطلع للسماء يصنع المعجزات إذ دائماً ما تنتهي الأشياء إليها، ألن نعود حيث السماء، أليس الله بالسماء؟ إنها قد خلقت كي تحمل المُطلعين إلى الذات الإلهية، وتحقق رغباتهم في الصعود إلى أعلى، ليس على رؤوس البشر ولكن بالكد والتعب. وهي ترى دائماً أنها تكد في العمل وتراعي ربنا فيه، فمؤكد سيكرمها بنية ذلك ولو أخطأت في حقه وتمادت في الخطأ.

– مالك يا أم فريد؟

تساءل عم سعيد بواب المدرسة.. رجل صعيدي، تبدو في ملامحه الطيبة والانكسار، يرتدي عباءة فضفاضة سوداء اللون، على طاقية بيضاء يُزينها شال أبيض يُغطي رأسه بالكامل لف ذيله حول عنقه.

فنظرت إليه، وصمتت لبرهة:

– لم أعد أرغب في أن أكمل هنا، كل يوم يمر أشعر أني أنكسر فيه ألف مرة.. الناس لم تعد كما كانت، كلهم فاقدي الإحساس، لا أحد يترك شخص في حاله، يتمنوا أن يقع تحت أيديهم حتى يعروه تماماً من كل شيء، ويتضاحكون منه.

فقال مواسياً:

– هون عليكِ.. ما الذي حدث لذلك؟

– لا شيء..

– كيف وكل هذا الحزن في عينيكِ؟

– لا أرغب في الحديث عن شيء؛ لأن المشكلة أصبحت تكمن في عدم المعرفة، الحزن ما عاد مفهوم معناه. كل ما هنالك أني أشعر في عيون الناس بالرثاء أحياناً، وفي أعين غيرهم بالشماتة، والبعض الآخر يود أن يفترس ما بقي من عمري؛ فيأخذه كي لا يترك لي لحظة واحدة أنعم بها..

ثم حدقت في الحائط وغبشت الرؤية، وأردفت:

– لماذا لا يترك الناس كل يسير على شاكلته يصنع بحياته ما يشاء؟

فقال عم سعيد مُتعجباً:

– لأنه حال الدنيا.

فتنهدت وظفرت بأنين خافت، وأسندت رأسها على راحة كفها، بعدما جلست على كنبة بغرفة عم سعيد تحت سلم المدرسة، وحاولت أن تفكر في أي شيء كي يخرج بها من تلك الأزمة، لم تعد ترغب حقيقة في العمل هنا، لقد أصابها فتور حتى انطفأت تماماً.

وأشعل عم سعيد النار على موقد صغير، كي يُعد لها قدحاً من الشاي، وسحب كيس بسكويت من العلب المتراصة على طاولة وضعت أسفل الشباك، فقد كانت غرفته مقصف المدرسة، ومد يده إليها، وقال وهو يربت على كتفها في حنان:

– هوني عليكِ يا فاطمة.. سيمر كل شيء، كُلي ولا تلقي لهم بالاً.

فأومأت برأسها.. ودق جرس الفسحة، وبعد دقائق كانت فيروز تقتحم عليها الغرفة باكية، وقد احمرت عيناها من شدة البكاء، وصرخت في أمها:

– لا أريد أن أجيء إلى هذه المدرسة مرة أخرى.

فضمتها الأم إلى صدرها وفيروز تنتفض دامعة بنفس منهزمة لا تقدر على حبس دموعها، تلهث من شدة البكاء، وتند عنها أنات مُعذبة. فيروز ابنة السابعة تبكي أمها على ما أصابها من سباب زميلاتها في الفصل، بأنها بنت الزبالة. كانت قد اشتكت كثيراً إليها ذلك، فتهون الأم عليها بأي شيء كي تتناسى الأمر.

ولكن يبدو أنه استفحل تلك المرة، ففيروز حساسة لأبعد الحدود.

رفعتها فاطمة على يديها، وبكت هي الأخرى، وقالت في حماس واعد:

– سينتهي كل شيء عما قريب.

ولثمت جبينها، وقدم عم سعيد إليها شوكولاتة ونظرت الأم إليه موضحة ما يُحزنها.

وقال عم سعيد مواسياً، بعدما وضع رأسه على شعر فيروز مُداعباً:

– هم يغارون منك يا عبيطة؛ لأنك أجمل منهم وأحسن منهم، وصوتك أجمل من أم كلثوم نفسها.

فقالت فاطمة:

– أرأيت يا حبيبتي أنهم يكرهون أن تكوني أنتِ أجمل فتاة في المدرسة بل في المنطقة كلها.

فقالت فيروز باكية:

– لكنهم يُعايروني على ما لم أختره.

فقالت الأم:

– إنهم يحسبون أنهم مبصرون وقد فقدوا أبصارهم وبصيرتهم كأهليهم.

– وما ذنبي في ذلك.. أنا لا أرغب أن أكمل الدراسة لم أرد ذلك منذ أول يوم لي فيها.

– بل ستُكملين وستصبحين أجمل دكتورة في الدنيا، رغم كيد الأعداء.. كيديهم يا حمارة.

فقال عم سعيد متعجباً:

– والله لا أدري ما الذي أصاب الناس كي يجلبوا علينا لعناتهم، أليس من الأفضل أن يُربوا أبناءهم أولاً قبل أن يجلبوهم إلى المدارس.. ملعون أبوهم والله.

فقالت فاطمة:

– سأذهب بها إلى البيت يا عم سعيد، إن أحدًا سأل عني فأخبره بأن فيروز قد مرضت وذهبت بها إلى البيت.

– ربنا يكون في العون.

٣

البيت هادئ تماماً، والشارع أهدأ، الثامنة صباحاً تصاب الشوارع كلها بحالة من السكون، وصمت مطبق على أنحاء القرية إلا أطرافها، ولو كانت السابعة ما كنت تقدر على تمييز الأصوات المارة من كثرة الأطفال الذاهبين للمدارس وأهليهم والعمال وأناس شتى.

استيقظ فريد كعادته في السابعة والنصف، هو يحتاج إلى وقت في كل صباح كي يتصالح مع فكرة الاستيقاظ، يأخذ قسطاً من الراحة على السرير، وينتفض في الثامنة إلى الحمام ويعود حيث الخوان ليبدأ في مذاكرته، قد تدخل عليه فريدة حاملة كوب لبن أو شاي، وتعود إلى غرفتها وعالمها. هي مسالمة تماماً، طفل وديع، تأسرك نظراتها، وتحول بين الواقع الوحشي والحياة المثالية.. يُراجع ما ذاكره بالأمس، ويُنشط رأسه ببعض القراءة والتطلع لموضوعات مختلفة من بعض الكتب، التي يُحضرها إليه أبيه أو يتطلع خلسة إلى جارتهم «سناء الخواجة» التي عادةً ما تفتح بلكونتها سواء أكان الجو صيفاً أم شتاءً، الشيء المختلف هو ما ترتديه، بخلاف ذلك هو نفس الجسم الذي يحل من حبل المشنقة بحد قوله، تأسره دائماً بسمتها، وجلجلة ضحكتها إذا ما ضحكت مع أحد المارة تحت بيتهم وغمازيها اللذين ينتفض القلب لرؤياهما من أول وهلة.. يأتي الظهر فيجمع حاجياته وينزل إلى دروسه، تكون أمه قد عادت من المدرسة بعد رحيله، أو عله تَعود أن ينزل قبل موعد عودتها كي لا تضغط عليه بالطعام.

يمضي الوقت عليه في الدروس مُنتبهاً، يحاول جاهداً أن يقتنص المعلومات من عقل المدرس قبل أن تُقال، يُشاوره البعض في معلومات قيلت، أو يطلب أحدهم ما بيضه من كلمات نثرها الأستاذ، إلا «نور الخليلي» رغم معرفته بها، هي ابنة قريتهم، ليست بغريبة عنه، ولكنها في نفس درجته العقلية، ممتازة تهتم بدروسها إلى درجة كبيرة، هو يخجل حتى في طلب ورقة منها، كم تمنى أن يجلس إلى جوارها، أن ينظر إليها نظرة تلتقي أعينهما فيها ثم تتلافى إلى لقاء آخر، فتظل عيناها العسليتان داخل قلبه، ينتفض إليها، وتُبهج روحه كي يمر اليوم إلى غيره، على أمل لقاء آخر وبسمة من عينيها.

شد ما يُهلكه تلك الانطوائية التي يعلم أنها عيبه الوحيد، هو يعرف أنه لا يطيق الجلوس لأحد، ولا يحب الكلام الكثير، هادئ تماماً على غير عادة مَن حوله، ممن يبحثون عن فتاة يتعلقون بها، يُداعبونها بمعسول الكلام ثم ينتهي كل شيء بعد فترة إلى أخرى، ويتحدثون عما حصدوه في علاقاتهم النسائية كمضمار سباق يعرض كل منهم بضاعته، ويطلق العنان إليها حتى تصل إلى نشوة النهاية فيُصفق الجميع.

ولو أمسك أحدهم بكراسته، وقلب فيها ووجد ما يكتبه ويخطه من شعر إلى نثر لأفتضح أمره، وتضاحكوا منه، هو الولد البارد الشاطر الدحيح صاحب التسعة وتسعين بالمائة، الذي يحاول الجميع التقرب منه، وينفر هو منهم بقدر تقربهم هذا، هو يرغب في واحدة فقط، ترمقه بنظرة حب، فيلتقطها من بين هذا العبث بنفس طيبة، ويُرسل إليها بنسمة تحمل جزءاً من روحه بين طياتها، تتفتح داخل صدرها فتهفو إلى لقائه فتُتيم.. نور الخليلي تلك الفتاة العادية من وجهة نظر الجميع، التي لا يلتفت إليها أحد، قليلة التبرج، قمحية اللون، بعينين عسليتين ضيقتين، وأنف عريض الأرنبة، ملامح تبدو

عادية لأبعد الحدود ليس فيها ما يُميزها دون غيرها، حتى جسدها، مُدثر بجيبة، وقميص لا يُظهر شيء من مفاتنها، وحجابها الذي أخفى ما رآه منذ زمن فأسره، شعرها البني العادي أيضاً، حتى طولها ليست بالطويلة المُلفتة ولا القصيرة المُتمكنة المكورة، هي كلها عادية، ولكن في كل شيء عادي منها شيء مميز يعشقه، هو ينظر إليها على أنها ملاك لم يُخلق كي يعيش بين تلك الحيوانية من البشر.. ينبع الحب داخله من أعماق بعيدة، كأنه ولد في زمن غير الذي يعيش واحتفظ بمثالية روايات شكسبير، أو أفلام الأبيض والأسود، بانحناءة أحمد مظهر إلى زبيدة ثروت.. سعيدة يا هانم! سعيدة مباركة.

هو يحب نور رغم أنها لم تُكلمه ولو كلمة، ولو علمت هي ما في صدره ناحيتها، لغرها في نفسها، لو فتحت قلبه ورأت تلك الأحاديث التي يرسمها داخله، لبكت شوقاً لضمه إلى صدرها ليلتحما دون فراق.

كثيراً ما يجلس ويرسم حواراً يتوق إلى إخراجه، يبدأه بلمسة يد، ورجفة تسري في بدنه منتقلة إلى جسدها، تهفو إليها الأرواح، فيصمتا احتراما لمشاعرهما التي تحكم على الجو بالقدسية، فينطق بكلمة واحدة ومن بعدها تُسدل الستار إلى واقع حقيقي مليء بالحب، لا يحوي غيرهم.

فاجأ أمه ذات يوم بعد نتيجة الثانوية العامة للسنة الثانية، أنه لا يرغب بدراسة الرياضيات، رغم علمها بتفوقه فيها وحبه الجم للهندسة، فقد تحولت رغبته بين يوم وليلة إلى دراسة الأحياء وشرع في تحويل أوراق الثانوية إلى علمي علوم، لم تُجادله أمه في شيء هي تعلم أنه يعرف مصلحته جيداً، ولم تتعود أن تُجبره على أي اختيار. كل أحلام الطفولة والمراهقة التي كان يرسمها لكلية الهندسة قد انهارت عندما علم أن نور وقع اختيارها على علمي علوم، لم يتردد لثوان وكانت أوراقه في اليوم الثاني قد حولت.

٤

– الفرصة لا تتكرر مرتين.

– ولكن الغربة أصعب.

– والحياة هنا لا تسمح لأحد بأن يحيا إلا إذا اغترب.

– والأولاد؟

– سيعيشون في مستوى جيد، أخبرتني أن ابنتك ستتزوج، وابنك من الممكن دخوله الطب.

طأطأ عطية ناصف رأسه، وصمت لوهلة يُقلب الكلام في أم رأسه، كان يتخوف من فكرة تُحلق وتعصف به. ماض بعيد سيُكرر نفسه مجدداً، وقال متردداً:

– ربما قدرت على كفالة حياتهم وأنا بينهم..

وأردف مُتسائلاً:

– مَن سيكون لهم السند من بعد سفري؟

فقال المهندس مُحمساً إياه:

– سيكون سندهم من هو في غربتك الداخلية.. ربنا.

– ولكني جربت من قبل الغربة.

– هذه المرة مختلفة.

– وفيما الاختلاف؟

– العقد محترم.. المرتب مُغرٍ، غير أن مكانتك هناك سترفع من شأنك وتُدر عليك بعض الراحة وأنت في هذا السن.. ستعمل مُشرف عُمال وتترك اللحام نهائياً، ستُراقب العمل دون أن تضع يدك فيه.. الفرصة لن تتكرر يا أسطى عطية، وثلاثة آلاف ريال سعودي ليست بالقليل.

فتساءل هامساً:

– لماذا أنا بشخصي وليس غيري؟

فأجاب المهندس بثقة:

– لأنك تعرف الله.. وعملك يُبهر الجميع، وخبرتك تفوقهم..

فتبسم عطية شاكرًا:

– الله يكرم أصلك يا هندسة.

– هه.. أحدد لك المقابلة؟

ففرك عطية ما بقي من شعر في رأسه، وقطب:

– سأستشير الجماعة في ذلك.. نهاية الأسبوع سأرد عليك رداً نهائياً.

– أتمنى الموافقة.

ورحل المهندس تاركاً من خلفه حبلاً من التفكير ممتدًا في رأس عطية إلى أعماق نفسه، يُعذبها، يجذبها إلى الماضي ويُلقي بها في تيار الحاضر الجارف الذي لا يرحم.

الحياة تبدلت والأولاد كل يوم في صراع مع أعمارهم، إن لم أكفل لهم اليوم ما يؤمنهم متى سأقدر على ذلك وأنا بن الخمسين.. غداً يطرق الشيب ما بقي مني ولن يستأذن، سأجده يخط تجاعيده فوق تلك التي ارتسمت بملامحي لن يترك خيار لي.. إلى متى سأنهك نفسي في العمل دون فائدة؟

ولكني جربت الغربة من قبل.. ماذا بعد؟

ليست تلك الأموال المخزنة بشيء.. أي مال هذا إنه لن يكفي حتى لزواج البنت وشقة لفريد.

شد ما يُهلكني أن أفكر في هذا الأمر.. مؤكد ستوافق فاطمة، هي تتطلع دائماً للأفضل.

والأفضل سيكون في الغربة.. ولكن لماذا على أن أغترب؟

إن أسوأ شعور يتملكني الآن هو أن أمضي في طريق مظلم لم أختر السير فيه واختارني هو.. قدر أحمق لم أضع له شأن ووضع لي عنده أكبر شأن فحَمَلّني بالمهالك.. ما أقبح أن تسير على أمل، بصيص من النور تهتدي إليه في نهاية النفق المظلم فتكون كارثة وهي ماس كهربي أو نار اضطرمت منذ زمن وحان وقت انفجارها وأنت مادتها.

اعترته نسمة جافة من هواء القاهرة السام، فتحسس وجنته وشعر بالتشقق فيها يُؤلمه، فحاول أن ينتقي بعض الأكسجين من الجو يُساعده على التفكير، ولكنه فشل. كأن هواء القاهرة لا يكفي لأحد خارجها، على قدر عدد سكانها يكفي الأكسجين ومن هو خارجها يُصاب بالاختناق.

كيف يعيش الناس بين هذا الصخب وتلك العتمة الجافة؟ ما أقبح جو القاهرة!

٥

شردت فريدة بعيداً بذهنها ناحية ماض عميق، لم تكن قد بلغت السادسة حينها.

كان يبتسم مُشرق الوجه، طيب النفس، جميل الروح.. لم تره منذ زمن، ولكن تلك الصورة عالقة برأسها لا تبرح مكانها مهما مرت عليها السنون واختلفت عليها الرؤى.. مؤكد كبر الآن وتبدلت ملامحه، ولكنها لم تنطفئ.. سيكون في طول أبيه، وسيحتفظ بنحافته، وعيني أمه النجلاء الخضراء وشعره الأحمر الناعم.. كانت تلك الصورة ولا زالت في مخيلتها مرسومة.

بالفعل لم يتغير كثيراً كما توقعته.. منذ شهر كان في إجازة من السعودية.. وقفت في البلكونة تنشر الغسيل، فتوقف ليُسلم على أبيها.. ودقائق ورحل. تلاقت عيناهما عندما نظر إلى الخلف كأنه قد تذكر شيء ما.. تلاقت وابتسم، حتى هي بكل تلقائية لم تجد مفر منه سوى أن تُبادله تلك البسمة، وسرعان ما توارت خلف جدار البلكونة خجلى.

سمعت مؤخراً بزيارة أمه إلى البيت لطلبها لأبنها.

هل تتحقق الأحلام دون عائق؟ سبحان الله.. ولكني استحقه عن جدارة، لقد أحببته منذ أول وهلة في صورة من ماض بعيد.. ارتسمت ملامحها حتى نمت بداخلي ولم تهتز من مكانها.

اعتدلت فريدة على سريرها، وألحقت ظهرها بالحائط، ضمت ركبتيها إلى صدرها، شدت عباءتها إلى قدمها فلم تُظهر شيء منها.. أمالت رأسها قليلاً وقالت باسمة في صوت رخيم:

- أحبك.

انفرجت أساريرها لِمَ تركت الكلمة من صدى في نفسها.. لم تكن تتخيل لمرة واحدة أن الكلمة لها وقع موسيقي يطرب النفس وتُبهج الروح وتنقل الجسد إلى مكان يملأه تلك الغبطة.

تبسمت حتى انفرجت شفتاها عن أسنان ناصعة البياض رصت كلؤلؤ مُرصع على قطع من بلور في كل اتجاه منه بريق يأسرك.

أحبك.. أحبك!

أي سحر هذا الذي يحيط بالمرء ليبلغ منه كل جزء في جسده؛ فيملكه ولا يترك فيه سوى انتظار اللقاء.

***

حملت فاطمة فيروز على يديها، كانت سهلة الحمل لصغر جسمها، فلم يصعب عليها حملها تلك المسافة.

كانت تبكي بكاءً هستيريًا، ينتفض به جسدها، وينتفض قلب أمها فزعاً على دموعها.

تورم ما تحت عينيها، فضاقت أكثر.

التفت شلة البنات حولها في المدرسة فضربنها، كانت فيروز تحفة الإذاعة المدرسية، التي تُغني فيطرب العالم، وتهلل الطيور فرحة بتغريدها، وتبتسم السماء فتكشف عن صفاء وزرقة نقية مهما كان من الشتاء وعتمته، تنطق بآه واحدة فيُصفق الجميع، عنصر من عناصر الحياة المختلفة على أرض لا مكان فيها سوى للتعساء، الذين فقدوا إنسانيتهم

فأفقدتهم حيويتهم في تقبل نفوس الآخرين. فيروز الطفلة النابغة منذ أول يوم لها في الحضانة والكل يستبشر لها خيراً، تسبق سنها بكثير، هي أشبه بفريد إلى حد كبير، ولكنها تملك حس الدعابة، وصوت ملائكي، يبتسم للهواء في الطرقات فيضحك له.

هلعت الأم لِمَ أصاب ابنتها، ذهبت إلى المدير، ففصل البنات، وذهبت إلى أهلهن فعنفن بناتهن بالضرب المبرح. أي طفولة تلك المبنية على الغيرة والحقد والمعايرة في مثل هذا السن؟

لقد ملئت نفوس أهلهن بالحقد؛ فانعكست على بناتهن، فلم يعد أي منهن يرغب في رؤية أحد أحسن منه أو تقبل حتى كونه إلى جواره.. لو علمت الأم من قبل أن ابنتها شيطانة مثلهن لضربتها، ولكنها تعلم من وداعتها وسكينتها ما جعلها ثارت على الجميع، لم تطق تلك المرة أن تصمت، ولم ترغب في الصلح، فصل البنات من المدرسة لمدة أسبوعين، ومن الممكن فصلهن تماماً إذا اعترضن سبيل ابنتها مجدداً.

نامت فيروز على قدم فريدة التي بكت بدورها لمّا علمت ما أصابها، أحضرت الأم ثلجًا ومنديلًا، تبلله ثم تضعه على عينيها فتأوهت في نومها، فتبكي فاطمة. كانت فيروز بالنسبة إليها فلذة كبدها، لها فيه معزة غير اخوتها، هي بهجتها ورفيقتها في الطرقات تسير إلى جوارها كصديقة العمر تسندها ببسماتها، فتحملها ببهجتها.

قامت الأم من غرفة فريدة إلى غرفتها وأغلقت الباب عليها وبكت، بكت كثيراً على ما أصاب ابنتها لم تعد ترغب في العمل مجدداً، بنت الشغالة.. بنت الزبالة!

إن الإنسانية في مصر مرآة تعكس مدى قبح الواقع الذي نعيش فيه.

فقد الناس إنسانيتهم ففقدوا تواجدهم.

بنت الشغالة! ملعون أبوهم كلهم.

٦

قال عطية غاضباً:

– لن أسافر.. لن أسافر وأترك الأولاد دون سند.

– السند هو الله.

– ونعم بالله.. ولكني...

قاطعته فاطمة:

– أنت دائماً في سفر وترحال.

– في سفر وترحال ولكني بجانبكم هنا في مصر إن حدثت مصيبة لن يكون هناك وقت طويل وإجراءات كي أكون إلى جواركم.. بضع ساعات.

– والسعودية ليست في جهنم.

– الناس لا ترحم.

– لن تكون أول مَن يُسافر.. ثم إنك سافرت من قبل ما الفرق في ذلك.

فقال بحدة:

– الفرق أن عمري قد زاد.. زاد كثيراً، كبرت حتى أكل الشيب رأسي وأنهك جسدي فلم أعد قادراً على تحمل صعقات من نوع آخر.

- الأحلام لا تُبنى على الوهم.

- الواقع أسوأ حلم.

- الواقع صورة من الأحلام لمن رغب في تحقيقها.. والرغبة تتوقف على المال.

- وفيروز؟

فلوحت بيدها وقالت في حدة:

- يغرن منها أولاد الكلاب.

- لم تأخذ من حناني بقدر ما أخذ أخواها.

فقالت مطمئنة:

- لا تقلق.. سيمر الوقت سريعاً وستتحدث إليها كل يوم.

- بل أقلق عليها.. البنت تبدو في حالة نفسية سيئة للغاية.

- سأتقاعد من العمل.. طالما حَلُّمت بذلك.

- لقد عرضت الأمر عليك قديماً ألف مرة، ولكنك لم تستمعي سوى رغباتك.

فنفرت محولة رأسها عنه:

- لقد قلت لك بدل المرة مائة.. النواة قد تسند الزير.

فتساءل حانقاً:

- فإن مال وسقط في الوحل؟

- يكون الأمر من صاحبه إهمال وعجز وتقاعس عن إنقاذه.

- ولكني أبذل أقصى جهدي.

– لست وحدك من تُضحي.. سيمر الوقت بحلوه ومره، ولكن النهاية إن لم نرسمها من البداية ونتنبأ بها فقل علينا يا رحمن يا رحيم.

– ولكني أتوجس خيفة من هذا السفر.

– الخوف أمر عادي..

– ولكن...

– فكر في أبنائك تفكيرًا صحيحًا.. فريد أشهر قليلة تفصله عن كلية الطب.. وفريدة لن يمر عام وهي في منزلنا، ونحن أعلم الناس برغبة إيهاب بن محمد فؤاد الفرارجي.. أما فيروز فربنا يعطينا طول العمر كي نربيها.. لا عليك سأنقلها من مدرسة الصالحية إن لم ينصلح الأمر.

– على الله.

ظل يفكر عطية طيلة الحديث.. ركبه عفريت من الماضي، حاول طرده، ففشل، لا يبرح رأسه دون أن يقوده إلى الوحل.. قد تناسى الأمر منذ زمن، ولم يعترف به من الأساس، ولم يواجه أحد دون نفسه..

ولكن الفرص لا تتكرر حقيقة والعمر يمر سريعاً، ولم أصنع لهم شيئًا يشكروني عليه في حياتي ويترحموا عليَّ بعد مماتي لأجله.

هل أصدع بما أؤمر من فاطمة؟

هل رأيها صواب؟ أنا أؤمن أنه الصواب قبل أن أعرضه عليها.. قبل أن أدخل في هذا الجدل الحاد، أعلم مسبقاً أنها ستوافق.. فلو كنت أضمر نية مُسبقة في الرفض فلماذا عرضت عليها الأمر من الأساس.

فيروز تبدو عاجزة تماماً.. تبدو على وجهها علامات الشحوب، غير مثيلاتها ممن في مثل سنها.. البنت تبدو جميلة جمال ساحر، مسالمة لأبعد الحدود، غير هؤلاء الشياطين الذين أعدمت الإنسانية داخلهن، من

واقع يحيينه بين أهلهن.. أنا لا أجد معنى لضربها من أطفال في سنها ومعايرتهم إياها إلا الغيرة والحقد، فكيف تكون نفوس أهليهم إن كانت نفوس أطفالهم بهذا السوء؟

صوتها! أم كلثوم أو شادية، أو شيء مركب بين هذا وذاك.. حتى جمالها لقد أخذت جمال سحري لم يتطبع به أحد من إخوتها، في وجهها قبول آخذ وفي عينيها بسمة تُجبرك على حب الحياة والابتهاج عند مرآها.

كم كان يعود عطية من العمل منهكًا لينظر إليها نظرة واحدة تُنسيه كل همومه، ويطيب فيمضي بنفس راضية عن الدنيا رغم ما تخبئه إليه من أحزان في واقع أليم وأشياء دفينة وماض سحيق، لو أخرجها لأحرقت الأرض بمن عليها وانقلب كل شيء.

فيروز تلك التي لم تخلق لتعيش بين هؤلاء المجانين الفاقدين لكل قيم الحياة.. الذين ذهبت إنسانيتهم بعيداً.

منذ زمن وفاطمة تعمل في المدرسة، وهي نفس المدرسة التي تخرج منها فريد وفريدة، ولم يعايرهما أحد بأولاد الزبالة.. لقد ساءت نفوس الناس فساءت تربية أبنائهم، فأسقطوا من حولهم حياة كاملة بقبح دواخلهم.

ضم الأب فيروز إلى صدره، علمت برحيله عنهم في وقت قريب، ترجته ألا يذهب مجدداً، فلمعت عيناه بدمعة تماسك لها، وقبَّل رأسها وجلست على حجره في الصالة تُردد لشادية:

ماشي حبيبي ماشي ماشي هذا بكره ماشي

وقولوا لعين الشمس ما تحماشي لأحسن حبيب القلب صابح ماشي.

٧

جاء محمد فؤاد الفرارجي يصحب زوجه جميلة إلى بيت عطية ناصف، والحق أنها هي من يصحبه وليس العكس. امرأة قوية، لا تدل ملامحها على ذلك، قادت البيت منذ أن أنجبت إيهاب وقد فرضت سيطرتها عليه، هي الآمر الناهي فيه.. سلم الرجل للأمر وأذعن، كي يرتاح باله.. هي تحترمه وتُكن له الحب كل الحب، ولكنها لا ترغب أن تبدو ضعيفة كي لا ينهار البيت، أو يخرج عن الخط الذي رسمته له، فإن حاد كما تسمع من البيوت الأخرى ينهار البيت على أصحابه.. يحيون حياة طيبة ميسورة الحال، بعدما خرج على المعاش، وتقاعد في البيت أشارت إليه بفتح دكانة الفراخ التي ورثها عن أبيه -وأغلقت منذ زمن- كي تكون مصدر رزق آخر، حتى بعدما سافر إيهاب وأغدق عليهم من المال الكثير ما يؤمنهم لم تقفله كي تخزي العين.. فكانت تقول دائماً:

- عين الحسود فيها دود إن خرج على المحسود أكله.

منذ زمن بعيد وهي ترسم على فريدة، تعرف أصلها وفصلها، غير أن البنت طيعة وهادئة، لن تُناكفها أو تتعبها في القيل والقال ونقار حاد لا فائدة منه، كما تفعل بنات هذه الأيام.. غير أنها كانت تعلم سلفاً ما يُضمره ابنها لفريدة.

رحبت الأسرتان ببعضهما، تصافحا في حرارة وتبادلا القُبلات، كان البيت مليء بالفرحة، فقد علمت فاطمة من قبل بالزيارة، فحاولت أن تجمع شمل البيت كله، ولو طالت لدهنت الحيطان من جديد

كـي يكـبروا في نظرهـم، ولكنهـا تعلـم أنهـم يعرفـون البئـر وغطاءهـا. بخـلاف مـا تُضمـره فاطمـة مـن تجديـد البيـت.

مـر الوقـت ثقيـلاً إلى حـد مـا، كلام عابـر لا أحـد يطـرق البـاب المقصـود، فريـد صامـت تمامـاً وكذلـك أبوه وأمـه، وكذلـك عائلـة العريس كأنهـم أغـراب عـن بعضهـم البعـض، وفي الغرفـة جلسـت فريـدة إلى وفـاء البيبـاني تحـاول أن ترسـم إليهـا كُحـل عينيهـا، بعدمـا نظفـت وجههـا الـذي لم تتركـه فاطمـة قبـل أن تُعيـد عليـه مـرة ومـرة ومـرة، وهـي الخبـيرة بالأمـر، انتهـت وفـاء، فبـدت فريـدة كقمـر مـضيء يعيبـه القـرب؛ كـي تكتشـف دمامـة أنفهـا رغـم مـا حاولـت أن تُخفيـه وفـاء بالبـودرة ودرجات المكيـاج المختلفـة، ولكنهـا في النهايـة بـدت عـروس متكاملـة الأوصـاف.

خرجـت فـيروز في فسـتان أسـود قصـير مـن تحتـه بنطـال أبيض مشـدود عـلى فخذيهـا، وزغـردت، لتقطـع هـذا الحبـل مـن التفكـير وتمنحهـم فرصة للدخـول في الموضـوع فتبسـم الجميـع، وقالـت جميلـة:

- الله يجازيكِ يا مقصوفة الرقبة أنتِ.

وزغـردت مـرة أخـرى فـيروز وهـي تُغنـي يـا دبلـة الخطوبـة عقبالنـا كلنـا، كانـت تتمايـل كعروسـة مولـد وقـف الجميـع يشـاهدونها باسـمين، فزغـردت جميلـة وتبعتهـا فاطمـة، ولم ينبـس أحدهـم بـشيء وتفهـم كلا الطرفـين مقصدهمـا، وخرجـت القمـر، تحمـل صينيـة شربـات قدمتهـا لحماتهـا، ترتـدي فسـتان زهـري فضفـاض أنـار وجههـا وأضـاف إليـه بهجـة، تلاقـت عيناهـا بحماتهـا فانفرجـت أسـاريرها غـير أنهـا اختلجـت فخجلـت وحاولـت أن تـواري خجلهـا؛ فطأطـأت رأسـها ووضعـت أمامهـم الصينيـة وحاولـت أن ترحـل غـير أن جميلـة أقبلـت عليهـا، وأجلسـتها إلى جوارهـا في حنـان، وبـدأت يدهـا تعبـث بجسـد فريـدة، وهـي في أشـد حالاتهـا مـن الخجـل.

-كبرت فريدة كثيراً يا فاطمة.. كبرت وعجزنا نحن.. خرطها خراط البنات وأخذ ما بقي مِنا فدب الشيب في رؤوسنا.

فقالت فاطمة مُداعبة:

- تكلمي عن نفسك.. لازلت محتفظة ببعض الجمال ولم أستسلم للشيب.

وقام الرجلان ومعهما فريد وتركا النساء يرتجلن في حديث طويل لن ينتهي، وسُرعان ما أفلتت فريدة من يد حماتها ولحقت بها فيروز.

٨

وقفت سناء أمام المرآة وقد تعرت تماماً إلا مما يواري عورتها.

الربيع يحاول التغلب على النسمات الباردة في الجو، وهي لا تُبالى، دائماً صيف كان أم شتاء، تلك وقفتها المميزة في الصباح، منذ أكثر من خمس سنوات.. مذ أيقنت أن فريد قد بلغ المراهقة وأيقن حقيقة الحياة الثانية، تحاول أن تُغريه، تعلم تمام العلم أنه يُشاهدها خلف هذه الشرفة رغم ما يحاول أن يُخفيه من جسده فيفضحه ظله.

هو لا يعرف لماذا تقوم بذلك، كل الذي يعرفه حق المعرفة أنها تفعله عن عمد، هي تعلم أنه يُراقبها في كل صباح في مثل هذه الساعة، ولا تخشى أن تفقد احترامها أمامه، أو أن ينقل الأمر لأبيه وأمه فيُفتضح أمره، ولكنه يعلم أيضاً أنه لا يجرؤ على ذلك.. ستوبخه أمه أنه يتطلع على الجيران -وأي جارة هي إنها سناء الخواجة سيدة القرية كلها وصديقة أمه المقربة- وكل بيت وله حرمته، وإن قال لأبيه ربما ينقص من نظره.. الشيء الممتع أن يُشاهد الأمر وحده دون أن يُخبر أحدًا بذلك.. أين يباع اللحم بالمجان في هذا الزمن ويرفسه المُشتري مُحتجاً على طريقة البيع؟

امرأة لعوب؟

قد تكون.

وقد تكون مريضة أصابها الجنون فما عاد لعقلها مكان سوى الشهوة كي تقدر على إمرار الزمن من بعد وفاة ابنتها.. ربما تحاول أن تقضي وقت ممتعاً تنسى به الماضي؟

لا أحد يعلم الأمر ربما هي نفسها لا تعلم ما الذي تفعله بحياتها ونزواتها التي لا يجرؤ أحد على مصارحتها بها، لأنه لا يوجد من يقدر على إمساك ولو خطأ واحد عليها سوى فريد، الذي يُشاهدها وهي تُدخن وهي تشرب الخمر في الليل وقد تركت بصيص نور يُراقبها منه، هو الذي يعرف عنها ما يفضحها، ولكن أي دليل على ذلك، ما الذي سيُفيده إن افتضح أمرها.

كثير ما كانت تبدو كالمجنونة في غرفتها، تُحدث أشباح لا يخلو الليل منهم، يراها تتمايل، ويرى شفتاها تتحرك وتتلوى في غموض، وأحياناً كثيرة تبكي، تبدو وهي تتلوى داخل نفسها وتتكور كطفل رضيع أنهكه مرض مؤلم في معدته؛ فما عاد قادراً سوى على التبلور.. حاول أن يُترجم هذا الهمس البعيد أكثر من مرة، ولكن الأمر محال أن يُحققه.

تلك المرأة الغربية المريبة التي أثارت في نفسه الكثير من التساؤلات تمنى كثيراً أن يتحدث مع أحد عنها؛ كي يقضي على تلك الهواجس، ولكن أحداً لن يُصدق حكايته تلك ولو حلف على ألف مصحف.

تخيل كثيراً أنها ليست جارته، وأنه يعيش فى أحلام المراهقة ووحدة وانطوائية عن العالم الخارجي، وإن هذه ليست سوى شبح مُرعب، لن يتمكن من اللحاق به.. فحاول أن يستمتع ليس إلا.

امرأة قوية مثلها، بضة الجسد ببشرة فريدة وجمال ساحر لم يؤثر عليها الزمن رغم الخامسة والأربعين، ولم يترك فيها خيط واحد من شيب.. هي تملك الكثير من المال تركه إليها زوجها غير عقارات

تـدر عليهـا الكثـير، ولكـن المـال وحـده لا ينفـع إن كانـت الفحشـاء تتصـدر مقدمتـه أو الجنـون.

ولكن الجنون هو متعة الحياة المفقودة في دنيا اللذات.

فمَن يُعرض عليه جنون اللذة ويختار العقل والمحرمات والقيود؟

إنهـا امـرأة حـرة، لم ترغـب في قيـد أبـداً مهـما كانـت الظـروف، ومهـما كانـت العـروض مغريـة، الكثـير يتمنـى منهـا إشـارة كـي يجلـس تحـت قدميهـا يُلبـي كل شيء تطلبـه دون أن يرفـع عينيـه تبجحـاً كان أو تطلعـاً.

هـي تُغـدق الكثـير مـن المـال عليهـم، كـي تخـرس الألسـنة ولا أحـد يجـرؤ عـلى كلمـة واحـدة ينطـق بهـا.

اللهـم ليـس إلا السـيد البرنـس هـو الرجـل الوحيـد الـذي تتحـدث إليـه بتـودد لعلاقـة قديمـة تربطهـما، وعطيـة ناصـف لأنـه زوج صديقتهـا، وغـير ذلـك فالجميـع لا يرغـب في فتـح النـار عـلى نفسـه، رغـم مـا تبـدو المـرأة فيـه مـن الهـدوء فهـي تملـك لسـان مـن سـياط يقصـم الظهـر إذا مـا حـاول أحـد أن يعـترض طريقهـا أو أن يُلقـي بكلمـة لا يعـرف مصيرهـا.

اسـتلقى فريـد عـلى ظهـره، وهـو يتخيـل إن كانـت إلى جـواره تلـك المـرأة، مـا الـذي سـيفعله، ونـدت عنـه أنـه خافتـة وقـد تعـرق جسـده.. وتذكـر شـيئًا مـا؛ فأنتفـض مـن سريـره كأن جمـرًا كان تحتـه وقـام يـذرع الغرفـة جيئـة وذهابـاً.

٩

تقاعدت فاطمة عن العمل، ونقلت فيروز إلى مدرسة أم المؤمنين بقرية مجاورة، حيث لا أحد يعرفها هناك، كي توفي بوعدها وتمهيداً لسفره.. بدأ عطية في التجهيز للسفر على أن ينتقل إلى الرياض في الخمسة عشر من مايو ألفين وثمانية.. عاتبه كثيراً السيد البرنس لأنه لم يأخذ رأيه في الأمر، ولم يرجع إليه وهو صديق العمر، وصاحب العمل ومن أدخله في هذه المهنة منذ أن فكر فيها، بل هو الذي عرض عليه العمل وانتشله من الضياع.

ليلة سفره امتلأ البيت عن آخره بالجيران، جاءه محمد فؤاد وزوجه، وحملاه بزيارة لإيهاب الذي سينتظره بدوره في المطار، وجاء إسماعيل البقال والحاج عبده المكوجي كلهم كانوا جيراناً في بيته القديم في أطراف القرية قبل أن يشتري هذا البيت وينقطع عنهم.

الوحيد الذي لم يأتِ معهم، ولم يكن حتى ينتظره عطية حتى بوغت بزيارته هو السيد البرنس.. لم يكن يبحث عنه بين الواقفين، لم ينتظر زيارته بعدما وبخه في القاهرة قبل مجيئه أمام العمال.

توقف الرجل أمامه وقال بلهجة لم تخل من عتاب:

– كنت أحسب نفسي أول من سيعلم بالأمر.. وأنا أكثرهم حباً للخير لك.

فصمت عطية ووجم، وحاول أن يتمالك نفسه.

فأردف السيد:

– عندما قال لي المهندس أنك ستسافر لم أصدق، ما الذي حل بك كي تُخفي عني أمر كهذا.. كنت أحسب حتى الأمس القريب أننا أصدقاء.

فقال عطية متوتداً، وهو يضمر عكس ما يُظهر:

– كنت سأخبرك ولكن المهندس سبقني.

– وكنت ستسافر حتى دون أن أودعك.

فقال عطية في غضب:

– وكيف أخبرك بعدما وبختني أمام من يساوي ومن لا يساوي.

– كنت أعلم أنك ستغضب.. ولكن الأمر لم يخطر ببالي أنه سينتهي بك هكذا.

– المهم أنها انتهت وأنت هنا.

– لا عليك أنا هنا لأن الست فاطمة الله يبارك لها قد أرسلت إلى فريد ليُخبرني..

فتساءل في حيرة:

– فاطمة؟

– بلى فاطمة.. ناس تفهم في الأصول.. ولكن ليس عليك حرج فقد ناب عنك من يحمل العبء.

لم يكن عطية يود أن يراه مرة أخري، كل شيء ينقلب رأساً على عقب، صحيح أن السيد البرنس صديق عمره، ولكنه أيضاً لم يكن يرغب لتلك الصداقة أن تعود، هو تعود على أن يأخذ المصلحة منه ويشكره أو لا يفعل في كثير من الأحيان، ويبتعد رغم ما يود الرجل فيه من التقرب من بيته وآله..

لماذا دعته تلك المرة فاطمة، أنا مسافر ولا أرغب في أن يتدخل في شأن البيت أحد، مع أني شديد العلم بأنه سيزورهم عاجلاً أم آجلاً.. لابد أن أخبر فريد بذلك.

لم يكن عطية يرغب في خسارة أصدقاء له بهذا القدر، ولا أن يصنع مشكلة من العدم على حد قول فاطمة، كي لا يرى في أبنائه الشتات وهم يرون أبيهم في المرات القلائل التي تجمعهم به في ثورة جنون.. يحاول دائماً أن يتمالك أعصابه وألا يُثير المشكلات، هو يحب أن يرى البيت متزناً لدرجة كبيرة، منذ أن أنجب الأولاد وهو يخشى الفرقة كأن الزمان يخبئ إليه الكثير، وسيأتي اليوم الذي يكشف فيه عن أنيابه فيقتله ويقتص منه في مجهول يُطارده وشبح من الماضي.

فأمسك السيد بكتف عطية، وتساءل في حيرة:

- أين ذهبت؟

فصمت للحظات يحاول أن يجر عقله من تلك الذكريات التي تعصف برأسه بين حين وآخر وهذا التفكير الدامي.. وحرك رأسه، وطقطق رقبته، وقال مرتبكاً كمن يبحث عن الكلمات التائهة مُتهتهاً:

- الأولاد.. كنت أفكر.. كنت أفكر في الأولاد من بعد سفري.

فقال السيد مواسياً:

- لا عليك أنا هنا لن تتركهم في العراء.

فلطم عطية الهواء بيمينه كمن يلطم وجه الزمان على تقلباته.. وتعانق الرجلان وكان البيت في حالة من السكون عمت كل أركانه حينما انسحب المهنئين كل في ذيل الآخر، سلموا عليه ولم يأخذ باله من أحد.

الكثير فرحوا بذهاب الرجل؛ لأن البيت كان في حاجة لتلك الغربة، حتى الأقربين منه. فاطمة لم تكن لتفكر ولو للحظة واحدة في عواقب هذا السفر، هي دائماً ما تحتاج إليه وهو دائماً في سفره فما فائدة الغربة في مصر إن كانت تُدر عليهم كسرات الخبز وهناك غربة في دولة أخرى يجنيان منها خيراً وفيراً.

فريدة ربما حزنت على فراق أبيها، ولكن لديها من يعوضها عن ذلك، فلديها حبيب ستمضي وقتاً معه من الخجل والارتباك والحديث المتقطع بالأنين، وانتقال الأرواح من بلد إلى بلد.. أما فريد فلم يكن هناك فارق كبير في حياته ناحية أبيه، اللهم ليس إلا تلك الجلسات التي كانا يتبادلان فيها الحديث في كتب من مكتبة أبيه فهو له عالمه الخاص في تلك الغرفة الموحشة، التي يعتقد أنها كوكب ثامن في فضاء داخلي لا يطرقه سوى من وافق على دخوله، تلك الغرفة التي تُمثل له الكثير، خلوته ووحدته، أفراحه وأتراحه، محطة شهواته وصلواته، هي جنته وناره، هي ملتقى حبيبته وذكرياته. فهو منذ صغره فيها لا يعلم أحد عنه شيئًا وهو التلميذ النجيب، الممتاز، الأول على مدرسته دائماً وأبداً.

أما من حزن على فراقه حقيقةً هي فيروز التي بكته كثيراً عندما علمت بذلك.. حتى قالتها له صريحة» لا أرغب في سفرك يا بابا» -وهو أيضاً مسافر مغلوب على أمره، الحياة باتت عسيرة جداً في مصر- حتى ليلة ما اجتمع الجميع في البيت أخذت هي ركناً بعيداً في غرفتها وانزوت فيه باكية ولم يرها أحد من الزوار.

ولكنها طفلة والأطفال سرعان ما ينسون ألم الفراق.

قالتها فاطمة مطمئنة.. ولكن الأطفال هم أكثر الناس إلماماً بالذكريات التي تُكَّون في نفوسهم فجوة لا يُصلحها الزمن مهما بلغت سعادتهم؛ فالقسوة قد كسرت فيهم حاجزاً كبيراً لن يُبنى مرة أخرى.

١٠

اشتدت أيام شهر مايو، الثانوية العامة غبار زمن عاصره الجميع، وستظل هي الرحى التي تتحطم عليها آمال الشباب لتحدد مصائرهم؛ فتُلقي بكل منهم في تيار جارف يختنق من لم يجن ثماراً تَوقعها، ويبتهج من كان الاجتهاد حليفه، غير أنها ليست بالأحرى نهاية تتكسر عندها الأحلام.

معسكر مغلق تماماً.. الغرفة انقلبت أوراقاً فوق بعضها البعض، لا وقت لدى فريد سوى للمذاكرة ونوم خلسة يقتطعه من ساعات كَدّه. نقص وزنه كثيراً، وبدا ما تحت عينيه فاقدًا للحياة، انطفأ لما يبذله. ولكن النجاح في مصر يتوقف على السعي، والسعي مادة الفقراء كي تُجبر خواطرهم فتنقلب حياتهم رأساً على عقب، ولو بنتيجة مزيفة تتوقف عندها الحياة بعد ذلك وتُصبح محض ذكرى.

تنهار فاطمة أمام التلفاز وهي ترى دموع زملائه على الشاشة وانهيار عصبي بعد كل امتحان، وهو يأتي يُلقي السلام ويدخل غرفته دون كلمة واحدة عما أبلاه سوى الحمد لله، تنغلق الغرفة، تُعد الطعام وتُدخل صينية سُرعان ما يُخرجها ويعود إلى صومعته مجدداً.

انتهت الامتحانات ولا زال منطفأ، يحاول البحث عن نتيجة مغرية تُضيء ما بداخله، يقلق على حبيبته أكثر من قلقه على نفسه.

ماذا لو فرقتنا الأقدار بعد كل هذا الجهد الذي بذلته كي نحتفظ بمكان معًا أراكِ فيه ولا تبتعدين عن عيني، مؤكد سيُجبر الله خاطري ونكون معاً في نفس الجامعة.

وأتت الرياح بما لا تشتهي السفن، حصد تسعة وتسعين بالمائة، فكان من أوائل الثانوية العامة، في مشهد لم تشهده مصر من ذي قبل في أصعب امتحانات في تاريخها، وأخفقت نور فلم تجني سوى تسعين بالمائة، أتت كلية الطب إليه على أكف الراحة -بل قدمت الدولة إليه منحة كأوائل الجمهورية للدراسة في أي جامعة يختارها- وأتت إليها العلوم؛ حزن ولم تفارقه الدموع، عبس وجهه وأنطفأ كثيراً، ابتهجت فاطمة وبات الشربات يُوزع على الشارع أجمع.

الدكتور فريد عطية ناصف.. يا له من اسم موسيقي.. يا أم الدكتور.. الدكتور ذهب، الدكتور أتى.. سأرفع رأسي من اليوم ولن يحنيها الزمن، سيتبدل الحال وستحترمنا الحياة وسنُرغمها على ذلك فقد بات العلم حليفنا.

حاول أن يُظهر القليل من الفرحة حتى لا تظن أمه فيه الجنون، حاول أن يتغلب على نكبته وانتكاسته في نفسه لِمَ أصاب حبيبته.

ما الذي يتحتم على فعله؟

بات كالمجنون، حتى أتخذ قرار أهوج في لحظتها، صارح أمه وبكل برود:

- لا أرغب في دراسة الطب.. سأدرس بكلية العلوم.

رمقته الأم مستنكرة، وتساءلت في حيرة:

- علوم؟

– نعم العلوم.. لا أرغب في الطب، أرغب في دراسة الكيمياء ال...

فقاطعته بحدة لم يعهدها:

– يبدو أنك خرفت.

فعلا صوته محتجاً:

– بل إني عاقل تماماً.. وواعٍ لكل كلمة أقولها.

– لن تدرس سوى الطب.. أتريد أن تُحطم كل آمالي فيك.. أنت رجل البيت وسنده من الآن.

– ولكني لست راغباً في ذلك.

– بالأمس القريب كنت ترغب في دراسة الهندسة رغم علمي بشغفك بها، ثم تابعت جنونك وحولت إلى علمي علوم، وأنا على علم تام أنك تقدر على فعل ما ترغب فيه، وأنك عاقل بما فيه الكفاية كي تختار فلم تعد صغيرًا.. واليوم تفاجئني بعدم رغبتك في دراسة الطب بل الكيمياء.. يا رب صبرني على ما بلاني.

– ولكن.

فقاطعته وعلا صوتها وبدت كثائرة مجنونة فقدت ما بقي من عقلها:

– حدث أباكِ يرى ما ترغب لقد ابتلاني الله فيك، ولا أعرف ما الذي أصابك يا مجنون يا بن المجنونة.. ربنا يأخذكم جميعاً فأرتاح.. كيمياء يا محروس؟ ما الذي بدل حالك هكذا.

ودلفت إلى غرفتها باكية، منتحبة، تدعو على أبنائها جميعاً.

١١

– أنا لا أشعر بالراحة لقرارتك..

قالها عطية ناصف لفريد في هاتفه بنبرة استعطاف.. وهمهم الأخير غير أن أبيه استطرد:

– إن كان هناك شيء ترغب في مصارحتي به أعلمني إياه ولن نُرغمك على شيء.

فقال فريد بشيء من البرود:

– الأمر كله أنني لا أحب الطب، اخترت علمي علوم كي أثبت لنفسي أنني قادر على تخطي تلك المرحلة الصعبة بكل سهولة.. ثم تأتيني القمة واختر دونها.

– الأمر ليس بهذه السهولة.

– والله هو بكل تلك البساطة.

– لم أعتد منك الكذب.. صارحني.

– ليس هناك شيء يحتاج للمصارحة.

فصمت الأب لوهلة يستحضر فيها صورة من الماضي، وعندما اكتملت رؤيتها قال بصوت رخيم:

– عندما كنت في مثل سنك عُرض على منصب في شركة كبيرة للبترول بالسويس.. ولكني رفضت راغباً في الحياة بالقرية، بين أبي وأمي رحمهم الله، لو كنت وافقت لَمَا تغربت اليوم.. وما كنتم تعيشون في مستوى مهدد دائماً بالسقوط لولا سفري هذا.. المهم أن الفرصة تأتي مرة واحدة، والعمر واحد والحياة واحدة، فإما أن تقنصها وإما أن تعيش منكس الرأس نادماً على ما أضعته طيلة عمرك ولن يعود الزمن مرة أخري ليخدمك.

– ولكني..

فقاطعه وأردف:

– لا أريد منك جواباً الآن.. ولن أتحدث في هذا الموضوع مرة أخرى، افعل ما يحلو لك ولكن عليك أن تعلم أن مصر بل العالم أجمع لا يحترم أحداً سوى المهندسين والأطباء وهم من توفر لهم الحكومة فرص للعمل مجبرين على ذلك.. أما الكيمياء فمن الممكن أن تدرسها إلى جوار كلية الطب وستدرسها داخلها، ولكن ليس باستفاضة، ولكنك من الممكن إن كان شغفك بها لهذه الدرجة أن تطرق أبواباً عدة فيها.

وصمت للحظة، يتحسس وقع كلماته:

– لو أن الزمن يعود بي لأكملت دراسة الحقوق، ولم أستمع لهواجسي وأجري خلف المال.

وكان عطية قد ترك دراسته باحثًا عن المال، بعدما أغرته الصنعة، وأغدقت عليه الكثير الذي أضاعه لطيشه حينها.

وأغلق عطية الهاتف معه بعد أن ودعه.. وترك حبلاً من التفكير في واقع مرير يحييه فريد بداخله.. فهناك شخصان كل يبحث عن نفسه، شخص يحب وشخص عملي يحاول أن ينتقل من تلك الحياة إلى عالم الأحلام، حيث المال ورغد الدنيا، التي لم يجني منها سوى البؤس..

نـور؟ هـل سـتُقدر حقـاً هـذا الـدور الـذي يُغامـر بـه مـن أجلهـا، متـى يكشـف السـتار عـما خلفـه؟ متـى تواتيـه الجـرأة كـي يخـترق هـذا البـاب الموصـد بالفقـر وقلـة الحيلـة.

هل لو أقنع أمه بها، سيقنع هو نفسه بما سيُلقى فيه؟

هـو يعلـم تمـام العلـم أن الحيـاة التـي يحيونهـا مهـددة.. الثلاثـة أشـهر السـالفة انتـصر الأب وباتـت الأم تـدر عـلى البيـت حيـاة مختلفـة، وشـتى ألـوان الطعـام والـشراب والملابـس، بـل أنهـا دهنـت البيـت بأكملـه، أصبـح عطيـة بعـد أول شـهر في السـعودية يُرسـل المرتـب كامـلاً غـير تلـك العـلاوات التـي تنـزل عليـه مـن السـماء، بـاب رزق مفتـوح، ولكنـه يشـعر في قـرارة نفسـه أنـه ليـس سـوى شـاب صغـير إن دفـع بنفسـه في هـذا الوقـت في تيـار الخطبـة ومـا إلى ذلـك مـن سـيصرف عليهـا، كليـة الطـب مـادة مسـتحيلة للحـب، لـن تـدع لـه مجـالًا كـي ينبـض قلبـه، الدراسـة فيهـا كل شيء ولـو أخفـق للحظـات شرد فيهـا عقلـه فأصـاب قلبـه الهيـام وتُيـم لفشـل فيهـا، الوقـت ضيـق جـدًا، وعليـه أن يختـار، كليـة الطـب وواقـع يعيـش فيـه بعـد ذلـك بلقـب يحترمـه الجميـع، وحيـاة تبـدو مسـتقرة لأبعـد الحـدود عـلى مـدى بعيـد ودرجـة علميـة مرموقـة ونظـرة مـن المجتمـع فيهـا الكثـير مـن الإجـلال والاحـترام، أم أن يعيـش في صخـب الحـب بـين قلـب لا يعلـم دفائنـه، ونـور يسـطع في نهايـة نفـق مظلـم تُنـيره بقلبهـا وبسـمة عينيهـا تناديـه بـأن الحيـاة دونهـا عبـث وبهـا تكتمـل، وأن الذكـرى التـي لا وجـود لهـا بهـا لا حيـاة فيهـا.

أيهما يختار؟

وبـين أي واقـع سـيُلقي بنفسـه، تيار جـارف من الحـب، أم مـاء راكد من الواقع؟

١٢

- أحبكِ.

تورد خداها من شدة الخجل، وارتبكت وبات جسدها ينفض عرقاً، كمن أصابته الحمى، حمى الحب والعشق.. وصمتت لوهلة لم تقدر أن تنبس، وحاولت أن تُخرج كلمة واحدة ولكنها أطبقت، لم تقدر على أن تتفوه بكلمة يتمنى أن يسمعها إيهاب، هو يعلم أنها تُخفي الكثير، ولكنها تخجل حتى أن تنطق بها، كل المكالمات كانت تصمت لدرجة كبيرة، تقول كلمة لا أكثر وتتبعها بصمت تام لا يخلو من مشاعر.. لقد استدرجها مراراً حتى بات لها صوت مسموع. كانت فريدة تذوب لكلمة منه، لا تعرف كيف تلتقي به يوماً ما بكل هذا الخجل، حاولت كثيراً أن تجمع مشاعرها دفعة واحدة وتنطق بكلمة أو تفتح سمراً طويلاً لا ينتهي إلا بعودته سالماً أمام عينيها تحتضنه دون أن يلمسها، كعناق روحين في سماء الحب لا يلوثها واقع.. وانتصرت أخيراً على خجلها فباتت تتحدث بالدرر.

قال:

- عيناكِ -تلك المرة التي رأيتك في الشرفة- أخبرتني أن هناك حبًا ينبض منذ زمن بعيد وحان وقت لقائنا.. كنت طائرًا من الفرحة وأنا أحدث أمي عنكِ.. لم يسع الوقت كي آتي لأقابل أباك بنفسي، وأراكِ عن قرب فألمس سحرك؛ لتذوب روحي بروحك ويصبحا كنغمة عود على وتر من العشق طرفاه قلبين ينبضان بالحياة.

ازداد خجلها، رغم بُعد المسافات، وكاد خداها ينفجران من الاحمرار، وعيناها تُصدران بريقاً ألقاً في تلك الظلمة من الغرفة الموصد بابها، وفيروز إلى جوارها في عالم الأحلام نائمة لا تدري شيئًا عن الدنيا.

تمتمت فريدة وهي تبتسم:

- ما عرفت الحب إلا من خلال قلبك.. ولا نبضت يوماً إلا لك.

كأني قد خُلقت كي أعيش بك فانتظمت أنفاسي منذ أن تلاقينا وقد كانت في اضطراب دائم قبلك.. وكنت مؤمنة بك لدرجة كبيرة، ولم تفاجئني زيارة أمك بقدر ما تمنيت أن أراك مرة أخرى عن قرب.

لقد تحولت فريدة في تلك المرات القلائل على يد إيهاب لعاشقة حقيقية تنطق بكلمات منظومة، لها نسق وسمع موسيقي يطرب الفؤاد لها وتهيم الروح حيث اللقاء فيتعانقا.. كان حب وردي لدرجة كبيرة، لا تشوبه شائبة.

قال إيهاب بعدما تلوى على سريره:

- ليتني أدركت منذ زمن أن ليّ أثرًا يتمنى لقائي في بيتكم فما حرمت نفسي متعته، وطرقت باباً لن يوصد في وجهي.. فخلفه حب يُشرق بشمسي.

- أتمنى أن يمر العام سريعاً فأراك أمامي وألمسك.

- تخيلي؟

- لن أدعك تُغادر إلا وقد ملكت قلبك.

فتساءل إيهاب مُداعباً:

– أتعتقدين أنه مِلك لغيرك؟

– يقولون إن الرجل لا يقع فى الحب من المرة الأولى.

– صحيح فلقلبه ألف دقة ودقة، مرة لمن تتمايل، وأخرى لمن تبتسم إلخ.

فتساءلت في دلال:

– كم مرة دق فيها قلبك إذن؟

– كثيراً.. كثيراً جداً.

– وهل كان ليّ من ضمنهن نبضة؟

فضحك قائلاً:

– كلا.

فقالت كالمستسلمة:

– فأختر لقلبي مكانًا بقلبك لا ينبض إلا ليّ وأنا راضية بذلك.

– لكِ كل قلبي فقد أقسم ألا يخون عهداً قطعه لأجلك.. منذ أول وهلة رأيتك فيها.

– لقد عرفت الحب بك ومعك ولم ينبض قلبي لغيرك، كأنه خُلق لك وكان مكبلًا بقيد حبك وجاء اليوم لتحرير قيده فتملكه.

تبسم إيهاب لِمَ تركه الكلام في نفسه، وصمتت فريدة لوهلة تذكرت شيئًا ما عكر صفوها، واستطردت:

– شد ما أخشاه ألا نلتقي أو أن انطفأ من بعدك.

– لِمَ تقولين هذا؟

- لأن الزمان لا يأمنه إلا من رأى منكره.

- معي لن تكون هناك غير الحياة التي تتمنين، ستُشرق شمسك ويجلو ضوؤك بقلبي ولن يُطفئه غدر العالم أجمع.

- أنا أحبك.. أحبك بالقدر الذي ما عاد لحياتي معنى دونك.

- أتمنى أن نلتقي عما قريب فيحتضن كلاً منا كلمة الآخر ويحلق بها في سماء صافية يجلو فيها نجمه.

وكانت الساعة على مشارف الثانية منتصف الليل في السعودية، فأستأذنها لينام وغادر القلبان هواتفهما ولا زالت الأصوات معلقة في فضاء بعيد، أرض العشاق والمحبين.

١٣

الإسكندرية ساحرة الجمال، تأسر الروح وتملك العقل مع أول نسمة هواء على بوابتها، تشم رائحة البحر عن بعد، يلمس وجهك، فيرفرف فرحاً متشوقاً للقاء مع شواطئه، لم يرَ فريد في جمالها أينما ذهب، تجذبه بقوة من أعماق نفسه لزيارتها فيبتهج، كانت زيارات المصيف التي يذهب فيها كل عام مرة أو مرات هي ما تدع بداخله نطفة من جمالها لا تكتمل إلا إذا تكررت الزيارة.

لم يتخيل يوماً أن تكون مقصده ومعيشته فيها، رفض المنحة الدراسية بالجامعة الأمريكية المقدمة من الوزارة، وأقبل على الإسكندرية بنفس راضية، لشيء ما في نفسه يُضمره عن الجميع، فضلاً عن رفض أمه بأن يبعد عنها ويعيش بالقاهرة بين طبقة مختلفة كل الاختلاف عنه؛ فيُنهكه الفكر وتصغر صورتهم أمام عينيه أو تنكسر.. رغم أنه في النهاية سيعيش بعيداً عنها بالمدينة الجامعية رغم رفض أبيه وخوفه أن يترك أخوته وأمه دون رجل في البيت.

كان الأمر في البداية ذهاباً وإياباً للقرية، ولكن الوقت أصبح ضيقًا وأنهكه السفر، أو هو الذي نفر من البيت حباً بالإسكندرية وصباحها، وشمس الأصيل تُداعب البحر ونسمات سبتمبر الباردة التي تضرب الحوائط في المساء فتُهيج القلوب. ولم ينس ليال البيت وسناء الخواجة تداعب جسدها سكرانة كانت أو منتشيه بجنون الحشيش، فكانت عودته في كل ليلة خميس إلى البيت؛ ليجد غرفته كما

تركها، كأن أمه تعهدت ألا يدخلها غيره في غيابه، أو وضعت على بابها قفل فأغلقت.

مستشفى المواساة تبدو إلى حد ما كئيبة، بل الكلية كلها غير تلك البسمات الموزعة من هنا ومن هناك بالمجان، ومن يضحكون بصوت جهوري لافت من تكتلات شبابية إسكندرانية ترعرعوا معًا منذ زمن فكانت الكلية هي بيتهم الثاني.

في أول أيام فريد بالكلية لم يكن يرغب في التعرف على أحد، مضت الأيام وهو لا يقف إلى جوار شخص، ينهي محاضراته ويعود مشياً على الأقدام إلى المدينة الجامعية قاطعاً شارع أبي قير إلى سموحة، يلعب القليل من الرياضة لطالما كان حلمه أن يحافظ على جسده المفتول العضلات، وينتهي من رياضته فيتحمم ويأكل لقمة قليلة ويبدأ في مذاكرته.

بدا هادئًا لدرجة كبيرة، لم يطرق أحدهم بابه طالباً صداقته، حتى شركائه في الغرفة، يأتون متأخرين فيجدونه نائماً ويستيقظون متأخرين فيجدونه منصرفاً، حتى لحظة تسلم الغرفة، لم تجمعهم سوى تحيات جافة خالية من أي مشاعر وتعرف بليد مثل مِمن أنت وما اسمك؟

أحدهم بكلية الهندسة، بالسنة الأولى بقسم الاتصالات ويُدعى سليمان عيد من محافظة كفر الشيخ، والآخر بكلية الحقوق بالسنة الثانية يُدعى إبراهيم العزبي من طنطا.

يعرف كل منهم الآخر، فليست تلك السنة الأولى لهم في نفس الغرفة، ولكن إبراهيم أنزوى عن سليمان عندما أطلق لحيته، وبدا الحديث بأمر الله يزداد والسياسة اللاذعة، غير أنه يحب صديقه، ولكنه لا يحب كلامه وتحدث إبراهيم يوميًا -وكان فريد لا زال متيقظاً- عن نزواته النسائية التي يتسكع لأجلها في الشوارع ليلاً طويلاً من المنشية

وبحري إلى المعمورة والمنتزه، ولم يترك حتى بلوكات البحر في الليل إلا ولها معه ذكرى، كثير الحديث عن علاقاته النسائية، ولا يكف عن الكلام عنها مهما وبخه سليمان، كان يُكرر على مسامعه كلما حاول منعه الحديث:

– بالأمس القريب كنت معي تستمع إلى حكايتي وتوقظني من أعز نومي كي أحكي لك تفاصيل ليلة من الليالي، اليوم بت شيخًا وتحاول أن تمنعني الحديث.

فقال سليمان عابساً:

– لقد تاب الله عليَّ إذ هداني.

فقال إبراهيم ساخطاً:

– أدعه كي يتوب عليّ.. وإن شاء الله ما تستجاب.

فلوى سليمان فمه، وقال معاتباً:

– يا أخي اتق الله.. وكفاك مجاهرة بالمعصية.

– وهل في الدنيا ألذ من المعاصي.

– ارتقب الجنة.. ففيها ما لا عين رأت.

فقاطعه إبراهيم:

– ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ونزل من سريره بعدما علم بيقظة فريد، وقال يُشركه في الحديث:

– رأيك يا دكتور قد يُغذي الروح في نزواتها.. بالله عليك هل الدنيا أجمل أم المجهول أجمل؟

فأستند فريد على راحتيه وقام من سريره، وأنزل قدمه إلى بساط الأرض ورفع رأسه باسماً إلى سليمان الذي بدا ساخطاً لدرجة كبيرة وقال متوداً كي لا يخسرهما في أول حديث معهما:

- أعتقد أن ربط الاثنين ببعضهما هو الأفضل.

فقال سليمان:

- ولكن الحياة مرة، والموت مرة.

فقال إبراهيم ليكيده:

- أحييني اليوم واقتلني بالغد.

فقال فريد ولا زالت بسمته على وجهه:

- حلمك على الرجل يا إبراهيم.

- ما هو غاوي نكد.

فقال سليمان متحدياً:

- ألزم أدبك يا إبراهيم.

فقال إبراهيم لفريد:

- والله العظيم كان يمشي إلى جواري على البحر لا يترك امرأة إلا وقد أتى بتفاصيل ومقاسات ملابسها الداخلية.

فقال فريد ضاحكاً:

- يخرب بيت فقرك.

- إياك تسمع له يا دكتور.

وبلغ بسليمان الحنق بعدما شعر أنه صغر أمام أعين غريب عنه في أول لقاء جدي وكان يرسم عليه الوقار، فقال وهو يخرج من الغرفة:

– ملعون أبو معرفتك يا شيخ.

– لست أنا الشيخ بل أنت يا شيخنا.

وقهقه إبراهيم حتى دوى صوت ضحكاته في الغرفة بل في المدينة الجامعية كلها، وضحك فريد ليتشاركا أول ليلة سمر.

فقال إبراهيم:

– دعك منه هو دائماً يغضب مني، ويرحل لقليل ويعود كما كان، نحن أصدقاء منذ عامين.. المهم أننا لم نتعارف غير مرة واحدة، من من؟ مِن هناك ومِن هنا وانتهى الحديث بيننا.

– لم تكن هناك فرصة ليس إلا.

– وهل هناك فرصة أحسن من تلك!

وقام إبراهيم واستند على المكتب براحتيه، وأحنى جسده قليلاً، وقال فريد:

– ليس هناك ما يهم في شخصي كي تعرفه، إلا ما قلته يوم أن تسلمنا الغرفة.

– لا أقصد ذلك، نتعرف أكثر ونتعمق بعلاقتنا فهي ما تبقى بعد سنين الجامعة.. ودعك من تلك الانطوائية.. صحيح أن الدكاترة مجانين وانطوائيين ولكني أعرف منهم أصحاء.

فتبسم فريد قائلاً:

– الأمر ليس بهذه الطريقة ولكن الوقت فقط هو ما يحكمنا.

وبدا إبراهيم يحدثه عن نفسه طويلاً وعن أسرته واهتماماته، وحياته ونزواته، ولم يجد فريد مانعاً من أن يُشاركه بعض تلك المعلومات عن نفسه وعن أسرته، وبالتأكيد لم يُؤشر أن أمه كانت تعمل عاملة نظافة بمدرسة الصالحية واكتفى أنها ربة منزل، وطال الحديث الذي قطع نصفه سليمان بحضوره ودخل ملقياً السلام ونام ولكنهم أكملوا، وبات إبراهيم منذ تلك الليلة رفيق فريد المقرب، وطريقه إلى دنيا جديدة تمنى أن يعرفها ولكنه كان يخشاها.

١٤

كانت طيف من الجنة، فيها شيء يجذب الروح إلى الروح فتجثو تحتها تنتظر رضاها، جميلة لدرجة الجنون، لها عينان صغيرتان يُزينهما الخضار وحاجبان رُسما بدقة فائقة لا تشوبها شعرة واحدة ضلت طريقها وانحرفت عنه، وأنف دقيق وفم صغير كخرم إبرة، ويميل وجهها إلى الطول قليلاً فضلاً عن صغر جبهتها، لها غمازتان ساحرتان وشعر ذهبي الأطراف متدرج لسمرة حالكة تنتهي في مفترق الرأس، جمعته خلف ظهرها كذيل حصان، تميل فيتمايل معها. ونهدان شاهقان مكورين ارتفعا؛ فبرزا في أقل إنحناء لجسدها انتشر في أعلاهما بعض النمش. ممشوقة القوام متوسطة الطول، ليس في جسدها غلطة واحدة، عود مختلف عن تلك الكتل الجامعية المنثورة أمام الجميع.

غطى نورها كل الأنوار.

هكذا كان يقول الجميع، فضلًا عن سياراتها البي أم دبليو الرصاصية اللون لهذا العام، لا أحد يعلم عنها شيئًا.. أتت في النصف الثاني من الأسبوع الثالث بالدراسة، تتحدث الإنجليزية بطلاقة، كأنها ولدت في قاموس لغوي بفيلم أجنبي.. عرف الجميع اسمها عندما سألت مرة في المدرج، وسألها الدكتور -الذي سُحر هو الآخر بجمالها- عن اسمها، فأجابت.

- نغم يوسف عثمان.

اه طبعاً ستكونين نغم.. لقد لمست أوتار قلبي والله.. يا لها من فتاة.. أموت أنا وأعيد السنة.. أخذ يردد كل في نفسه.. على تلك الهيبة لكلية الطب المعهودة من طلابها إلا أنهم مجانين لدرجة كبيرة، الجميع يظن فيهم البرود وأن عاطفتهم تجمدت منذ أول يوم دخلوا فيه الجامعة، مع أنهم أكثر الناس مخالطة بالنساء بعد ذلك..

يقول أحد الأطباء: يظل الطبيب محترماً حتى يدخل غرفة العمليات.

ويقول البعض أن الطب تُفقد صاحبها هيبته مع جنون الشهوة، التي تتحرك بداخله فضلاً عن عنفوان الشباب فيُلقي بالقَسم مع أول آنة خافتة من ساحرة تملأ صدره حناناً؛ فيميل.

الجميع عشقوها منذ أول وهلة، كانت فريدة من نوعها، جديدة بزيها المتحرر الضيق الذي لا يُشابهه الكثير في الكلية، تسير بهالة كبيرة وضعتها حول نفسها، لا أحد يجرؤ على الاقتراب فتنفجر في وجهه، فضلاً عن كونها أمريكية، كونت بعض الصداقات ولكنها لم تحب أن تُكمل؛ جميعهم تقليديين لدرجة كبيرة.

لفت نظرها مرة فريد وهو يتحدث في المدرج بإنجليزية قريبة جداً من إنجليزيتها، فالتفتت لصوته، وجدته مفتول عضلات الكتفين، طويل ممشوق القوام، قد أرسل شعره للخلف، ويُزين وجهه لحية منمقة شديدة السواد، مع نظرة ثاقبة من عينين نجلاءين شديدا السواد، كل ذلك إلى قميص أزرق مزين بنقط بيضاء على هيئة نجوم، مفتوح الصدر إلى تي شيرت أبيض ضيق قليلاً أظهر عضلات صدره من تحته. نظرت لكل ملامحه بتدريجها هذا، غير أنه لم يلتفت، حاولت أن تلفت نظره وهي مارة أمامه، ولكنه كان يلهو في دنيا غير تلك التي يعيش فيها الناس، الجميع يحاول التقرب منه وهو يردهم مقتضباً، لا أحد يصلح في هذا العالم كي يكون صديق له، كل منهم

لـه واديـه وهـو في واد آخـر، يُفكـر دائـماً في «نـور» حـاول أكثـر مـن مـرة أن يعـرف جـدول محاضراتهـا بكليـة العلـوم، ولكنـه يفشـل مـع تنظيـم وقتـه، يحـاول أن يراهـا مـرة واحـدة غـير أنـه دائـماً مـا تبـوء محاولاتـه بالفشـل.

اخترقـت هـدوءه نغـم ذات مـرة طالبـةً منـه محاضراتـه التـي كتبهـا في الأسـبوعين ونصـف اللذيـن فاتهـا، أعطاهـا إليهـا ولم يُبـال، لم يلتفـت لهـذا الجـمال السـاحر، لم ينظـر إليهـا نظـرة الجميـع عـلى أنهـا ملكـة متوجـة بتـاج ذهبـي فـوق رأسـها، وردت باسـمة تشـكره، فلـم يجـد مانعـاً مـن أن يبتسـم فبادلهـا تلـك البسـمة البـاردة وأكمـل سـيره، حاولـت في مـرات عديـدة أن تقتحـم هـذا الكيـان الصلـب فلـم تقـدر عـلى طـرق بابـه.

خلـف هـذا السـتار المنيع شـخص ذهبـي، عقل مدبـر وقلب هائـم، تُزينه روح حالمـة، ولكنـه لا يتحـدث إلى أحـد كمـن تـرك العـالم إلى عـالم آخـر.

يحـضر وهـو غائب الـروح متيقـظ الذهـن لا تخلـو محاضراتـه المكتوبة من إبـداع وتيقـن بـكل كلمـة تُقـال، ولكـن هنـاك شيء ناقـص فيـه، شيء انطفأ ويحـاول أن يبحـث عمـن يُعيـد إليـه نـوره وشمسـه فيُشرق مـن جديد.

وقـف عنـد بوابـة كليـة العلـوم بشـارع أبي قـير ودلـف منهـا، يحمـل البالطـو الأبيـض عـلى كتفـه ومعـه بعـض الكتـب في يديـه. يرتـدي قميصـاً أبيـض أغلـق كل أزرتـه فأظهـرت تفاصيـل جسـده عـلى بنطلـون جينـز كُحـلي اللـون وحـذاء أبيـض، وبـدأ الهـواء يُداعـب شـعره فيميـل يمنـة ويـسرة، فيرفـع يديـه ليُداعبـه ثـم يُثبتـه إلى اليمـين بمفـترق في يسـار شـعره يُميـزه.. بـدت عينيـه في تطلـع دائـم لم تكـن تلـك هـي المـرة الأولى التـي يدخـل لكليـة العلـوم ليتطلـع لوجههـا، حـاول أن يبحـث عنهـا بـين الجميـع ولكـن ليـس لهـا أثـر. بـدا كالمجنـون وهـو يتفحـص الوجـوه، وداخلـه شيء يُخـبره بأنهـا هنـا والواقـع يُجـبره عـلى الرحيـل ليسـت بـين الواقفـين أيهـا الأحمـق.

أقسم أنها هنا.. نظرة واحدة أملأ عيني منها وأرحل.. ورب الكعبة نظرة واحدة تُطيب حياتي.. يا نور أين أنت؟

أنهكه السير واللف داخل الكلية لساعتين فخرج وجلس على سورها بشارع أبي قير.

الأشجار متراصة في تواز تام والشارع يبدو خالياً في مثل تلك الساعة إلا من بعض من يرفعون كراس عزاء في دار العزاء المقامة أمام الكلية من الناحية الأخرى.

إنها الخامسة. أنهكه السير كثيراً فجلس يُفكر في العدم، قلبه يُخبره بشيء وعقله توقف عن التفكير، فضلاً عن أن روحه قد غابت عنه باحثة عن هدف لتُرضي صاحبها، لمح طيفها فوثب قلبه وعادت إليه روحه من جديد، واتزن عقله وقام من مكانه وقد لفحت وجهه نسمة باردة من نسمات الخريف طرفت عينيه فدعكها، وتحرك يعبر الطريق الأول ووقف على مقربة منها، كانت إلى جوار صديقتين لم تلتفت إليه، علها لم تره من الأساس.

تردد أن يُظهر إليها نفسه، أو أن يُظهر من الحماقة فيقتحم عليها وقفتها بين أصدقائها ويُسلم عليها. غير أنه لم يجسر على حركة واحدة ووقف يراقبها على بعد خطوات منها، يقترب خطوة ويعود خطوتين، ووقف في النهاية يُشاهد موكبها.

تلك الرجفة في بدنها لن تتبدل ولو رآها للمرة الألف.

كانت تبتسم بسمة سحرية، ضاقت عينيها فلم يكد يظهر سوى بريق أسود من كحلها اختلط بلون عينيها العسلي. لقد عرفت أنها آنسة مؤخراً فلم تجد مانعاً من كحل يُزين العين فيأسر القلب، ليس أي قلب فالجميع يراها عادية، وإنما قلب من يُحب أن يراها ويتطلع

إليها في خياله وفي واقعه، في حياته وفي منامه، في كل لحظة تطرق بابه فتجده مفتوحاً ولن يوصده ولو انتهى العمر به صريع حبها.

كان إيمانه بها هو ما يُشرق شمسه، فإن غابت غاب نوره، وإن جلت عظم ضياؤه.

ينقصه خطوة واحدة، وبداخله قد اقتربت منذ خُلق.

هي لم تبتعد عنه، مكانها في قلبه لم يترك محله ولو زلزلت الأرض زلزالها.

ما أقسى أن تُشيد لأجل من تحب قصراً بقلبك ويفتقر قلبه لغرفة واحدة تحوي نبضك.

ولكنه لم يعلم ذلك!

مرت دقيقتين على وقوفه هكذا، يذهب أم يعود أدراجه.

انشرح صدره وأضاء قلبه، ورفرفت روحه وعادت إليه، وحلقت به في سماء الحب والعشق لرؤياها، أيجحد بالنعم في تلك اللحظة فيدنو أكثر.

وتوقف ميكروباص في تلك اللحظة متجهاً للمنشية، وركبت واختفى طيفها في الطريق، ولم يبهت بداخله، وكانت الشمس في غيبتها، والسماء تحمل سحب مغبرة تنتظر حركة ما يُسقط عنها ماؤها، تمتد إلى ما لانهاية فبدت عميقة يتخللها كرات بيضاء ثلجية اللون تكتلت في أطرافها، وبدأت السحب في إرسال حبات المطر إلى الأرض تروي القلوب وتحرك كل ساكن، فابتسم وأخذ يجري كالمجنون فرحاً تحت زخات المطر منتشياً بنسمات الحب وبسمة اللقاء الأول.

١٥

تناهى إلى سمع فاطمة صوت السيد البرنس أسفل البيت.. هرولت فيروز تفتح الباب، وحملها الرجل باسماً وهو يداعب وجنتيها وأخرج من جيب جاكته قطعة شوكولاتة؛ فتهلل وجهها، وحملها على كتفيه وصعد السلم.

ترامى إلى سمعه صوت فاطمة مرحبة بزيارته وهي تجلب إيشارب تضعه فوق رأسها، وتلاقت أعينهما ومد الرجل يمناه، وتصافحا، وضغط على راحة كفها ضغطة أربكتها، سُرعان ما سحبتها لتواري بها نظرة مليئة بالجُرأة.

لم تكن المرة الأولى لزيارة السيد البرنس للبيت، منذ زمن بعيد وهو يزورهم، لطالما كان صديق زوجها المُقرب حتى حدثت فجوة أبعدتهم عن بعضهم البعض ولو قليلاً، لكن لا زال البيت مفتوحاً يطرقه متى شاء، فهو صديق الأسرة وزيارته مُباحة في أي وقت فضلًا عن كونها محببة.

لم يكن بالبيت سوى فيروز وفريدة التي خرجت لتجلس إلى جوار أمها، سلمت على الرجل بتأفف، لم تكن تحبه لشيء لا تعلمه في نفسها نا حيته .

جلس على السُفرة الجديدة التي أضافتها فاطمة للأساس الجديد في الصالة الفسيحة، وفاطمة تقف أمامه.

قال الرجل متوددًا:

– جئت أنظر إن كنتم في حاجة لشيء؟

فقالت فاطمة شاكرة:

– الله يكرم أصلك.. خيرك سابق.

– حقيقي يا أم فريد أنتِ تعلمين أن عطية ليس مجرد صديق.. لكنه أخ.

– ربنا يعزك يا رب.

فتساءل البرنس باسمًا:

– والدكتور فريد كيف حاله؟

– غدًا يعود من الكلية يجلس معنا يومين ويعود إلى المدينة.

– والله كان مفروض يجلس إلى جواركم.

– ربنا معه يا حبة عيني لا ينام من المذاكرة والمجهود.. يُنهي محاضراته متأخرًا لدرجة أنني لا أكلمه إلا لدقائق قليلة بين فتراته الفارغة.

– ربنا يعينه.. فريد محترم وعارف مصلحته كويس.

واستطرد:

– أستأذن أنا.

– أبق معنا قليلاً يا عم السيد.

قالتها فيروز باسمة بعدما أنهت الشوكولاتة كأنها تُكافئه على هديته.

– المرة القادمة إن شاء الله فغداً أسافر.

فتساءلت فاطمة في قلق:

– خير إن شاء الله؟

– لا خير بإذن الله.. «نسقط في البحر» صيد.

– اه.. ترجعوا بالسلامة.. لكن لا يصح دون أن تشرب شيئًا أو تتغدى معنا هكذا؟

– تتعوض بإذن الله.. أنا قلت أنظر إن كنتم في حاجة لشيء.

وقام الرجل لينصرف، وتبعته فاطمة لتوصله إلى الباب، وقامت فريدة وأغلقت غرفتها عليها، وحدقت فيروز في التلفاز تُدندن.

ورمق الرجل جسد فاطمة بنظرة مُتفحصة فهمتها جيداً، فحاولت أن تهرب من عينيه القارحة. غير أنه وفي نهاية السلم التف إليها ومد يده مُصافحاً، وضغط من جديد كأنه يُرسل برسالة، وظل هكذا. ولم تحاول تلك المرة أن تسحب يدها، فأحست بحرارة جسدها تفور، وشيء يدفعها ناحيته، غير أنها استعاذت بالله من الشيطان الرجيم وفتحت الباب ورحل الرجل. وكان الشارع خالياً، والأزقة تميل إلى صمت يتبعه صمت، والبيوت تلاحمت كأنما تسترق السمع عن قصة هنا وهناك، أو تشعر بدفء رحل مع الزمن عن القرية وساكنيها، أو تنفر من ماضٍ سحيق، يجذبها إليه واقع مختل، والشمس ترسل شفقها على القرية، قُبيل المغرب بقليل، وساد سكون تام في البيت، وانفجار ودوى صرخات تقاذفها نفسها لنفسها، تحاول الهرب منها وتصارعها فتغلبها على أمرها.

١٦

تقام في كل ليلة خميس حفلة عشاء لقدوم فريد تفرح الأم بزيارة العائد، فتذبح البط والفراخ التي تربيها في الدور الأرضي للبيت، وتجلس بغرفة الفرن تخبز الرقاق والقرص التي تبعثها معه في ليلة الجمعة.. أما فريدة فتجهز غرفته، وتنظفها، ولا تحرك منها ورقة واحدة، فكم من مرة زعق فيهم جميعاً لورقة تحركت من مكانها، وفيروز تغني غنوة مما تحفظ عند عودته، البيت ينقلب كأنها ليلة العيد، فرحة ما بعدها فرحة، لم يكن شعورهم بالحاجة إلى أبيهم يجذبهم إلى الحزن على غربته -فضلًا عن فيروز التي تفتقده من حين لآخر- ولم تعد لأنه دائماً كان مغترب في عمله، ولكن تلك المرة اختلفت فالمال الذي يرسله من الخارج قد ضمن لهم عيشاً مرموقًا، فكل من أبنائه يحمل أحدث الهواتف لعام ألفان وتسعة، وقد جددت فاطمة طلاء البيت قبل دخول فريد الكلية، ومن حين لآخر تُجدد شيء في الأساس إلى جوار جهاز فريدة التي تشتري فيه منذ أن بلغت الحادية عشر فضلاً عما تدخر لبناء شقة فريد في الدور الثاني.

فاطمة امرأة مدبرة، ربة منزل بكل ما تحمله الكلمة من معاني، تقدر على تحمل النفقات ولو بالقليل، لا تعلم إن لم تكن تلك السفرية قد وجدت، فمؤكدًا كانوا يشحتون على أبواب المساجد، فريد مصاريفه تتخطي الألف جنيه كل شهر، وهي تعلم أنه لا يسحب منهم خلسة؛ فهو يعلم بالحال، ولا يحب أن يشعر أنه عبء عليهم فيُثقل كاهلهم بمصاريف إضافية، وقد قبل بالمدينة الجامعية ولم يبحث عن شقة مفروش كمن فعلوا من زملائه الذين يعرفون أن المدينة تكتل للقمامة والفقراء، لا

يطلع لأعلى ويعلم أن التطلع للسماء يُنهك من على الأرض موضعه، وأن الرضا بالواقع قد يُصبح أكبر جنة إذا صارع المرء لإثبات ذاته بالحلال، وأن الوقت هو العامل الوحيد المُنقذ للحيوات إذا تم دراسته جيداً.

تهلل وجه فاطمة عند رؤياه، وطوقته بذراعيها، ولثمت جبينه قائلة:

- حمدلله على سلامة الغائب.

فقال باسماً:

- الله يسلمك يا ماما.

وجرت فيروز ناحيته وهي تُغني:

- حمدلله على السلامة يا راجع م السفر وحشتنا الابتسامة وشك ولا القمر.

فضحك ملء فيه، وتساءل مُتعجباً:

- البنت بتحفظ الأغاني مِمن ومن أين لها بها؟

فقالت فريدة وهي تذرع الطرقة من المطبخ إلى الصالة:

- من التلفاز ومن على الإنترنت، ومن الشارع ومن كل شيء تسمعه تحفظه.. أختك واعية لكل شيء.. يبدو أنها ستغلب عبقرتيك.

وعانقته وهي تتمتم:

- حمدلله على سلامتك يا دكتور.

وأردفت تُداعبه:

- ولكن تلك المرة يا ماما وجهه ازداد نوراً.

فقالت فاطمة مُعاتبة:

– أخوك طول عمره وجهه مُشرق.. قل أعوذ برب الفلق.

فضحكت فريدة وعادت إلى المطبخ بعدما حملت عنه شنطة سفره، ودلف إلى غرفته وأغلق بابه، وتطلع من خلف (الشراعة) على شرفة سناء الخواجة المفتوحة أمامه، والتي لا تُغلق عادة إلا في جوف الليل قبل نومها بقليل، لم يلمحها وتذكر رؤيته لها بالإسكندرية.

بدل ملابسه، وجلس يتصفح بعض الكتب التي أحضرها معه، وأخرج جهاز الكمبيوتر المحمول من حقيبته، وتفصح بعض شيء وأغلقه سريعاً، وقام فتوضأ وصلى المغرب وكانت أمه وأخته قد أنهتا إعداد العشاء.. وضعت فاطمة أمامه ألوان كثيرة من الطعام وهي تقول:

– كل.. كل يا فريد أكل المدينة يمتص الجسم ويقتله.

– كثير كل ذلك لن أقدر.

– كل ما تقدر عليه ودع الباقي ألفه إليك لتأخذه وأنت مسافر، ولكن حاول أن تأكل.

وبينما يلوك كل منهم طعامه، تساءل فريد:

– هل لخالتي سناء الخواجة أقرباء بالإسكندرية؟

فنظرت إليه مندهشة وتساءلت:

– لِمَ؟

– رأيتها على البحر في جليم، ولكن سُرعان ما تلافت أعيننا كأنا لم نتلاق.

– عمتها تسكن هناك.. كنت أحسب هناك شيئًا ما.

– لا لا.

– ولِمَ لم تُسلم عليها؟

– لم أكن أعرف أن لها أحد هناك.. حسبت الأمر مجرد صدفة.

– لو كانت رأتك لنادت عليك لتتعشى عندهم، ولم تكن لتفلت من يديها، وإن كنت رفضت كانت ستعمل لي من الحبة قبة.

– كنت سأرفض بالتأكيد.

فقالت فريدة وهي تحمل الأطباق من الخوان:

– جدع والله.. هو أي أحد يذهب معه هكذا.

فقالت فاطمة وهي تلوح بيديها غاضبة:

– ليست أي أحد يا روح أمك، ولكنها ست ولا كل الستات.. امرأة بمليون رجل لم أقصدها مرة وخيبتني فيها، ولم يقصدها أحد في المنطقة كلها إلا وأعطته.

فقال فريد:

– لم أكن أعرف أنك تُحبينها لهذه الدرجة.

– يا بني الست لا يعيبها عيب واحد.

فشرد فريد لوهلة في ماض قريب ومنه إلى مستقبل لا تفصله عنه سوى بضع ساعات، وما سيراه في ليلته تلك عندما تنطفأ الأنوار ويذهب كلٌ إلى نومه، وقال:

– صحيح صحيح.

وقام وغسل يديه وترامى إلى أذنه أذان العشاء فقام وصلى وتحلقوا جميعاً أمام التلفاز، يُشاهدون فيلماً قديماً لإسماعيل يس.

ولم تمر ساعة إلا وفيروز تُغني لسيد مكاوي وقد حملها فريد على كتفيه وقام يرقص بها، وفريدة تُصفق واقفة إلى جواره وهي تتمايل وفاطمة تغمرها السعادة تُردد معهم:

حلوين من يومنا والله وقلوبنا كويسه

بنقدم أحلى فرحة ومعاها مية مسا

يا ليل طول شوية على العيلة الحلوة

ده الغالي علينا غالى ده الغالي علينا غالي

ولا عمره هيتنسى

حلوين من يومنا والله والله قلوبنا كويسه

١٧

إنها المرة الأولى التي يُطاوع فيها فريد، إبراهيم العزبي.

وليست الأخيرة على ما يظن.. فقد أكتشف كنز مع صديقه المجنون المعربد الذي لا يرى في الحياة سوى شهوات تسير على الأرض وتحلق في السماء وما عليك إلا اقتناص إحداها فتُصيبك منها لذتها فتنتشي.

كان يسير إلى جواره صامتاً لا يخلو وجهه من بسمة وروحه من بهجة وغبطة، مجنون من لم يُصاحب العزبي ويصحبه في رحلته أينما ذهب، فهو نعيمها .

طرق باباً لم يكن ينوي فريد ولو مرة واحدة أن يدخله، وجد نفسه بحي اللبان واقفاً أمام أحد البيوت القديمة، التي زُينت بمصابيح من النور مختلفة الألوان تطل ببهجة على السابلة، وفراشة أمام البيت على امتداد الشارع، وبشارع جانبي كان هناك فِراشه أخرى غطت بسقف من القماش مزدان بصورة الكعبة والناس تطوف من حولها ومن بينهم أعلام سوداء اللون تتمايل لميلهم، ويافطة كبيرة كتب عليه يا سيدي يا رفاعي.

الجميع لا يتردد في طرق باب البيت المفتوح.. مالكه أمر الناس بتوزيع اللحم على من لا يملك ومن يملك.. الأرض مخضبة بالدماء، والأكياس السوداء تُلقى على السابلة كالمطر في لحظات الاستجابة، يبدو أن السماء قد فتحت أبوابها ولن تنغلق.

وقف خلق كثير متوازيين يتمايلون على صوت شيخ وقف على منصة يُنشد. رحب الجميع بإبراهيم كأنهم يعرفونه منذ زمن أو أنهم أهله وأقرباؤه، ومع كل يد تُمد؛ انحناءة تقبيل لظهر الكف وتمتمة لم يميزها الذاهل فريد.

تطلع إلى المشهد بقلب غائب وروح حاضرة، وعقل لا يغيب عنه يُسجل ما يراه، يمد يده يُسلم ولا يعرف أياً من تلك الطقوس.. خرج من ذهوله وسحب يد العزبي ناحيته

وتساءل مُتعجباً:

– ما هذا؟

– ألم تحضر ولو لمرة حلقة ذكر؟

– كنت أشاهدهم في التلفاز مرة كل عام.

– قلت لك إنها مفاجأة.. لا تحرقها وتعال لتُطهر قلبك.

فجذبه بشدة ناحيته ورفع من صوته وحدته كي يسمع:

– أي قلب هذا الذي أطهره.. أنت مجنون.

فقبض العزبي على يده بشدة وراح يمسح ببطن يُسراه ظهر يمينه، وقال مُتأثراً بصوت الشيخ وهو يتمايل كالسكران:

– كل القلوب تُنقى واللقاء في السماء يُجاب ولحظات الهُيام في أرض عشق والعشق داء ودواؤه دعاء.

وجاءه صوت الشيخ من بعيد:

حَبيبي، قيلَ كانَ الحُب مِنْ قبلِ البَشر

أ يا مُلهمي مَنْ أنتَ، أنتَ تعرفُ منْ أنَا

أنا فيكَ أحيا منذُ بدئكَ كان

أنَا إن قلتُ آه، أنا فيك أحيا منذ بدئك كان حبيبي

لم يشعر فريد بعينيه إلا والدموع تنزل من محجريها، ما يدري إلا ونور أمامه صورة حية تبتسم فمد يده ليلمسها فتبدد طيفها، وجذبه العزبي من معصمه فخرج من شروده ووقف بين الحشد أمامه وبدأ يتمايل وفريد في ذهول لا يعرف ما يفعله.

ولمسه صوت الشيخ وهو يهتف:

هامتْ الأرواحُ من غيرُ حَذر، نعم، في جمال لاحَ يوماً واستقر.

وسكر مع الكلمات فانتشى، وظل واقفاً، لا يقدر على الحركة جمد مكانه وصعدت روحه باحثة عن خليلها، حتى عصف الشيخ بما بقي من عقله:

يا مُلهمي في العشقِ أخبرني

فأنت تعلم في الهوى أسرارا

هل لي من هواك ملاذاً؟

هل لي من أشواقي فرارا؟

كنتُ أحسب أن العشق بأمرنا

لكنه قدر على القلوب

لم يسبقه إخطارا

وبدأ يتمايل كما يتمايل الناس من حوله.

تسوقه الأقدار إلى ما لا يرغب فتُعذب روحه بما يرغب. يغرق في العشق ولا يُنجيه عقل، وتسحبه السماء لطبقة الهُيام فيُتيم وليس هناك رجعة.. ذاب مع الإنشاد وغرق في الكلمات، يبحث عن روحه وما ترغب في العودة من سماء الحب إلا بعشق خالص، يعصف بقلبه فيطرب رغم عنفوانه، وترك لعينيه التحليق فما وجدها إلا وتلمس خضرة فى أرض فيحاء مرصعة بأصص الأزهار من أشكال وألوان وفيها تبتسم صاحبة العين العسلية، وقد ازداد نورها نوراً، فنادى، وما المُنادى بمُجيب، واقترب ولامس طرف فستانها فكانت الجنة. تذكر أحاديث المتصوفة عن الأرض الخضراء التي يرونها، وتذكر لحظة زار السيد البدوي في الصِغر، كان أبيه قد أخبره كثيرًا عن الأمر، وعن حياته قبل تلك الزيارة، فقد كان أخرس وعاد من هناك يتكلم، وعلاقة عائلته بالصوفية التي لم تنتهي إلا بعد وفاة جدته لأبيه. حتى أمه لم تنقطع عن زيارة السيد البدوي والتقرب للأولياء إلا مؤخرًا ودون سبب، كأنها قد فقدت شغفها بزيارة الأولياء والتقرب إليهم، أو أن الدنس الذي تعيش فيه بعدها كليًا عن التقرب إليهم أو ودِّهم.

وتوقف صوت الشيخ وما توقفت روحه عن السبح في سماوات بعيدة، يخترق طبقة إلى أخرى باحثاً عن نفسه، عن روحه التي ذهبت عنه فما عادت، لم ترغب في ذلك، بل أرغمت عليه، متى نُسقى من بعد ظمأ العشق؟

أعشق نطلبه أم وجد نلاقيه!

ولمسه إبراهيم من يده محاولاً إثناءه عن الميل، ولكنه لازال مُعلق هناك يبتسم لصورتها، وما هي إلا ثوان حتى سقط على الأرض، وما إلى جواره سوى إبراهيم.

الأخيار فقط من يختارهم الله فيسقطون.

لقد رأى الجنة، ولا يراها سوى من تطهر من الإثم، وتعلق بروح صادقة تنقله معها أينما كانت فيُصبحا كنغمة أبدية لحنها في السماء وفي الأرض صداها.

أبعده عنه أحدهم محاولاً إثناءه عن إفاقته من إغماءه وهو يصرخ فيه :

– أتركه لنعيمها فقد لمسه طيفها.

١٨

في الثانية عشر ليلاً لن تجد على البحر إلا من خلت بهم الحياة فأهلكتهم.

ومن ترك العشق في قلبه نطفة، فلم تترعرع إلا بألم.

أو رفقة تتمايل على أغنية يُنشدونها يُضيعون الليل سوياً.. تطرب أرواحهم فتنتشي أنفسهم.

أو عاهرة تُرزق في سواد الليل وصقيع الشتاء المقبل بحدة.

مشي إبراهيم إلى جوار فريد باسماً.. وقطع صمته قائلاً يُداري بسمة:

- وتقول بأنها الأولى لك في حلقة ذكر.

فنظر إليه فريد الذي ظل شاردًا منذ خروجهم من اللبان حتى القائد إبراهيم، ولم ينبس.. وواصل إبراهيم الحديث بنبرة ساخرة:

- اه من الحب وأيامه.. واه من الجنة ومن رآها.. ألن تخبرني ماذا رأيت؟

فتمتم فريد كالسكران:

- لا شيء.

- بالله عليك لتقول.

- لم أرى شيء.. لا أتذكر سوى صورة من زمن بعيد محفورة في رأسي أراها في كل ليلة قبل نومي، ولكنها المرة الأولى التي تظهر هكذا.. بديعة.

– أي صورة.

– صورة من ماض تلاحقني بالحاضر.. ولا مستقبل ليّ دونها.

فوقف إبراهيم عن السير يُفكر، وابتعد عنه فريد لخطوات أدرك بعدها توقف صاحبه، وقال الأول وهو يفرك رأسه:

– أرأيت الجنة حقاً؟

فألتفت فريد قائلاً:

– الأمر لا يتعلق بالجنة.. ولكن الجنة أحياناً تتوقف على أحدهم فيحول بينك وبينها.

– أنت تُحب إذن؟

– الحب نجاة من كل المهالك.. ومن لا يحب فهو على الأرض هالك.

وأردف:

– لا محالة.

فتساءل إبراهيم ساخرًا:

– عرفني إذن ما الحب؟

فصمت فريد للحظات، وكان الليل يبعث ببرودة جعلت إبراهيم يفرك يديه وينفخ فيها، فقال فريد مستحضراً الموقف:

– الحب دفء..

ولا يشعر ببرد العراء إلا من لم يزره الحب..

فكيف يشعر المرء بالصقيع وفي أحشاءه نبض كلَّ حرارة؟

– أحاول فهمك!

– الأمر لا يُفهم.. عليك أن تطهر روحك.

– مما؟

– من كل سوء.

– وإن كانت طاهرة.

– الطهارة لا تتوقف على القول.. هي شعور يغمر صاحبه بالنعيم.

واقترب من إبراهيم ونظر في الأفق البعيد وأشار وهو يتمتم لنفسه:

– عندما تحنو السماء على الأرض في مشهد بديع، وتميل عند الأفق البعيد، تبدو القلوب إلى حد كبير متألفة حتى تتلاقى فتصبح الأرض كالسماء.. جنة.

حاول إبراهيم أن يفهم كلام صاحبه، ولكنه فشل وبانت على وجهه علامات الضجر. مرت من أمامهم فتاة ليل تبدو من ملامح وجهها، رسمت حواجبها بدقة بالغة وما بدا من لون عينيها إلا كحل أظلم ما حوله، وطلاء وجهاً لم يُخفي شامة على خدها الأيسر فضلاً عن شعرها الأصفر الباهت. تتمايل بشدة تلعب بفمها لعباً يُحرك الشهوات من مكامنها. تحمل فوق صدرها نهدان كبيران برزا أمامها فبدو كحراس يُدافعون عنها من الغارات.. (مدملكة) لها ساقان ملتفان كأعمدة من النور مادتهم الملبن.

توقفت ولم تُدر ظهرها.. فكز إبراهيم على أسنانه ولوى شفتيه وآن آنة خافتة لِمَ رآه من ملامح جسدها التي ظهرت كلها من تحت هذا الفستان الأسود كأنها لا تشعر بالجو. كانت قصيرة إلى حد ما.

يبدو أنها لا تشعر بالبرد في العراء هي الأخرى فبداخلها نبض كل حرارة.

قال حكم والله.

ألتفت فبدا صدرها أكبر، وأسندت مؤخرتها على الكورنيش، وأشعلت سيجارة وأخذت تُنفث غير مبالية بمن حولها.. هكذا كانت تحاول أن تتغلب على نظرات إبراهيم.

أما فريد فكان يُحدق في الأفق البعيد الذي ارتسمت فيه صورة نور. تمنى لحظتها أن ينزل البحر فيسبح حتى يدنو منها ولا يطمع في شيء.

وتجرأ العزبي، وأخرج جسارته دفعة واحدة، وراح ناحيتها يتبختر، فرمقته بنظرة من عينيها ولم تلتفت، ودنا وهو يقول:

– مال العشاق سابونا.. حرمونا وما احترمونا.

فقهقهت بخلاعة، فتشجع إبراهيم حتى ألتصق بجوارها، فلامسها.. فندت عنها شهقة أرتفع لها صدرها اهتزازا.

فقال باسماً:

– اسم الله عليك.

فتبسمت وأخذت تُداعب علكتها بلسانها، فاستفزته، ووقف قبالتها، ودنا أكثر حتى ألتصق فيها من الأمام، وقال وهو يحرك يديه على جسدها:

– عازب والله عازب ولا عندي مكان.. بس معي ما هو أحسن.. المال.

– المال من غير مكان كالورقة من غير أختام.

– الرملة على البحر.

– فرهدة.

– ليس ليّ في التشبيك.. اللعب وأنا أموت في اللعب.

– والله؟

ومال برأسه ناحية رقبتها يستنشق عبقها وهو يقول:

– أصله حرام يا جميل.

– صحيح.. نكرة تختلف عن نكرة.

– تفهميني.

كان فريد يُتابع المشهد عن بعد باسماً على ما يفعله صاحبه، كان البحر هادئ تماماً عند نفق الشاطبي.. الكازينو خرابة تحت الإنشاء، وما حوله يصلح للاستخدام.

فجذبها من معصمها وطوق رقبتها، ونادى على فريد وهو يبتعد مُداعباً صدرها:

– أليس الحب على أرض الواقع دفء بين ثناياها.

فضحكا وعلا صوت ضحكاتهما.. ورحل فريد. فهو لا يعلم متى ينتهي صديق السوء هذا.. ومضى مُتمنياً تكرار تلك الليلة مرة أخرى.

١٩

لم يكن من عادة فريد الانتظار بالمواساة بعد إنهاء محاضراته.

يُنجز الأمر مُسرعاً ويرحل، المكان لم يكن محببًا بالقدر الكافي كي يجلس يتسامر مع أحد فيه.

وليس له به ما يربطه بالمكان.. لم يتعرف سوى على نغم وهي معرفة فاترة، لم يرها لمرة، ولم تلتقي أعينهما للحظة واحدة تُصارحه فيها بشيء في نفسها واختلاجة في صدرها وأمر جلل بعقلها يشغلها بين الفينة والأخرى.

كان بالنسبة إليها شيء من خيال.. تركيبة فريدة من نوعها، شاب مليح جداً غير كل الشباب المهوسين بجمالها، الذين يرمقونها بنظرات الحقد الطبقي لسياراتها الفارهة، أو لجمالها وأنوثتها الطاغية، وصوتها الذي لا يخلو من إثارة خاصة عندما يختلط بلكنتها الإنجليزية القوية التي تنطقها بعذوبة، تنفرد بها.

وقف فريد بشارع أبي قير ينتظر أي سيارة مارة مُتجهة إلى سموحة، كان مُنهك جداً.

لم ينم ليلة الأمس إلا قليلًا، ولا يحب أن يأتي على مصلحة كليته، الأمور لا تتحمل أن يخفق فيها ويبوء بالفشل.. ينتظره واقع مؤلم وحياة جادة ومستقبل لا يرغب في التطلع إليه فيقتله.

كانت الساعة الرابعة.

ازدحم الشارع عن آخره، ولم تمر سيارة واحدة بها كرسي فارغ، الشمس الهاربة من موسم الصيف من مكان مغلوط تُداعب وجهه في شتاء يناير، فرك عينيه بشدة محاولاً التغلب على النوم، وبدت على وجهه علامات الضجر، فزفر بعصبية محاولاً تجنب الأشعة التي صممت على مضايقته، وغادر الطريق إلى الرصيف يستظل بشجرة على أن يفك الله الزحام وتمر سيارة فقد فَقد قوته ولم يكن قادراً على المشي.

توقفت سيارة بي إم دبليو أمامه وأنزلت صاحبتها الزجاج ومالت ناحية الباب الأيمن تُنادي:

– فريد.. فريد.. دكتور فريد.

فرك عينيه وأمال رأسه مُتفحصاً مَنْ تُناديه، وأصوات السيارات من خلفها لا تهدأ، فدنا من السيارة، ليرى من بداخلها، لم يرى تلك السيارة من قبل ولم يعرف إن كانت نغم صاحبتها ولم يسألها يوماً.. لم يكن يتطلع لشيء لا يعنيه أو يُنهكه التفكير فيه.

فقال قاطباً:

– نعم.

– اركب أوصلك أينما تُريد.

فقال شاكراً:

– طريقي غير طريقك.. شكرًا لك.

– سيكون طريقك إن ركبت.. تعال الناس من خلفنا يسبوننا.

لم يجد مانعاً من رفع الكلفة بينهما، صعد السيارة وهو متوتر، لم يكن ليركب مثلها ولا بأحلام يقظته، أمر بعيد كل البعد عنه.

لمسته نسمة باردة من التكييف، فشعر بألم طفيف في عينيه، فقال وهو يفركهما:

– من فضلك ممكن نقفل التكييف؟

– ممكن طبعاً.

وأغلقته. ومرت دقائق من الصمت، تتوقف السيارة لثوان وتتوقف وتسير وسُرعان ما تتوقف، قطعت نغم هذا الصمت مُتسائلة:

– أين تسكن يا دكتور؟

فقال وهو لا ينظر إليها:

– المدينة الجامعية بسموحة.

– ألست من الإسكندرية.

– لا من قرية قريبة.. أعتقد أنك لن تعرفيها.

فضحكت وهي تقول:

– أنا لا أعرف شيئًا نهائياً هنا.

فلم يُعلق على ضحكها، واكتفى بالصمت.

فقالت تُدافع عن نفسها:

– لست مصرية بدرجة كبيرة.. فأنا أعيش بأمريكا وهذه هي السنة الأولى ليَّ بمصر.. آسفة لم أكن أقصد.

– فنظر إليها في برود وهو يقول:

– لا يهمك.

ومـرت دقائـق أخـري تتبعهـا دقائـق، غائـب لا ينظـر إليهـا ولـو كان جبـلاً لخـر سـاجداً يطلـب منهـا نظـرة، كيـف تُحـرك هـذا الكيـان الصامـت الجامـد السـاكن إلى جوارهـا.

وصلـت السـيارة إلى نفـق الإبراهيميـة، وقالـت وهـي تعـبر النفـق محاولـة تلطيـف الجـو ولـو قليـلاً:

– اعتقـد أني لا أعـرف عنـك شـيئًا يـا فريـد، ولا أنـت.. أتمنـى لـو نتعـارف سـأكون سـعيدة بذلـك.

– اعتقد أنه ليس هناك شيء مهم تعرفينه.

– ولكنك تبدو ليّ مهماً.

لم يلتفـت لهـذا الثنـاء.. كان النـوم قـد سـيطر عـلى عقلـه تمامـاً وجعلـه يـرد متأففـاً لا يعـي مـا يقـول، يحـاول السـيطرة عـلى عينيـه مفتوحتـين حتـى يصـل.

أين السرير.. أين مُنقذي؟

فنظـرت إليـه نغـم وحدسـت مـا يشـعر بـه مـن أرق شـديد، تمنـت أن تحنـو عليـه في تلـك اللحظـة، أن تضمـه، أن تُلثـم جبينـه، ثـم تُقبلـه فيـذوب فيهـا وتملكـه. نـما بداخلهـا شـعور منـذ أول وهلـة رأتـه فيهـا، تمنـت أن تُشـاركه بـما تنبـض ولكـن كبرياءهـا لا يحتمـل.

وكم من كبرياء في الحب أضاع قلوب!

وغفلـت عينيـه، وراح في النـوم، ووقفـت السـيارة بـدوران سـموحة، ولمسـت فخـذه وهـي تُنـادي بصـوت عـزب:

– فريد.. فريد.

فحـرك رأسـه وحـاول أن يسـتجمع قوتـه، ونظـر إليهـا مُتفحصـاً وهـو يقـول:

- من؟

- وصلنـا سـموحة.. لا أعـرف مـكان المدينـة الجامعيـة كـي أوصلـك هنـاك.

فحـاول أن يُركـز سـمعه وبـصره كـي يُبعـد أثـر النـوم، وفـرك عينيـه بشـدة وتركـت أثـراً شـديد الاحمـرار فيهـا، وقـال وهـو يفتـح البـاب:

- شكراً جزيلاً.. سأكمل المسافة وحدي.

- ولكنك مُنهك تماماً.

- ليست بعيدة.. شكراً جداً لذوقك.

ونزل وترك فيها أثراً كبيراً لا يخلو من حب.

تمنـت لقـاءه، ولم يشـعر بلقائهـا.. كانـت الشـمس إلى جـواره ورفـض نورهـا، ولكنهـا هـي مـن انطفئـت وليـس هـو.. شـعرت بوخـزة ألم في كرامتهـا لأنـه لم يلتفـت ولـو لكلمـة واحـدة أو لعينيهـا حتـى تتلاقـى ومـن ثـم تتـلافى.

٢٠

ألقى على الردهة نظرة سكر، وبدأ يتمايل، يعد الخطوات التي تنتهي بغرفته.

خمس وعشرون خطوة تفصله عنها، كثيراً ما عدها وهو متيقظ الذهن.. لا يعلم ما الذي أصابه، ليست غفلة يوم من نوم، هناك شيء يؤلمه بشدة لا يشعر به، ربما هو ما أنهكه.

توقف عقله تماماً عن التفكير، ودلف للغرفة، فوجد إبراهيم ما زال مُلقى على سريره لم يخرج منه، يعيش في واد منعزل عن العالم، لا يكد يزور كليته إلا ليتسكع.

ألقى فريد ملابسه على مكتبه وارتمى على السرير ولم يشعر بشيء.

لم تزره الأحلام.

لم يزره أي شيء في نومه، كان جثة هامدة لا تشعر بمن حولها.

أتى سليمان كعادته مُتأخراً الساعة الثانية عشر ليلاً، فرمق إبراهيم المُستيقظ على سريره بنظرة شزراً، وصعد إلى سريره بعد أن ألقى السلام مقطباً.

كان فريد قد استيقظ على صوت صرير الباب، وكان نور الغرفة مفتوحاً، فما أن ضرب بعينيه، حتى التفت، وفركهما.

واستند براحة كفه ليقوم، وجلس، ورمق من في الغرفة باسماً، وألقى السلام عليهم متثائباً.

فنزل سليمان من على سريره وقال بنبرة هادئة:

– أين كنت يا فريد حتى الثانية.. بالأمس؟

فمسح فريد وجهه براحة يُمناه وهو يقول:

– ستحاسبني يا سليمان؟

فقال متوددًا:

– لا أرغب أن أراك تضيع وأنت في السنة الأولى .. أنت من المجتهدين والأوائل فلا تخسر نفسك.

ونظر إلى إبراهيم ورمقه بنظره أخطأت طريقها لو لمسته لأحرقته وأردف:

– لا تخسر نفسك لأجل رفقة سوء.

لم يحتمل إبراهيم الكلام، فخرج من صمته، وتحرك من منتصف سريره إلى طرفه، وهو يقول:

– تقصد مَن برفقة السوء يا سليمان؟

– مَن على رأسه بطحة.

– ألزم حدودك معي كي لا تخسر نفسك.

فحسم فريد الجدل موجهاً كلامه إلى سليمان وهو يقول:

– أي رفقة سوء يا سليمان.. لقد كنا في حلقة ذكر للمتصوفة.. عقيقة يا شيخ لأحد أصدقاء إبراهيم.. فهل ذكر الله حرام والعقائق مع رفقة سوء أم رفقة خير.

– الصوفية هي بداية اللعنة.. مبدأ مغلوط.

– كل تقرب لله بأي طريقة كانت.. صحيح.

– الدين ليس بالرقص على نغمات وأناشيد.

– الدين كله أفراح وليست أتراحًا.

– وما علاقة الأفراح والأتراح بالذكر.. من أراد ذكر الله خلا به.

– ولو اجتمعت القلوب في ذكره ما فسدت بل حفتهم الملائكة.

– تحفهم الشياطين إن كانوا يتمايلون كالنساء.

– يسروا ولا تعسروا يا شيخ.

– الرقص على الطبول ليس تقربًا.. العبادة خشوع.

– الخشوع اختلاء بالنفس مهما كان زحامها الداخلي.. ثم أيهما أصعب على النفس أن تخرج من زحامها فتختلي، أم تخرج من زحام الناس؟

فنطق إبراهيم الواجم:

– قل له يا فريد.. علمه كيف يكون الدين.

فأشاح سليمان بعصبية ناحية إبراهيم:

– اخرس أنت.. والله لن يُفسده غيرك.

فقال فريد بهدوء:

– لست صغيراً يا سليمان.. أقدر على تمييز الصواب من الخطأ.

– ما يقع في الخطأ إلا العلماء.

– الله غفور رحيم.

– لمن تاب.

– أتقف بيني وبين الله كي لا أتوب؟

– بل تقف النفس الأمارة بالسوء.. فتحول بينكم.

– كفاك يا سليمان.. كفاك يا شيخ سليمان فأنا لا أريد خسارتك.

– وأنا لا أريد كسبك.

فقال إبراهيم بعصبية:

– ارحل إن لم يكن الجو مُناسباً لك.

– غداً أترك الغرفة.

ورحل.

لم يكن يعلم فريد ما الذي جعله يستيقظ من نومه في تلك الساعة.

ملعون أبوكم لأبو تعكير المزاج.

فقال إبراهيم مواسياً:

– آسف يا صاحبي.

– لماذا وعلى أي شيء تتأسف؟

– على سليمان.

– لا عليك.

فوثب إبراهيم من على سريره، وسحب كرسياً وجلس في مقابلة فريد واستطرد:

– لم يكن في تلك الحالة من عام مضى.. كنا نسير على البحر.. نسير هكذا ولا نلقى للحياة بال.. ويومًا ما تعرف على طالبة معه بالكلية.. لا أعرف أي واقعة سوداء تلك التي يُقحم المرء نفسه بها فيرتبط من كلية الهندسة.. أتعرف يُقسم صديق ليّ أن أصغر شارب لمهندسة هناك أطول من شاربك.

فضحكا، وأردف:

– ولم يقدر على إخبارها بحبه، ويوم أن تقرب منها رفضته، رفضته لأنها لم ترى فيه الشخص المناسب لحبها.. أو علها كانت تحب آخر ولم ترغب في مصارحته كي تُنهي الموضوع من جذوره.

سرت في جسد فريد رجفة هزته من الداخل، وتساءل في قرارة نفسه:

– أمن الممكن أن تفعل نور معي ذلك.

يا لها من صفعة.. ستكون أقوى صفعة من الدنيا كلها.

هل سأتحول إلى سليمان جديد.. أضع خيبتي إلى خيبته ونندب حظنا.

صحيح..

أهل الحب صحيح مساكين.

وخرج من شروده على صوت إبراهيم وهو يُكمل:

– ومن يومها وهو في تلك الحالة.

– آسف سرحت منك.. مرة أخرى منذ أن تركته.

– منذ أن تركته وتعرف على جماعة من السلف.. يذهب إليهم يقضون حوائجه ويقضي في مجالسهم على الوقت، يحاول أن يتناساها ولا تُنسى..

قتلتـه عمـداً، أو هـو الـذي حفـر لنفسـه قـبر بيـده.. أي جنـون هـذا الـذي يفعلـه الحـب بأصحابه؟

فقال فريد بنبرة أسى:

– أهل الحب صحيح مساكين.

فقال إبراهيم بنبرة لا تخلو من برود:

– عـلى أيـام السـت.. نحـن الآن في ألفـين وتسـعة.. نسـاء في كل مكان.. وأصحـاب القلـوب وحدهـم مـن يعانون.

ثم أردف وهو يلتفت للباب صارخاً:

– يا مجانين يا أولاد المجانين.

– مصيرك تنتهي بحب يقتلك عمداً مع سبق الإصرار والترصد.

فقهقه قائلاً:

– ابتر أم قلبي قبل أن تُضعفه امرأة.. نحن رجال يا عم فريد.

فضحـك فريـد مُتحسراً عـلى حظـه.. اه لـو علـم بـأن صديقـه الجالـس أمامـه قـد يقتلـه الحـب ويـودي بحياتـه في منعطـف لا رجعـة منـه. آه لـو أمسـك بتلـك الأوراق يتفحصهـا لتضاحـك منـه حتـى الصبـاح وأتـى بسـليمان ليضـم خيبتـه إلى خيبتـي فننـدب حظنـا كالولايـا.

فقال فريد مُتحسراً وقد أضعفه سماع حديث صاحبه:

– نم.. نم نامت عليك حائط انت وفقرك.

وصعـد إبراهيـم إلى سريـره، وأطفـأ فريـد النـور، ولا زال نـور قلبـه مُتيقظـاً يُفكـر.

هـل سـأصبح في مثـل تلـك الحالـة.. هـل سـيُصيبني الجنـون فأضعـف وأصبـح مجـرد مـن عقـلي؟

مؤكد هناك خطوة يجب اتخاذها.

مؤكد لن انتظر هكذا حتى يقتلني الانتظار.

ليتني ما استيقظت.. ليتني ما أتيت إلى هنا.

نـام إبراهيـم وتـرك بصاحبـه خيـط مـن التفكـير امتـد إلى أعـماق نفسـه، ولم يقـدر عـلى الخـروج منـه سـالماً غانـماً.. كل المـؤشرات تنـم عـن خسـارة فادحة.

ويل للُمحبين الذين هم لحبهم منتظرون.

٢١

لم ينم فريد ليلته جيداً.

قضى الوقت يُفكر كي يُنهكه التفكير فينام، فيسحبه لا وعيه إلى حاضر جارف مليء بالعُنف ينبش ذاكرته فلا يترك تفصيله فيها إلا ويجبرها على القلق فيؤرقه.

سمع صوت سليمان بعدها بساعة يدخل الغرفة على أطراف أصابعه، قفز على السرير، وأعطاهم ظهره ولم يلتفت.

كانت الغرفة مكونة من سريرين كل سرير دورين، فى الدور الأول يسكن فريد وفوقه إبراهيم وفي السرير الآخر يقطن سليمان في دوره الثاني مع أن الأول فارغ، ولكنه لم يكن يحب السكن فيه كي لا يُقلقه أحد إن أتى رابع للغرفة، رصت أربع مكاتب في أنحائها، ودولاب كبير بأربع دلف إلى جوار الباب يتوسط الحائط، تظهر الغرفة لحد كبير صالحة للمعيشة بخلاف الفئران التي تمر من الردهة ليلاً، أو طلاءها الذي ما يكد يُطلى حتى يسقط لرطوبة نهشت في جدرانها فما تركت إلا ندوبًا.

هل يجب على مصالحته؟

مؤكد سأصالحه.. لا أحد يعلم ما الذي يمر به غيري، لم أمر به يوماً ولكني أحب دون أن أخبر وشد ما أخشاه أن يكون حظي مثل حظه.

ستكون الصاعقة مؤلمة حقاً، لن تمر عليَّ بسهولة.

افترض خيراً.. قل خيراً أو اصمت أيها الغبي.

أنت الغبي الوحيد هنا.. هل من أحد في هذا الزمن لا زال يُعمل عقله في الحب ويترك العنان لقلبه ليهيم.. أي غباء هذا.

ولكنها ما إن تتطلع إلى قلبي ستفهم كل شيء ستعرف أني أحبها منذ زمن، يجب عليّ إخبارها..

سأخبرها بكل شيء.. مؤكد سأخبرها.

مرت ساعات الليل بطيئة جداً على الساهر بآلامه، سريعة على من ألقى رأسه فأنفصل عن الواقع.

استيقظ سليمان في السابعة، لا يعرف فريد ما الذي يُوقظه مُبكراً هكذا، وكيف ينام لقد أنهكه يوم واحد سهراً وجهله لا يقدر على تمييز شيء، حتى نغم التي أوصلته، لا يتذكر منها سوى تلك النظرة في عينيها مُستطلعة عندما أيقظته.

قام من على سريره يرتقب عودة صاحبه من الحمام.. وسحب كرسياً أمام سريره كي يُهيئ مجلساً.. ما إن عاد سليمان حتى رأى شحوب وجهه واضحاً تُخفيه تلك اللحية لكنه ظهر تحت عينيه جلياً. ألقى سليمان السلام عندما وجده يقظاً، فرد عليه سلامه وقال بصوت رخيم:

- كنت أود أن أتأسف لك يا سليمان.

فلم يلتفت سليمان، وكان يخلع ملابسه إلى جوار الدولاب، فقال فريد متوددا:

- رد عليّ تقديراً ليّ حتى.. أعتقد أن الأمور لا تُحل هكذا.

فتمخط سليمان في منديل، وقال بصوت مريض أخشوشن إثر برد أصابه:

– ليست هناك مشكلة كي تُحل.

– بالأمس تخانقنا.. وعلا صوتنا لدرجة كبيرة.. وأعلم أنك تخشى عليّ .

فقاطعه سليمان:

– لست صغيراً كي أحاسبك.

– لا تأخذ الأمور من منطلق واحد.

– ليست بيننا أمور كي نراجعها سوياً.

– أنا أتأسف منك ولا أرغب في خسارتك.. تبدو على وجهك علامات القبول والسماحة فلا تلغيها في لحظة غضب.

كان سليمان قد أنهي تغيير ملابسه، ووقف أمام المرآة المكسورة بجوار الدولاب يُمشط شعره وهو يقول:

– أحياناً الرفق مع الناس والخوف على مصالحهم يجلب على الناصح وابلاً من التقريع.

فقال فريد معاتباً:

– والله ما نمت بالأمس لأجلك.. أحسست أني ظلمتك.

– لم يقع عليّ ظلم.. البينة على من ادعى.

ورمق إبراهيم النائم كطفل وديع شزراً.

فقال فريد مُدافعاً:

– أنت تعلم أنه طيب الخاطر ومهما تكلم وقال أو فعل فهو لا ينبع من شرور نفسه بل من طفولته.. إبراهيم داخله شخص جيد يحتاج لمن يكتشفه.

– لن تقدر على غلبه.. سيغلبك بسوئه.

– أنا أتودد إليك ولا أرغب في رحيلك.. ولو لم تكن فارقًا معي ما أنفقت حديثاً معك.

– لن أطيق الجلوس بينكما مجدداً.

– أنت وما ترغب يا شيخ.

– سأظل هنا حتى أجد غرفة أنتقل إليها.

– على راحتك.

رحل سليمان.. تضايق فريد لأنه شعر بالخزي وهو يطلب منه البقاء كمن يطلب حسنة.. فليس بعابر سبيل ولن يمنحه من مال أبيه.. قد حنى عليه لِمَ أوقعته الدنيا من آثام على كاهله، وليس طمعاً في شيء يمنحه إليه وبدافع الصداقة ليس إلا.

ملعون...الأغبياء.

٢٢

لم تحاول نغم في اليوم التالي أن تعترض طريقه، أو تنظر إليه مجرد نظرة.

حاولت أن تلتمس إليه عذراً عن إهماله لكلامها بالأمس بحجة إنهاكه ولكنه لم يُكلف خاطره أن يعتذر عما بدر منه من قلة ذوق.. فتعمدت إنهاء محاضراتها ورحلت سريعاً لم تدع دقيقة واحدة تجلس فيها بالمواساة كي يأتي إليها حتى، لقد رآها ترحل ولم يلتفت.

أحس هو بتغير نظراتها التي كانت ترصده- كمن أصابه ذهول إزاء صاعقة ألمت به.

وذهب بعد ذلك بيومين كي يعتذر، عزم النية على ذلك وكانت تقف إلى جوارها ثلاث بنات، تعمد أن يُخرجها من بينهن كي لا تفر منه مُجدداً.. هو لا يشعر على الإطلاق ناحيتها بأي مشاعر بالعكس تماماً لم ينظر حتى إليها نظرة تمنٍ واشتهاء، أو يراها بعين غير عين القبول المصحوبة في أي علاقة صداقة رغم أنها لم تتوطد بينهما لهذه الدرجة، ولكن عز عليه أن يري منها جميل عندما أوصلته ويعاملها بجفاء وبرود بالأخص أنه تذكر عدم شكرها يومها.

ويل لغبائي.

قال باسماً متوددا:

- السلام عليكم.

ضحك منه الثلاث بنات اللائي لم تعجبهن التحية أو علهن تضاحكن لاقتحامه المشهد ولم يرينه لمرة يقف إلى جوار أحد منهن، فضلاً عن كونه معروفاً بدفعته جيداً الجميع يعرفه ويعطينه حقه فقط في التعليم، وبعض نظرات الإعجاب المصحوبة بالسخرية على انطوائية وانعزاله بخلاف باقي الدفعة التي تكتلت لمجاميع من الأصدقاء، يخرجون مع بعضهم البعض في رحلات أو في جولات إلى مقاهي وخلافه.

- وعليكم السلام.

ردت عليه نغم بصوت واضح لا يخلو من خجل المفاجأة.. غير أن صاحباتها تمتمن ولم يكفن عن كتمان ضحكاتهن التي دوت ما إن استأذنت نغم منهن وانزوى بها جانباً.

قالت في عذوبة وهي تنظر لعينيه:

- اتفضل يا دكتور.

- كنت أود أن أشكرك أولاً على إيصالك ليّ.. وثانياً أتأسف على قلة ذوقي تجاهك يومها فلم أشكرك حتى.

- ليس بين الأصدقاء شكر.

- لكن هناك اعتذار.

صمتت نغم لوهلة.

تأمل عينيها لم يكن يعرف أنها بكل هذا الجمال.. للمرة الأولى يقترب منها إلى هذا الحد فضلاً عن تلك المرات القلائل.. كيف لم يلتفت لهذه اللوحة الحية.. لاحظ تلك الندبة في عينها اليسرى التي اخترقت خضارها بلون عسلي، والنمش القليل في وجنتيها وأنفها، وكم كانت شفتاها لها سحر خاص لمسه بلونها الأحمر الخالص.

حـرك الهواء خصلـة من شـعرها فداعبت عينهـا، أثارت داخله إحسـاس بالـدفء إلى جوارهـا، حركتهـا بأطـراف أصابعهـا في خفـة ودلال لم غـير متكلفـين وإنـما خلقـت هـي كذلك.

قالت باسمة:

– اعتقد أن الاعتذار وحده لا يكفي.

فأمـال رأسـه وضحـك فبانـت أسـنانه الناصعـة البيـاض وبرقـت عينـاه بـشيء لمسـه مـن الداخـل، وقـال وهـو يُداعـب شـعره بأصابعـه:

– احكمي في أمري ولكِ ما تشائين.

– ليس هناك شيء ما في رأسي الآن.

– نؤجلها لحين آخر إذن.

فقالت بحماس:

– لا لا.. ما رأيك أن تصحبني لمكان تُفضل الجلوس فيه.

– وحدنا؟

فتساءلت في حيرة:

– حرام؟

فقال باسماً:

– ليس الأمر هكذا.

فتساءلت بعدما رسمت على وجهها علامات الجد:

– أتخشى أن تقع في حبي؟

فضحكـت وخجـل هو حتـى كادت وجنتاه من شـدة الاحمـرار أن ينفجرا كأنثـى تسـمع لأول مـرة كلمـة أحبـك.. وحـاول أن يُـداري خجلـه فتعمـد إحراجها:

- مَن رآكِ ولم يتمنى أن يقرع الحب بابه؟

- أتغازلني؟

- الغزل إلى جوار جمالك نقص لقيمتك.

فتورد خداها أكثر من طبيعتها.. وبريق عينيها بدا يأسر العقل، وظهر اللون العسلي في عينها اليسرى جلياً منحها شيئًا من جمال فوق جمالها، وكانت قد رسمت عينيها بكحل سحبت نهايته سحبة فرعونية أضافت لهذه اللوحة إبداعاً إلهياً فريداً.

وشعر بأنه تجرأ أكثر من اللازم وأخذ منعطف لم يسر فيه ولو لمرة ولم يخطر على باله أن يطرق هذا الباب.. ولكن الحديث مع كل هذه الأنوثة يُحرك في الصخر مشاعر تُحييه وتمنحه طاقة روحانية تجعل الكلام كما المطر في فصل الخريف.

أحب هو هذا الشعور الذي قد يُساعده يوماً إن تجرأ وصارح نور بما في قلبه.

هل سيكون المشهد بيننا حينها أخذًا وعطاءً هكذا.. أم أنها سترحل منذ أول كلمة مني؟

لن ترحل مؤكد لن ترحل.

كل فتاة تتمنى أن تسمع لكلام مثل هذا يحملها بعيداً بخيالاتها الواسعة فتتمنى فتتحقق أمانيها، وتُحب فينبض عاشقها بأكثر مما تتوق وتتوقع.

فقالت نغم ضاحكة:

- الجمال دون كلام يُزينه؛ يُبطله.

- ولكن كل لسان لُجم عن الكلام أمامك ينفلت عياره.

– هذا كثير عليّ.

– والله لا أعلم من أين أتتني كل تلك الجرأة كي أتحدث إليك بكلمة واحدة أعتقد لو كان المشهد في صورة مختلفة لأصبحت كمختل عقلي لا يقدر سوى على التهتهة.

– بمعنى؟

فصمت لثوان يسأل نفسه، أيُصارحها بنور أم يظل هذا الحب خلف هذا الستار لا يعلم عنه أحد شيئًا.. وفضل إخفاء حبه، وقال مُغيراً الموضوع:

– اعتقد أن المكان الذي نذهب إليه قد يكون البورصة التجارية أو الجلوس إلى البحر لحظة المغيب عند قلعة قايتباي.. أو على بلوكات البحر في كامب شيزار. أيهما تفضلين؟

– حقيقة لا أعرف.. أعتقد أني زرت مرة القلعة عندما كنت صغيرة ولم أزرها مرة أخرى.. فلنُجرب كامب شيزار.

فقال وهو يُصدر صوتاً بأصابعه:

– وجدتها.. نخرج على البورصة التجارية.

– أين؟

– بالمنشية يا بنتي.. أنتِ لا تعلمين شيئاً هنا؟

– سأحكِ لك القصة ونحن في السيارة.

– لا لا ضعيها في أي جراج ونمشي معا، فالجو يبدو لطيفًا إلى حد ما مع أني لا آمن غدره.

– أوك.

٢٣

تركت نغم السيارة بشارع لطفي السيد إلى جوار كلية الهندسة.

ومشيا جنباً إلى جنب.. لم تغمره السعادة من قبل هكذا.. تخيل فيها نور الخليلي وهي تتبختر في مشيتها إلى جواره، تُلقي عليه نظرة فيتملكه الحب، فتتباطأ خطواته مرتبكة من لقائها. يبتسم فتبتسم، ويبحث عن يديها كي يلمسها قصداً ويتأسف عن ذلك، ويرى بريق عينيها يُخبره بكل شيء.

لم ير في نغم تلك الفتاة التي يُحبها، أو تصلح لأن يُملِّكها قلبه.

هي بالنسبة إليه صديقة جميلة، بل ساحرة الجمال، جريئة، ينطق الحجر معها بالكلام دون أن يُبالى بردة فعلها والشعور بالإحراج لكلمة تفلت من لسانه.

على النقيض كانت ترى نغم فيه شخصًا مثاليًا للحب.. قلب مفتوح، بريء لدرجة الطفولة، هادئ تماماً، رزين وعاقل ينطق بالكلمات في محلها فتأخذ جزءاً من قلبها لتأسره ولا تترك له المجال كي يرحل، فضلاً عن جماله وهيئته المهذبة الجذابة.

لم تُنكر على نفسها أنها تعلقت به في تلك المرات القلائل التي رأته فيها عن قرب.. سواء أصدر عنه فعل أعجبها أم سكون تأملته. كانت تتمنى أن تطول المسافة في تلك المرة التي أوصلته، فتتأمله من حين لآخر وهو نائم، كان يغط في نوم هادئ، تبدو قسمات وجهه جميلة

رغـم مـا كانـت تحملـه مـن أسـى وخـوف مـن حـاضر لا مسـتقبل فيـه.

ولّـما توقفـت السـيارة مـا وجـدت نفسـها إلا وهـي تلمـس فخـذه كـي تُيقظـه، ولـو كان الأمـر بيدهـا لذهبـت بـه إلى بيتهـا وحبسـته لنفسـها.

تمنـت أن تملكـه وهـي لا تعلـم حتـى الآن رأيـه فيهـا، وهـل مـال إليهـا أم أنـه مجـرد استرسـال وخروجـه لمـرة واحـدة وينتهـي كل شيء.

لو لم يكن صالحها وتأخر عنها لجُن جنونها.

فـرت في الأيـام التـي كانـت تتـلافى فيهـا لقاءه كـي لا تتعلـق بـه أكثر مع أن الجنـون كان يتملكهـا في الليـل فـلا تـكاد تنـام. وأخـذت تُحـدث نفسـها:

لـو لم يـأتي لكنـت ذهبـت إليـه وقبلتـه.. مؤكـد كنـت سـأفعل هـذا كـي يشـعر بـما يعتلـج في صـدري.

أنا لا أقدر على تمييز إن كان حب أم إعجاب.

لكـن الحقيقـي أن شـيئًا في صـدري يُحركنـي ناحيتـه وبشـدة ولا أعلـم نتائجـه.

بدت السماء تحتضن البحر في مشهد لا يخلو من حب.

هـذا الحنـو الـذي تعكـس فيـه قـوى الطبيعـة ائتلافهـا كـي تُخـبر البـشر أن الحيـاة بهـم مأسـاة كلهـا قتـل وتشـويه، ودونهـم هـي جميلـة لم تشـهد تلـك الدمـاء وهـذا الدمـار.

تكتلـت السـحب البيضـاء عنـد الأفـق وباتـت باهتـة تتخلـل زرقـة السـحب فـوق رؤوسـهم كلـما ابتعـدت.. كانـت السـاعة عـلى مشـارف الخامسـة.

مشيا إلى جوار بعضهما البعض.

تبدو نغم في بنطال ضيق أسود لامع أشبه ببناطيل النوادي الرياضية، كانت هي الوحيدة من بين طلبة الكلية من تأتي بمثل هذا البنطلون، وتي شيرت أبيض كتب على صدره بالإنجليزية **GAP** وربطت حول وسطها تي شيرت رصاصي. وحذاء رياضي فسفوري. وفريد يرتدي بنطال أسود جينز مع قميص مربعات أحمر مع أزرق غامق، وممسك بيده تي شيرت كحلي. وحذاء أبيض.

بديا إلى جوار بعضهما البعض مألوفين لدرجة كبيرة، كخطيبين أو زوجين في سن صغيرة.

لم تمر نغم من أمام أحد إلا ورمقها بنظرة مُتفحصة لم تترك فيها جزءاً من جسدها، لم يلتفت فريد للأمر في بادئه.. ولّما لاحظه وبدأت تخترق نظرات الناس كل تفصيله فيها تضايق وشعر بالضيق، الذي احست به نغم عندما تبدلت ملامح وجهه عبوساً بعدما كان يبتسم.

فتساءلت في حيرة:

– ما بك؟

فقال يهز رأسه:

– لا شيء.

فتوقفت أمامه لتخبرها عينيه، وتساءلت:

– والله هناك شيء ما.. أخبرني.

فهز كتفيه استهانة وهو يقول:

– آسف ولكن هذا أمر لا يخصني.

– ولكني طرف فيه.

– سيُضايقك الكلام.. ما علينا.

– تقصد نظرات الناس إلى ملابسي.

– اعتقد ذلك.

فصمتت لوهلة وركزت عينيها في عينيه وهي تتساءل في دلال:

– أتغار منهم عليّ؟

– أنا لا أضحك.

– وأنا أتحدث جد.

– ومنظري وشكلي أمامهم.. يقول الناس في أنفسهم الآن أن من يسير إلى جوارها ليس برجل إذ سمح لنفسه بهذا.

– ولكن ما لهم فيِّ شيء.

فقال وهو يضرب قبضة يمينه في راحة يُسراه وهو يضغط على الحروف ويمطها:

– لكنك هنا الآن بينهم.. محط نظراتهم، وأنا إلى جوارك رجل شرقي لدرجة كبيرة لا تتخيلينها.. ولا اتمنى أن يجرح أحد كرامتي بكلمة أو ينظر إليكِ نظرة لا تعجبني أشعر فيها بالضيق.

فقاطعته بحركة من يدها وهي تقول:

– مهلك.. مهلك.. لقد اعتدت هذا المنظر الذي تراه.. اعتقد أنني حرة في لبسي وعلى الناس أن تتحكم في بصرها ورؤيتها.

– اعتقد أن السلع التي تُباع تُعرض أمامهم أيضاً ومن يشتري فقط هو من يقترب.

فقالت بأسى:

- شكراً يا دكتور.. ولكني لست بسلعة.

فقال متأسفاً:

- لم أقصد ما وصل إليك.

- أفهمني إذن.

- أنا آسف.. قلت لك بأن الأمر سيُضايقك.

وسارت إلى جواره صامتة.. لا تقدر على تمييز ما بداخلها من شعور.. أكانت فرحة على غيرة أبداها، أم ضيق لتتجرأ على حرمانها من حريتها. الحرية أحياناً جزء من مجتمع تتوقف على عقلياتهم وعاداتهم وتقاليدهم. ربما ذلك وربما أيضاً عليهم أن يحترموا الآخر في اختياراته دون تبجح من نظرات متفحصة.

ولكن الأمر لم يكن واضحاً حتى، لم يتحدث عن إعجاب يُبديه ناحيتها، أو غيرة صريحة لقد تكلم عن رجولته وشرفيته.. ثم ماذا بعد؟

ما كادا يصلا حتى القائد إبراهيم، الشمس تُرسل ما بقي من طيفها ناحية الغروب، فبدا الأفق صورة من شفق أحمر قانٍ تتخلله ظلمة تنبع منها بياض خافت. والهواء بدء يضرب الأمواج بعنف، فلم يجدا بُد من لبس ما كان يمسكان به من تي شيرتات.

كانت خطواتهما بطيئة جداً.

وصلا البورصة على آذان المغرب، تفاجأ فريد عند الباب بإبراهيم الذي يجلس إلى مجموعة من بنات سافرات أجمل واحدة منهن لا تُقارن بنغم.. نظرن جميعاً إليها كعادة أي فتاة عندما تمر من أمام

عينيها من هي أجمل منها، تنظر في تحسر على خلقتها غير قانعة أن في هذا الكون من هي أجمل منها وتبدأ في البحث عن عيب وحيد بها، فإن لم تجد خاضت في عِرضها كي تُقنع هذا النقص بداخلها.

تعانق الاثنان، وسارع إبراهيم قبل أن ينصرف صاحبه أو يخجل فيرتبك:

- ألن تُعرفنا على صديقتك.

فاضطراب على جرأته، وتمتم وهو ينقل يده بينهن مُشيراً:

- نغم.. نغم.. إبراهيم.

فمد إبراهيم يده تبجحاً قائلاً:

- اهلا وسهلا.

ونقل إبراهيم وجهه لفريد وهو يقول:

- ما رأيكما في أن تجلسا معنا.

فردت نغم في سرعة لِمَ لحظته من سماجة إبراهيم:

- شكراً لن نُثقل عليكم.

- لا شكر على واجب.. قل لها يا فريد.

فقال فريد:

- اتركها على راحتها.

وقد شعر فريد بشيء من عدم الارتياح لنظرات إبراهيم المتبجحة، وأستأذن بالانصراف على أن يكون إلى جواره.

ومر وقت قصير لم يتحدثا فيه.. طلبت ليمون وطلب قهوة وشربا دون كلمة.

كان الحديث كله نظرات، تبسم فريد بسمة طويلة، كان لحظتها يرى أمامه نور الخليلي ببسمة عينيها العسلية وبشرتها القمحية بمسحة لمعان من قسماتها، لم يتخيل للحظة أن يُطارده طيفها إلى هذا المكان بين كل هذا الصخب في القهوة، ولم يقدر على إخراج نفسه من هذا الطيف العابر الذي نقله معه بعيداً.

حتى لمست يده نغم وهي تقول:

- علينا أن نرحل فلا أحب هذا الصخب.

فتمتم والبسمة على وجهه:

- تمام.

ورحلا.

وترك في نفسها شيئًا كبيرًا من صراع لا يخلو من حب وسوء فهم، تقييد وشعور بالأمان، غيرة أم غباء، شرقي أم غربي، كان هناك كلام كثير عليها أن تُخبره به ولكنه لم يلتفت، لأن نظرات الناس كانت تملكه أكثر من نظرات عينيها.

٢٤

«حبيبتي فريدة..

كيف حالك؟

أنا أعرف أنكِ في خير ما دمنا معًا.. لا تبتسمي ولا ترفعي حاجبكِ ذهولاً؛ فترتبكين.. أو يتملكك شعور بالفرحة فتبتسم عينيك تلك البسمة التي أراها من مكاني هذا فتُشعرني بالوحشة دونك.

أنا أكتب إليك الآن. أراكِ تُملين عليّ روحي كل كلمة أكتبها فأستمع.

الغياب الذي لا ذكرى لكِ به، لا حياة فيه.

فكيف تكون الحياة دون نبضة منك تدفعني إلى أمل اللقاء.. لم أتصور يوماً أن أكتب هذا الكلام، وقد ضاقت على الأرض بما رحبت في غربتي وبدت كل الطرق مؤلمة، ولكن طريقاً أشد ألماً لقلب مَن أحببت أهون على العاشق من كل الطرق مجتمعة.

فالغربة شعور سيء يملك على المرء حواسه ويجبره على البكاء أحياناً إذ يرى في كل ليلة طيف من أهله وأحبائه ويشعر بوخزة ألم تتفاقم مع الوقت فيبحث عمن يُطيبها إليه. وأنت هنا خير طبيب.

فلم تبرح صورتك قلبي وأنتِ تبتسمين فيهون على كل شيء.

وربما لم أقدر على البوح إليك بكلمة أرتبك لها أو ترتبكين لوقعها على قلبك، ولكن الورق دائماً هو ما يُنجي العاشق من لجم لسانه..

أو علني كنت أتوق لرؤية طيف من الزمن القديم فأرسل إليك بجواب يكون معك ذكرى بين طيات حياتك، تفتحينه بين الحين والآخر فهو أفضل بكثير من كلام يُقال في الهواء ويُنسى مع أني أعلم أنه في صدرك محله لا يبرح مكانه ولو انقلبت السماء على الأرض.

ولكن الذكرى المكتوبة خير ألف مرة من ذكرى الكلمات المعسولة ولو فقدت الأولى بريقها فهي تحمل معها جمالها وروح كاتبها فهي بخطي.

لقد أحببتك بالقدر الذي ما عاد لقلبي نبض إلا لكِ.

أتمنى أن أراكِ عما قريب.

حبيبك إيهاب.

السعودية..

«٢٠٠٩/٣/٨»

تملك فريدة شعور قوي باحتضانه، تلوت على سريرها، وأنَّت أنّه خافتة من قلبها. بكت وتبسمت وضحكت، وما أحست بنفسها إلا وهي تُلثم الورقة وتحتضنها وتشتم رائحتها، رائحة يديه وعطره، رائحة عرقه وطيبه، رائحة روحه البعيدة عنها القريبة من قلبها.

إن الحب الذي لا ينبض بعطر الأرواح فتهتدي، لا حياة فيه.

كان الجواب مُرسل مع هاتف أرسله إليها بحقيبة كبيرة تحمل ملابس، فساتين وقمصان نوم وعطور وأشياء أخرى كثيرة.

لم تلتفت إلى أياً منها، وما وجدت نفسها إلا وهي تقرأ الكلمات فتُغنيها عن الدنيا كلها بمتاعها. تركت الحقيبة لأمها تتفحص فحواها، وأخذت الورقة وأغلقت الغرفة على نفسها كي تنتشي

بالحب، وتتخيل من أحبت إلى جوارها. لقد أخبرها بكل ما تمنت أن تسمعه يوماً. دائماً هو ما يفاجئها فيهون عليها بُعد المسافات.

في المرة المائة لقراءة الورقة ترامى إليها صوت الهاتف من الصالة، فخرجت تُهرول وهي تعلم أنه إيهاب.

سحبت هاتفها القديم من على الشاحن، ودخلت غرفتها.

فأتاها صوت إيهاب باسماً:

- ألو.

فقال بتلقائية:

- أنا أحبك.

فقالت باسمة:

- وأنا لم أحبب في حياتي غيركِ.

وصمتا مليئاً حتى قطع هذ الصمت إيهاب مُتسائلاً:

- ما رأيك في الهدايا؟

- لم أنظر إليها بقدر ما تعلقت بالورقة التي في يدي.

فضحك ملء فيه وهو يقول:

- كنت أحسبكِ لن تريها.

فتساءلت في دلال:

- كيف أجهل عنها وقد أمليتك تفاصيلها.

فقال ضاحكاً:

– غلبتني بفصاحتك.

– بل بقلبي.

– أصبحنا نتغنى بالحب وللحب وقد كنتِ بالأمس تخجلين من أن تُسلمي على.

– لقد انكسرت المسافات بيننا فما عاد لقلبي هم إلا قلبك وحياتي دون حياتك جحيم.

– أود أن أراك.. افتحي الكاميرا.

جرت ناحية المشجب المعلق خلف الباب وسحبت منه إيشارب أسود، ووضعته حول رأسها فما بدا من شعرها الذهبي إلا أوله، وفتحت الكاميرا.

كان وجهها يشع احمرارا من الخجل وارى دمامة أنفها، وأخذت تنظر إليه باسمة بسمة مرتبكة، هي دائماً عندما تظهر إليه خلف هذه الكاميرا ترتبك، فلا تكد تسيطر على بسماتها وخجلها إلا عندما تنغلق الكاميرا، تواري وجهها عندما يُطيل النظر لعينيها فتشعر بأنه قريب جداً منها. رغم كل المسافات التي كسرت بالكلام ما زال هناك رهبة اللقاء ورهبة النظر إلى عينيه تُرهقها، فتضطرب. وكانت من خلفه الجبال تحتشد والأرض الذهبية تعكس أشعة الشمس وحرارتها وقد لف رأسه بلاسه تدلت إلى فوديه كان يُخفي بها وجهه من الشمس.

قال باسماً:

– لِمَ تضحكي؟!

فقالت وهي تواري وجهها:

– لا تنظر إلى هكذا.

- كيف؟

أن تنظر إلى عيني كما تنظر الآن.

- أليس من حقي تأملهما؟

- بل من حقك تملكهما.

- ثم إنه من حقي أن أرى شعرك.

- لقد رأيته من قبل.

- لكنها مرات قليلة.

- إنها كافية.

- لا يكفيني التطلع إليك مهما كان.. أتخفين عني شعرك الذهبي وجماله. أزيحي هذا (الإيشارب) فلا تُخفي أكثر من ذلك عني.

- ولكن.

فقاطعها:

- والله سيكون أجمل..

فما شعرت بنفسها إلا وهي تسحب (الإيشارب) عن شعرها، فانسدل دفعة واحدة كماء من ذهب رقراق، انعكس فيه شعاع الشمس الهارب من الشباك فازداد بريقه.

فتأمله إيهاب وهو يقول:

- بسم الله ما شاء الله. شعرك الذهبي وشعري الأحمر هذا سنُنجب أبناء ملونين.

فتبسمت وما كادت تلتقي أعينهما حتى وارتها.. وقالت في دلال:

- سأغلق الكاميرا لأني لا أقدر على النظر لعينيك ولن أتكلم.

- بل دعيني أتأملك هكذا.

- إن الرؤيـة بالقلـب لا بالعـين.. والتأمـل بمقـدار مـا مَلكـت مـن روحـك فينعكـس عـلى بصيرتـك.

فضحـك لكلامهـا وهـي التـي كانـت بالأمـس القريـب تلـك الفتـاة الخجولـة التـي يُربكهـا قـول كلمـة واحـدة أو رد سـلام.. أصبحـت تُنشـد اليـوم كلامـاً معسـولاً وحِكـم في الحـب.

كانـت السـاعة الخامسـة، أسـتأذن إيهـاب أن يُغلـق معهـا الهاتـف فـلا زال بالموقـع عـلى أن يتحدثـا في الليـل. وتركـت في نفسـه موسـيقى روحيـة يطـرب لهـا بقيـة يومـه، وتـرك داخلهـا نبضًـا شـديدًا وشـعورًا بالحنـين إليـه؛ فسـحبت الورقـة ونظـرت إليهـا مُتأملـة ووضعتهـا إلى صدرهـا وأخـذت تُحـدق في السـقف الـذي ارتسـمت فيـه صورتـه.

٢٥

لم يقترب فريد من نغم.. حاول أن يتجنبها أو يتناسى وجودها.

وهي أيضاً غلبها تيار الكبرياء، رغم ما كانت تُبديه من نظرات واضحة تخترقه ولا يُبالي لها. كانت أيام السنة الأولى الباقية بالمواساة مؤلمة لدرجة كبيرة على كليهما، فريد لم يعد قادراً على رؤية نور الخليلي حتى بأحلامه، ابتعدت تماماً، فأنغمس في تيار المُذاكرة والاجتهاد وقد اقتربت الامتحانات فما كان عليه إلا أن يكد؛ لأن ليس له سبيل سوى ذلك. ونغم أيضاً حاولت أن تُسيطر على مشاعرها ناحيته رغم ما انهزم داخلها، ولكنها تبنيه بأمل لقاء قريب.

وكانت تُردد في نفسها:

– لن يرحل عني مؤكد سيعلم يوماً بحبي ويُوقن صدقه.

انتهت السنة الدراسية، وسافرت نغم أمريكا لأمها، لم تنس أن في مصر أثر يجذبها، تركت قلبها هناك، ومرت الأيام ولم تتحمل مدى فراقه، ولا البعد عن رؤياه، فعادت لمصر.

وفريد ازداد سوءاً عندما علم بتقدم العرسان لخطبة نور واحداً تلو الآخر وهو مكتوف الأيدي، شجعه رفض الأهل ونَما داخله أمل أن تمر الأيام ويستمر هذا الرفض حتى يقترب من الانتهاء من كليته التي أقحم نفسه فيها.

خرج بامتياز في السنة الأولى، ونغم كذلك. لا أحد يُنكر مجهودهما المبذول رغم ما هما فيه من لهو كبير.. سواء أكان فريد بجنونه وصديقه الفاسد إبراهيم الذي اصطحب إياه معه في كل ركن بالإسكندرية من شرقها لغربها، وجعله يفعل ما لم يكن يخطر على باله يوماً. يظن أن الحسنة الوحيدة في حياته أنه عَرفه على الطرق الصوفية وحضراتها.

أما نغم فلهوها وشهواتها مختلفة تماماً، في طبقة مختلة فاقدة أغلبها لمعايير الواقعية التي يعيش فيها الفقراء أو متوسطي الحال. يوماً في (نايت كلوب)، وأخرى في (ديسكو) وأخرى في (بار).. حاولت كثيراً أن تنسى فريد ولكن حتى تجربة نسيانه فيها متعة ولذة مختلفة تقودها ناحية التعلق به أكثر إذ كيف يرفضها وهي بكل هذا الجمال.

٢٦

إن إغراءات الشيطان لا تكد تتوقف في دنيا الملذات.

يطرق باباً هشاً لأكثر جزء في حياتك ويدخل دون إذن، إذ تَملك هذا المكان بعدما سمحت إليه بضعفك؛ فانتهكه.

والنفس البشرية مهما أظهرت من إيماناً فالدخائل فاسدة.

ولو تحكم الإنسان في شهواته لأصبح مَلك.. يُرفرف في السماء، يُحقق كل رغباته دون أن يدنو من باب موارب من الشيطان، إذ يعلم حدود الله وحدوده ولا يتعداها.

والمسافات في الحياة تُولد ضعف العلاقات ولا تقويها عندما تتسع، وتميل إلى النفور وتصل للكُفر بصاحبها عندما تغدو فجوات لا يمكن التئامها.

لم تُنكر فاطمة أن ما نشأ في صدرها من حب علم طريقه نتيجة الإهمال الواضح في تلك السنة الماضية.. ما أسرع الوقت الذي يُظهر كم التحولات التي تبدو في حياة المرء فيغدو أسوأ مما كان، ويصبح شخصاً تمنى ألا يكونه يوماً ما، ولا يقدر على أن يعيبه في تلك اللحظة، إذ أنه ثمة ما يربطه بسوء هذا الأمر ويحركه وهي نفسه.

أنك لا تعيب في الأشياء حتى تلتصق بك، ولا تترك مجالاً لفرار أو عودة، فتعتاد شكلها الجديد وهيئتها التي طبعت داخلك.

لم تخل زيارات السيد البرنس من همسة، أو نظرة، أو ضغطة يد في لحظة وداع على السلم، حاولت أن تفر من هذا الباب الموارب، ولكن الخطيئة تحف المكان منذ زمن بعيد، تُطاردها أينما ظهرت.

الاندفاع خلف النفس مُهلك، وتيار الشهوة جارف، والواقع مؤلم بقدر ما يعكس صور السعادة على أصحابه وسرعان ما يُضيعونها بأنانية.

كبر الأبناء فلم يعد من الشباب بقدر ما ذهب.

ماذا أقول لفريد.. أُفسد حياة ابنتي التي ستتزوج في أقل من عام لأنانية مُفرطة تتملكني.

سينتقص الجميع مني، لن أقدر على محاربة في تلك الجبهة وحيدة، ولن يُشاركني فيها أحد. صحيح السيد البرنس وحيد لا (عيل ولا تيل). رجل حسن المظهر، يعلم ما تحتاجه المرأة ويُشاركها به، لكنه في النهاية أعزب، فشل في الزواج قبل ذلك مرات، كان يُمتع نظره أولاً ويدخل للمرأة مما تُحب أن تسمع وترى، وسُرعان ما يعقب الأمر تيار لا نهاية له من الشهوة حتى يتملك الجزء الأضعف للمرأة فيقودها لفراش المتعة، إما في صورة زواج أو لحظات طائشة تنتهي بذكرى وتأنيب ضمير.

بئر السلم خالٍ تماماً.. الساعة الثامنة مساءاً، والشارع في سكون تام يُهيجه برد مغلوط في شهر مايو، ولو كان صخبه يصل الأسماع ويربكها ما سمع أحد شيئًا ولا رأى. دنا منها السيد تلك المرة فتجرأ، وتبجح إذ جذبها ناحيته بقوة، فشهقت فاطمة وأنَّت أنه خافتة كان لها صداها في نفسه، ولم تُسيطر على رغبتها الجامحة في الاقتراب، لم يسعها إلا أن تُلقي بنفسها في حضنه وتستجيب، وطوقته بشدة، فأنزل عن رأسها حجابها الموضوع اضطرارا بشكل غير رسمي، ولمس شعرها وهمس في أذنها، وقد ذابت فاطمة في شهوة نقلتها إلى دنيا بعيدة لم تطأها منذ زمن، وأخذت يداه تذرع ظهرها جيئة وذهاباً، وما تدري إلا وفمه في فمها ينقل إليها

عـدوى الحـب الكامـن في صدر شـيطان أفسـد الحيـاة؛ فسـقطت في حباله.

ترامى إليها صوت فيروز تُغني:

هو صحيح الهوى غلاب؟ ما اعرفش أنا

والهجر قالوا مرار وعذاب. واليوم اليوم اليوم بسنه

إزاي يا ترى أهو ده اللي جرى وأنا وأنا أنا ما اعرفش ما اعرفش أنا

دفعتـه بلطـف وهـي تتأمـل عينيـه، فجـذب يديهـا ناحيـة فمـه ولثمهـا، ابتسـمت لِمَ وقـع في نفسـها مـن أثـر الخطـأ.. ورحـل.

تـرك مـن خلفـه موجـة عاتيـة مـن التسـاؤلات.. ودنيـا دنيئة، خسيسـة، منكـرة داخلهـا تحاول عبثـاً الوصول لحـل. ولكـن النتيجة الفعليـة هي راحة لا تأنيـب للضمـير فيهـا. هـي كأي شـهوة تتبعهـا لحظـة سـعادة، وعنـد أول خلـوة مـن بَعد بُعـد تنقلـب الآيـة إلى حسـاب ودموع.

الأخطاء تتكرر، والشيطان يدخل كل بيت بل لا يكد يخرج منه.

لا يؤثـر فيـه بخـور، ولا قـرآن، ولا حلقـات ذكـر، إذ هـو داخـل صاحبه ينفـر فقـط عندمـا يتطهـر المـرء من آثـام حياتـه فيقـوم سـلوكه ويعتدل.

لم تُفكـر فاطمـة في عواقـب تلـك الزيـارة إلا بعدمـا انتهـى معسـول فمـه الذائـب في روحهـا، اسـبوع كامل وهـي في لحظة نشـوى حقيقة، تسـتيقظ في الصبـاح عـلى صورته، وهمسـه في أذنهـا يُطمئنها بـأن الأمور سـتكون بخير.. لطالمـا كان البـاب مفتوحاً للعشـق.

ونسيت أن كل عالق بالقلب راحل مع كثرة النبضات.

ولا يبقـى سـوى أثـراً تزرعـه بعقلـك لا بشـهوة ودافـع داخـلي لغريـزة حيوانيـة تسـترضيها.

بلغ عطية في السعودية منصباً لم يكن يحلم به.

يعود المهندسون أنفسهم إليه أحياناً عندما يعجزون في شيء ما؛ لخبرته التي ظهرت منذ أول يوم في العمل، فكانت انتقالاته من فروع الشركة بسيارة تحت قدميه بسائق مخصص له، كان له القدرة على العمل بنفسه في أماكن ضيقة وصعبة وحل أكبر الأزمات في أنظمة المواسير واللحامات.

وكان العائد كبيراً، أتاح لفاطمة في تلك السنة أن تُجهز ابنتها بكل ما ينقص جهازها، فامتلأ الدور الأرضي بكل ما تحتاجه العروس وأكثر حتى انها نقلت الفرن لبئر السلم فلم تعد لغرفة الفرن مكاناً، ووضعت ما بقي من مال معها في بناية الدور الثاني للبيت لفريد. ولم تدخر سوى بعض ما أتيح إليها.

كان فريد قد أنهى سنته الدراسية الأولى بالجامعة.. ووقف إلى جوارهم في البناء السيد البرنس، وسناء الخواجة، وخلق كثيرة من الجيران، يتودد كل منهم بغداء اليوم وعشاء الغد وصندوق مياه غازية، وعصير وخلافه. هكذا هي عادات القرية عندما يُبني بيت أو دور في بيت. لم تخل نظرات الناس من حسد، ولا تعقيب على جمال فاطمة الذي ازداد، وطفحت أنوثتها وازداد جسدها رطلاً أو بضع رطل في الأرداف والصدر، فبدت أفتن للناظر الباحث عن جسد مليء، واستدار وجهها أكثر بعدما امتلأ بريح الحب الحرام، فارتفعت شامتها قليلاً من موضعها فمنحتها جمالاً فوق جمالها.

تعلمت التبذير وهي التي لم تكن تُسرف في شيء، ولكن الباب كان مفتوحاً لمن يكبش بيديه ويرمي في الهواء.

لم يبخل عطية عليهم يوماً منذ سافر، كل المال يُرسله دفعة واحدة ونسى نفسه تماماً، امتصت الغربة كل جسده، فلم يعد به طاقة رغم تلك التي يبذلها، أنهكه السفر وتركت الغربة في نفسه تلك المرة أثراً سيئاً؛

فضعف ضعفاً شديداً وأصر على الإكمال دون الشعور بحاجة للراحة، كان يقتص من نفسه في العمل، كأنه لم يعد يرغب في الحياة التي ألقت به في تيار الهجر والبُعد.. ولكن لقمة العيش أينما حلت نُغني لها.

وقد غنى.. فكان صداها ألم وفراق من بعد ألفة.

لم يعد يرغب في العودة لمصر، كأنه مكان غريب عنه.. حتى أتاه صوت فيروز معاتباً وهي تُغني له باكيةً:

طمنوني الأسمراني عاملة إيه الغُربة فيه

بكى.. بكى كثيراً ولم يُدرك عينيه حينها إلا بعدما اغلق الهاتف معها وقد تبلل قميصه. لم ينم ليله، وشعر بقوة مُهلكة تُحركه ناحية العودة.. لم يشعر بها إلا مرة واحدة منذ غادر، تلك الأيام الأوائل التي يحاول المرء في غربته التمسك بما خَلفه وراء الحدود وسُرعان ما يغيب مع العمل والاستمالة على الجنيه.

ظهر العز عليهم وكان له وقعه في نفوسهم.

وبالأخص فاطمة.. شبعت من بعد جوع وتملكت بعدما كانت خالية الوفاض.

كانت حياتها خالية تماماً من كل هم.

لم تعد تُفكر فيما ستفعله اليوم، وما تفعله بالغد إن كان المال لن يكفي، الكل بدأ ينظر إليهم نظرة حقد وحسد.. غُرت فاطمة بنفسها غروراً بالغاً، وازداد تبرجها ففقدت حياءها أمام نفسها وأمام الغير. وكانت تُردد:

لا بئس ببعض الترويح عن النفس هي حياة لا أكثر.

ما كل تلك العتمة.. لقد خلقنا لنعيش لا لنموت أحياء.

الحيـاة رحلـة.. والرحلـة إن لم تكـن ممتعـة فـما كان علينـا خوضهـا، بـل نُنهيهـا بإيدينـا.

وضعـت في حياتهـا خطـط صعبـة الإدراك لـو كانـت بالأمـس القريـب فاطمـة عاملـة النظافة بمدرسـة الصالحيـة.. المرأة التـي كانت للجميـع مثالية لحـد كبـير ومـا خفـي كان أعظم.

(كانـت في جـرة وطلعت لـبره) هكـذا رددت أم إيهاب تشـتكي لزوجها. رأتهـا لأول مـرة رافعـة رأسـها في السـماء وهـي التـي قـد كسرتهـا الحيـاة من قبـل ألـف مـرة.. وكان يقومهـا مـن خلفهـا ويدفعها عشـق كلمات طائشـة.. حتـى حدثـت الفاجعـة فما تركـت في نفسـها سـوى حُطام.

٢٧

صُعقت فريدة عندما رأت بقعة بيضاء بين فخذيها أثناء استحمامها.

لم تُخبر أمها، حاولت أن تُسيطر على رغبتها في إخفاء الأمر وألا تخاف في بادئه، ولكنها ارتعبت لمّا رأت البقعة تتسع حتى انتشرت حول فرجها. لم تكن تنظر لتلك المنطقة في جسدها إلا عابرة، وبات كل همها الآن أن تراقب تطور تلك البقعة وما ستنتهي إليه، أحست أنها شبحاً كان يُطاردها في أحلامها وبات اليوم حقيقة يُنغص عليها واقعها.

ولم يمر شهر حتى انتشر في الجزء السُفلي منها. سمعت فاطمة صوت نحيبها في الحمام، وقفت تصرخ فيها بأن تفتح، ولكنها كانت جامدة، ذُهلت مما تركته البقعة في نفسها فبدت كشبح لا تطيق النظر إلى نفسها حتى شعرها أبيض وبات مخيفاً.

فتحت لأمها الباب وكانت عارية تماماً، صُرعت فاطمة لِمَ أصاب ابنتها، حاولت أن تُظهر من التماسك ما يُقويها، ولكنها بكت في النهاية واستسلمت للدموع كي تجرف وقع البهاق في نفسها، لقد كذبت الأمر قديماً عندما أخبرتها فريدة وقالت إنها ولدت بتلك البقعة في رقبتها ولكن الكابوس تفاقم وأصبح واقع حقيقي.

ضمتها إلى صدرها في حنان معهود بها، مُطمئنة إياها بأن كل شيء سيكون على ما يُرام.

ازدادت نفسيتها سوءاً، وباتت تبكي نهارها وليلها. تخشى ألم الفراق الذي ينتظرها لِمَ أصابها.. عليها أن تُصارح فريد بما أصابها، ولكن كيف تُخبره بذلك ومعه روحها؟

لن يُخيب أملي ولن أنتكس.. ربما يكون العلاج له نتيجة مؤكد له علاج فعال.

فريد أخي سيُساعدني لن يتركني وحيدة، سيسأل في كلية الطب ويعرف علاج الأمر.

ذهبت الأم بابنتها إلى أطباء كُثر، ولكن الأمر كله مسألة وقت والعلاج يحتاج إلى صبر طويل لكن الفاجعة الحقيقية أن العلاج أتى بنتيجة سلبية، فكانت فريدة تُعاني من حساسية مفرطة أدت إلى توقف العلاج والبحث عن بديل.

انهارت تماماً.. ومع كل انهيار لها تظهر تلك البقعة من جديد في منطقة أخرى.

رفضت مكالمة إيهاب في النهاية، وقالت أمها بأنها مريضة. كان سيُجن عندما اختفت مرة واحدة من حياته. اتصل بأمه وزارتهم، حزنت المرأة على ما أصاب البنت، وتمنت أن تبكي ولكن صلابتها منعتها من أن تذرف دمعة مواساة على حالها.

في المساء أبلغت إيهاب بكل شيء، نصحته بالنظر لعروس أخرى فالبنات أحسن منها في كل مكان، فهي مريضة بالبُهاق وانتشر في جسدها وبدا شكلها مرعبًا.

بكى يومها، وأخذ يرن على هاتفها بطريقة جنونية.. شد ما يُهلك حقاً أن ترغب في الشيء ولا تقدر على الإقدام عليه كي لا يسلب روحك أو ما بقي من روحك.

وبعد محاولات طويلة رأى أن يترك إليها رسالة يُعبر بها عما بداخله.

حبيبتي فريدة.

إن الجمال الذي نتمسك به هو جمال روحي لا علاقة له بالشكل مهما كانت مغالاة الشخص وتكلفه في مدح عين أو بسمة أو لون شعر.

كل الأشياء تزول مع الوقت ولكن ما يبقى حقيقة هو الحب.

لم أحبك لجمالك.. وإنما أحببتك لأني أحببت بكِ نفسي وعرفت طريقي إليها فيكِ.. فإن تَركي الآن يعني التخلي عنكِ وأنتِ في محنتك.

مر أسبوعان على آخر كلام لنا وكنا نتحدث كل يوم.

أظلمت الدنيا في عيني بعدما كنتِ بريقها. وانطفأت لِمَ أصابك، ولكني أعلم جيداً أني أحببتك بعيوبك قبل أن أنظر لمميزاتك. أحببت تلك الطفلة في عينيك، أحببت روحك التي تُخبرني دائماً أن هناك من يستحق حقاً أن نُغامر لأجله.

لن أتخلى عنكِ مهما قست الحياة.

فأنا أبحث فيكِ عن نفسي فلا تُصيبني في نفسك.. فتهجريني.

صَعب عليها الأمر.. لم تكن ترغب أن ينتقص أحد منها لِمَ أصابها. فشد ما يُهلك أن ترى في عيون من أحبت الشفقة لا الحب. فتتكس مرتين مرة في نفسك والأخرى في قلبك لأنك ناقص.

تمنت أن يُنهي كل شيء بقدر ما تمنت بقاءه، تمنت أن تُحارب وحدها كي تمر تلك الفترة. ولكن الصاعقة كانت أكبر من أن تمر بها وحيدة، فقد أصاب البهاق عينها اليسرى، فأبيض جفنها، وسُرعان ما انتقل إلى شفتيها، فضلاً عن أطرافها.

لم تكره نفسها من قبل بقدر ما أرهقها الفكر تلك المرة فكرهت نفسها ألف مرة.

ما أسوأ الحياة عندما تمنحنا كل شيء بالمجان؛ وتُحاسبنا على كل لحظة سعادة في الدنيا بحساب عسير مادته الفراق.

وعلى إثر المشكلة نشب نزاع بين فؤاد وزوجه في المحل قُبيل المغرب.

قالت جميلة:

– عليه أن يختار عروس غيرها.. البنت أصبحت معيوبة.

فقال في أسى:

– لا حول ولا قوة إلا بالله.

– عليك أن تقنعه.

– سينظر في أمر نفسه بنفسه وهو أعلم به.

– لقد أصبح كل شيء فيها غريب فقدت كل جمالها مرة واحدة.

فتساءل فؤاد في ضيق:

– الجمال؟ وما الذي يُعنيه الجمال عندما يُصبح كل منهما في مثل أعمارنا؟

فقالت وهي تلوح بيدها:

– ما الذي تقصده.. تقصد أني فقدت بريقي وأنا الذي تحملتك.

– بل أقصد أن الجمال يزول مع الزمن ولا يبقى سوى العِشرة والسيرة الطيبة بينهما.

فتمتمت محتجة:

– لكني أمه.. وعليه أن يستمع ليِّ.

– وأنا أبوه وأقولها لكِ أنه لن يستمع لأحد.. رأسه صلب لن يرغب في سماع كلمة واحدة لأنه يُحبها.

– الحب يُنسى مع الأيام.

– الأيام لا تُداوي وعكات القلوب.

– لكنها تبترها وتزرع بأخرى.

فأدار ظهره عنها وأخذ كبشة من علف وضعها في سلة للدواجن وهو يقول:

– فإن لم يرغب قلبه بأخرى.

– نحاول.

– سنندم.

–لِمَ؟

– تُنسى الأيام بالأيام، والأشخاص بالأشخاص، ويبقى هذا الجزء الذي لا يقنع بالنسيان بداخله يتألم ولا يلتئم.. سيتألم لدرجة كبيرة.

– لن يكون حساس لهذه الدرجة.. فلسفة فارغة

– اعتقد أنه كذلك.

– سيتركها عاجلاً أم آجلاً.

فقال في أسى:

– وهل انعدمت الرحمة في قلوبنا كي نأخذ البنت بذنب لم يكن لها دخل فيه.. إنه بلاء من الله، وعلينا أن نتشارك فيه، ولا نكن عبء عليهم نُثقل ظهورهم بل نسندهم.

– السند هو الله.

– ونعم بالله.. ولكنا أسباب في الدنيا.

– علينا أن نقنعه أيضاً.. أنا لا أرغب في هذا الزواج.

وصمتت لوهلة ثم استطردت:

– ألم ترى أمها كيف باتت اليوم بنت عاملة الجامع. ترفع رأسها بين الناس مُتباهية كأنها أول امرأة يدللها زوجها ويكللها بالمال.

نبت في قلب جميلة ناحية فاطمة عداوة عرفت طريقها مع ازدياد المرأة جمالاً فوق جمالها، على عكس جميلة التي شحبت وتشحب كل يوم وتزداد شحوباً، انتهى بها الأمر أن أصبحت صريعة الواقع بانعدام زيارة عادتها الشهرية فقد انقطعت، وهو ما بات يُثير في نفسها الحنق تجاه فاطمة التي يترعرع جمالها كأنها ابنة الثامنة عشر.

فقال فؤاد مُعاتباً:

– رفقاً بالناس.. لم ننته من المشكلة الأولى.. ثم ما لنا فيها شيء.

وقالت وهي تصرخ فيه:

– بنت عاملة الجامع نسيت نفسها.

كانت زبيدة أم فاطمة تعمل في المسجد دون حاجة منها لمال، ولكن تكليفاً بدور أملاه عليها ضميرها يوماً ما بعد وفاة زوجها؛ فوجدت نفسها في المسجد تخدمه وتكنس وتنظف مكان الناس، دون حاجة يسدها إليها أحد، ولكن لوجه الله أو للتطهر من ذنب في ماضٍ بعيد ظل يُلاحقها ولا يجعلها تغفر لنفسها.

فقال وهو يهز رأسه ضيقاً:

– وما لها عاملة المسجد؟ كانت تخدم بيت الله، وماتت ميتة لم يكن لها مثيل، تمنت القرية كلها أن تموت مثلها في يوم جمعة

برمضان وصائمة وهي تُصلي. مَن ينل ميتة كتلك في هذه الأيام.

- لكنها أسوأ مما نظن.

- لا تعيبي الناس وفيكِ كل العبر.

فضربت الطاولة إلى جوارها وهي تنهض في عصبية:

- حاسب على كلامك ودع اليوم يمر.

فوضع يده في جيبه وأخرج مائة جنيه وهو يقول:

- كام الحساب؟

- أتسخر مني.. تريد أن أجن.. حسبي الله ونعم الوكيل فيك.

فقال في برود:

- دعيني من ظنون السوء إذن.

فقالت في حسم:

- لن تتم تلك الزيجة.

- عندك ابنك أخبريه ربنا يتولاه برحمته منك.

كان فؤاد يخشى زوجته وتلك هي المرة الأولى التي يخرج عن سياق حياته التي حددته إليه طيلة عمرهما معاً، لم يكن يتطاول في الحديث معها، ولكنها أغضبته بكلامها وتجريحها في الناس الذين لم يُظهروا سوءاً ولم يُضمروا نية في غدر بابنهم وتلاعب بمشاعره، وقد عملوا ما أملاه عليهم ضميرهم فتجاهلوه ولم يخبروه بما أصاب فريدة بادئ الأمر حتى علمه من أبويه. وقال يُحدث نفسه:

لن نتركهم في محنتهم ونكون مع الزمن عليهم.

٢٨

عاد عطية ناصف عودة ليست مرغوبًا فيها من فاطمة.

عـاد هكـذا دون مقدمـات أو خـبر بعودتـه، ظنـت المـرأة أول الأمـر أنهـا إجـازة وسُرعـان مـا يعـود مرة أخـرى، ولكنه قـد عاد يـد أمامـه وأخرى من خلفـه يجـر خيبتـه. حتـى الهدايـا لم يحـضر أيـاً منهـا معـه. لم يكـن مُرحـب به في بيتـه لأول مـرة بعدمـا أخبرهـم بعدم عودتـه للسـعودية مرة أخـرى انطفأ هـذا البريـق في وجـه فاطمة تدريجياً.. كان قـد أعد كل شيء مُسـبقاً. لم تُصدق أذنها مـا تسـمعه.. قـال بعصبية:

– لقد ضربت مهندساً هناك حاول أن يتطاول على.

فتساءلت فاطمة في حيرة:

– بكل تلك البساطة؟

– بـل أعقـد مـن ذلك.. كان سـيتم الحكـم على بالسـجن لذلـك.. ولكن المهنـدس تسـامح في ذلـك عـلى أن يتـم ترحيـلي.. رحلـوني بعد كل مـا قدمته إليهـم مـن خدمـات.. أولاد الكلب.

– تُعني أنك لن تعود مرة أخرى؟

– كيـف أعـود بعـد أن خُتم الباسـبور ختـماً أحمر بعـدم دخول السـعودية مـرة أخرى.

لم تُصدق فاطمة كلامه، لم ترتح إليه، شعرت بخاطر في نفسها يُخبرها أنه يكذب، وأنه عاد هارباً من الغربة.. لم تر ما انكسر فيه إلا عندما أتاها هذا الخاطر، ولمحت نقصان وزنه الواضح وضوح الشمس.. لم تكن المرأة بجحودها ترغب في عودته، عودة لا معنى لها ستفقدهم مكانة اجتماعية لم يحلموا بها يوماً ما.

هدم كل الأحلام وكل الخطط.. أفسد كل شيء، لم يعد هناك من مال تدخر في حوزتها، ربما كفى لبضع أشهر تقتيراً، وكيف يحدث هذا وفرح فريدة على الأبواب في شهر تسعة، كلها شهر واحد وربما ينتهي ما خَزنته من مال.

استقبل الأبناء أبيهم بحرارة، رحبوا به، وفرحوا بعدم عودته مرة أخرى إلى السعودية، تعلقت فيروز في رقبته، ولم تتركه لحظة يغيب عنها. تأسى الرجل مما أصاب فريدة حتى دمعت عينيه ووعدها بأن فرج الله قريب، كان يتمنى أن يكون إلى جوارها في نكبتها، وكره الغربة أكثر وأكثر لِمَ رأه في عينيها من أثر الحزن وهي أكثر أبناءه شبهاً به. رأى في تلك المسحة من الحزن آلاماً كثيرة أرهقته، وبكى لها بروحه وتمنى أن تمر على خير .

في المساء.

أكلوا معا وفرحوا معا إلا شخص واحد لم يهدأ من صراع نشب داخله، أرقه لدرجة لم ينم فيها ليله، فاطمة.. تعلمت الجحود، وباتت تحسب لكل شيء حسابه، رفضته..

رفضته بكل ما هو فيه من هم لأجلهم وكانت هي أحد أسبابه.

اقترب منها في الليل يطلب ما افتقده في الصحراء، فكانت باردة في الفراش.

ليست تلك حرارة اشتياق ولقاء منذ أكثر من عام، احتياج امرأة لرجل يُهون عليها كل تلك الفترة، حاول أن يُداعبها بمعسول الكلام، لم تستجب، كانت استجابتها همس وأنات خافتة كي تُثيره فيُنهي ما تشمئز منه .

إن شعور الرجل بزوجته في الفراش ومزاجها لهو الأقرب لإحساسه، شيء لا يختلف عليه اثنان.. كيف يمضي في سبيل سعادتها وقد رسمت الحزن على وجهها عبوساً.

انتهى مما أقبل عليه وقام وهو يشعر بنار تغلي في جسده، نار اتقدت من زمن قَبل فيه بها، ورفضته في أخر أيام حياته.. انهار هذا الوثاق بينهما منذ تلك اللحظة فلم يعد يرغب في شيء منها، يعيش كي يرى أبناءه فقط.. يفرح معهم ولا يفرح دونهم.

في صلاة الجمعة بالمسجد تهللت أوجه الناس فرحة بعودته، واختلقوا حديثاً طويلاً مع الرجل عن السعودية وأحوالها وصرعوا بخبر عودته، لم يكن يتوقع أحد من القرية كلها عودة عطية ناصف في مثل هذا الوقت، ولكنهم توقعوا أن الرجل أصاب هدفه من نعيم الحياة الظاهر على أسرته في الأيام السالفة، وأيقنوا أنه من افتعل تلك المشكلة.. لأنه شبع.

وفي المساء أتى لزيارته صديق العمر غير المُرحب به السيد البرنس.

أتى فرحاً بعودة صديقه ولكنه قابله بوجه بارد وبسمة كلها تكلف، لم يكن يرغب في تلك الزيارة، وتمنى ألا يراه مرة أخرى.. كان عطية قد تحول في تلك السنة بمقدار كبير، لم يعد يُقبل على الحياة التي تركها من خلفه في مصر، لقد قتلت فيه الغربة إحساسه بالحياة وأجبرته على الموت، ولكن أملاً يُحيي داخله حياةً أخرى لم يرغب في أن يضع رؤوس أصحابها في الوحل.. أبناءه. ما ذنبهم أن يعيشوا منكسي الرؤوس من بعده؟ فكر في الانتحار لم يعد يطيق الحياة بكل تفاصيلها المملة. وعاد خائب الرجا.

هـل هـذا مـا تفعله الغربـة؟ أم أن خبراً نُقـل إليه في حلم أحـضره إلى مصر مُنكـسراً ومنطفـأً يبحـث عـن حقيقـة؟ إنـه كابـوس سيء بـل أسـوأ كابوس أتـاه.. قـد رأى طيفـه منـذ زمـن وتكـرر عـلى مسـامعه وظـل هـذا الطيـف يُطـارده ولم يقـدر عـلى الفـرار منه وها هـو يحضر المـاضي وكل الحـاضر دفعة واحـدة يهـدد مسـتقبله وحياتـه فيُلقـي به صريعـاً لرغبـات الغير.

٢٩

عاد إيهاب من السعودية، ولم يتردد لحظة لزيارة فريدة.

كان كل شيء في رأسه مُجهزاً قبل أن ينزل، حتى قاعة الأفراح كان قد اتصل بصديق له كي يحجزها، وحول إليه الأموال الكافية لكل شيء.

ستكون أمه أمام أمر واقع لا رجعة فيه، على الجميع أن يحترم رغبته في اختيار شريكة حياته، وإن لم تعجب أحد وكانت في أعينهم ناقصة، فهو يراها كاملة وهذا يكفي.

بكت فريدة عند لقائه، احتضنها أمام الأسرة كلها، وهو يبكي باسماً، وجلسا على السفرة التي أضافتها فاطمة للشقة في الفترة الأخيرة بعدما جددتها.

وقال في حماس:

– سيكون كتب الكتاب بعد جمعتين من الآن يا عم عطية.

– ولكنا غير جاهزين.

– اعتقد أن اسبوعين كفيلا بكل شيء كي تُعدوه.. الأمر لن يحتاج منكم شيئًا.. مجرد كتب كتاب لا أكثر.

– يا بني أنا أعلم أنك رجل من ظهر رجل.

وصمت لوهلة وقال آسفاً:

– لكن أمك لا ترغب في ابنتي زوجة لك.

فقال في ثقة:

– أنا من سأتزوج وليست هي.

– ولكن ابنتي ستكون عندها.. وأنت ستتركها وتعود للسعودية وأمك لا ترحم.

– سيكون كل شيء على ما يرام فلن أسافر مجدداً.. أنتم لستم غرباء فقد ضغطت على نفسي في السنة الماضية ووفرت مالاً وفيراً يضمن ليِّ حياة سعيدة في مصر سأفتح بها مشروعاً وأدع الباقي في بنك أو في شركة استثمارية تُدر على مرتب شهري حتى أوسع من تجارتي.

فقالت فاطمة وهي ترفع يدها للسماء داعية:

– داعيا لك يا إيهاب.. ربنا يكرمك ويعطيك.

فقال إيهاب:

– المهم أنكم موافقون.. أبي ليس لديه مانع، الموضوع كله في أمي، وسأقنعها بطريقتي فهي سعادتي على أي حال.

فقال عطية:

– الله الموفق والمستعان.

– نقرأ الفاتحة على ذلك.

ورفعوا أيديهم قارئين الفاتحة باسمين.

وعين فريدة كلها تطلع لوجه إيهاب الباسم، لم تر تلك المسحة من الشفقة في عينيه كغيره حتى أهلها ينظرون إليها بشيء من الشفقة لا الحب، وبالأخص نظرة أمها الشاردة في بحر من الظلمات دائماً منذ عودة أبيها، لم ترها هكذا من قبل، كان الفِكر قد سيطر على عقلها تماماً فما ترك لها مجالاً لواقع تحياه، وإنما شرود تام.

قبلوا أيديهم بعدما تمتموا آمين.. واستأذن إيهاب أن يجلس إلى فريدة قليلاً قبل أن يُغادر، وتركت الأسرة مجلسها إلى غرفة أبيهم محاولين فهم ما يحدث مُتشاورين فيه.

٣٠

كانت الفرحة عارمة.

القرية كلها ابتهجت لهما.. لم يحزن سوى الحاقدين الذين رغبوا في إيهاب لبناتهن، واستكثروه على فتاة معيوبة بمرض أفسد أكثر ملامحها فأفقدها بريقها.

ولكن الفرحة عرفت طريقها لقلبيهما فابتهجا بها، ونقلها إيهاب بحبه إلى جنة الدنيا التي يصل إليها فقط مَن صدق بحبه.

كانت على ما أصاب وجهها من البهاق جميلة، رغم أن الكوافير لم يتكلف في تزيينها، فقط تلك البقعة في أنفها التي واراها وبعض من الكحل في رموشها وتدرجت أجفانها بدرجات من المكياج غلبها السواد. أما إيهاب فكانت بدلته البيضاء مع شعره الأحمر وبسمته الناصعة التي لم تُفارقه طيلة الفرح هي ما حسده عليه الناس.

كان ممسكًا بيدها طيلة الوقت، يَمدها بالقوة ويقول بلسان حاله: أنه لن يتخلى عنها مهما كلفه الأمر. كانت سعيدة لدرجة أنها بكت في منتصف الفرح وهي ترقص لجواره، فأحتضنها، وتركت على قميصه أثراً من كحل عينيها التي أفسدته الدموع، ولثم جبينها فهدأ من روعها وعادت إليها بسمتها. وظلت طيلة الفرح مُعلقة عينيها بعينيه لا ترغب في البعد عنهما. فبَنَت بهما مسكناً صغيراً لنفسها ترى فيه انعكاس روحها كلما خذلتها المواقف.

القاعة كانت تعج بالناس من كل القرية، فالكل يعرف بعضه فيها والكل مرحب به في الفرح.

عزم فريد أصدقاءه، أتى إبراهيم ولم يأتِ سليمان كما توقع من قبل، ولكنه قام بما عليه فعله، فعزمه. لم يتحدث إلى نغم منذ زمن وآخر خبر عرفه أنها لا تزل بأمريكا، حتى لو كانت هنا لم يكن ليُفكر في عرض الأمر عليها كي لا ينتقص منه الناس بهيئتها المُتحررة من كل العادات والتقاليد.

رأى نور تبتسم له لأول مرة، انشرح صدره، وبات متهللاً كالمجنون وظل يبتسم طيلة الليلة ولم يُفكر سوى في بسمتها.. وظن أنها تبتسم مجرد بسمة عادية بين أبيها وأمها وأخيها، حتى عاد مرة أخرى يختلس النظر إليها فاصطدم بعينيها فابتسمت مرة أخرى.

لم تسعه الفرحة وظن في نفسه الجنون.. وما أعظم جنون الحب عندما يكون كله بسمات.

جذبته في نصف الفرح من بدلته وفاء البيباني، وأخبرته أنها أخبرت نور بحبه لها.

حاول أن يتظاهر بعدم الفهم، ولكن جرأة وفاء المعهودة جعلته يُقر في نفسه بكل شيء ويعترف لها.

كان فريد قد صارح فريدة منذ زمن بحبه لنور.. كان مجرد كلام عابر ولكنه مضى عليه زمن، ولم يكن يعتقد أن أخته تتذكره، ولكن وقع المفاجأة عليه زاده من الفرحة، إذ أنها علمت اليوم أن هناك من يُحبها حقاً.. قصروا عليه مسافات طويلة كان سيُعاني فيها.

وأخـذ يُفكـر.. ربما رفضـت نور الذيـن تقدمـوا لخطبتها؛ لأنهـا تُفكر فيه، وليـس مجـرد رفض كمـن زعموا بأن الأهـل لم يوافقوا لأنهـا لا زالت صغيرة.

كاد الجنـون يبلـغ بـه محلـه فيدنو مـن طاولتهـم ويخبرهـا بحبه أمـام أهلها ويعـرف مـا في صدرهـا تجاهـه، كان يتمنـى أن يمسـك الميكرفـون ويـصرخ بأعـلى صـوت بحبه.

ولكن هيهات أن يجسر على أكثر من نظرة واحدة.

كانـت فاطمـة مزدانـة كعـروس يتجـدد زفافهـا، أثنـي عليهـا الجميـع، وحقـدت عليهـا جميلـة لِمَ هـي فيـه مـن جمـال، بـل حقـدت عليهـا كل نسـاء القريـة مـن فـرط جمالهـا. وكان يراقـب خطواتهـا مـن رأى أنهـا تزينـت لـه، السـيد البرنـس الـذي ظـل يُطاردهـا في حلمهـا وواقعهـا، وكان هـو تلـك النقطـة السـوداء في حياتها. تمنـى أن يضمها لصدره وتمنت هـي الأخرى ذلك عندمـا مـد يـده مُبـاركاً في حـرارة، وتركت تلـك الضغطـة في يدها إحساسـاً بالرغبـة فيـه بأكملـه، وما تركتـه في يده مـن رائحتها انتشـى لها عقلـه، وذاب فيهـا فـؤاده، وتمنى أن يخـرق كل قواعـد العُرف في تلـك اللحظـة فيجني ثمار حبـه إليهـا مهـما كلفـه الأمر.

لقـد أحـب السـيد البرنـس فاطمـة حبـاً شـديداً، وتلك هـي المـرة الأولى التـي يرغـب فيهـا في امـرأة لأنـه يُحبهـا، وليـس بدافـع شـهوته العارمـة التي يتصيـد بها النسـاء مـن كل مـكان، فلـه في كل محافظـة كان يعمل فيهـا ذكرى سـيئة مـع أكثـر من امـرأة وفتـاة، على كبر سـنه ومـا يبدو فيـه إلا أن له لسـاناً عجيبـاً وبسـمة لها سـحرها الخاص في جذب النسـاء الفاقدة للحيـاة- ناحيته بطريقـة مُرعبـة يقلـق لها كل صاحـب بيـت، إذ أن بعض النسـاء تضعف أمام النـزوات المُجملـة بالعواطـف والكلمات.

بدا عطية واجماً من الداخل يبتسم بسمة باردة خالية من الفرحة.

يبتهج حيناً ويعبس حيناً وبين الفينة والأخرى يشعر بالضيق؛ فيُشعل سيجارة يُنفث فيها عصبيته، لم يكن يُدخن من قبل، ولكنه منذ عودته وقد أقبل على السجائر بشراهة، فلا تكد تقترب منه حتى تشتم رائحته، وترى لون يديها المصبوغ باللون البني الكريه.. فتشمئز.

انتهت الليلة في سلام وكان يوماً لطيفاً لم ينساه أحد في القرية كلها. وغرد العصفورين في سماء ليس فيها سواهما.. مليئة بصدق الحب والنوايا.

٣١

لمست كتف فاطمة هامسة، فاستيقظت محاولة التغلب على النعاس. تبحث عمن أيقظها، ظنتها فيروز في حاجة لها بعدما تركتها فريدة، ربما أتتها متخوفة من النوم وحيدة، ولكن شيئًا لم يكن، لم ترى إلى جوارها إلا عطية يسبح في سماء بعيدة نائماً.

والتفتت فإذا بأمها جالسة على كنبة في نهاية الغرفة مقابلة للسرير.

تجلس في عباءتها السوداء التي ما استبدلتها بغيرها منذ وفاة إبراهيم خليل زوجها، ومن حولها قطط كثيرة، كانت تلك القطط تُربيها في حياتها، تصحبها معها أينما حلت حتى مسجد الصالحية كانوا يذهبون معها إليه، وانقطعوا عن شقتها بموتها.

قامت فاطمة تهتدي بنور أمها وجلست إلى جوارها متخوفة مما ستُقبل عليه الأم.

صمتت زبيدة لوهلة، وأمسكتها من فخذها وقرصتها كلدغة أفعى ولم تتركها إلا وجلدها بين يدها، وقامت لتلطمها غير أن فاطمة جرت ناحية ركن الباب فأفلتت من بطشها، وحاولت أن تفتح الباب هرباً، ولكنه كان مُغلقًا من الخارج، لم تقدر على الفرار، واقتربت الأم منها، وارتعش جسد فاطمة وانتفض، ولكنها تلك المرة ضمتها إلى صدرها في حنو لم تعهده من قبل، وقالت وهي تربت على كتفها:

– إن لم تُنصفك اختياراتك مُسبقاً فعليك أن تُحددي مصيرك الآن؛ حتى لا تعيشي بألم لن يُفارقك مدى الدهر.

فتساءلت وهي تُبعد أمها:

– أي مصير يا أمّه؟

– أنتِ تعلمين ما أقصده.. لا تعيشي مثلي لا زال أمامك وقت كي تفري من واقع أليم.

– الواقع الذي سأفر إليه سيكون أكثر مرارة.

– سيعتاد عليه الجميع.. أنت نفسك ستعتاد عليه مع الوقت.

– وأبنائي.

– لن يغفروا لكِ إن كان الشيطان بينكِ وبينهم.

– بل لن يغفروا ليّ أبداً.

– إن الخطيئة لا تُغتفر ولكن الخيارات مهما كانت خاطئة ستمر ولن تحتاج لغُفران بل لعاقل يقننها.

– الفرار أصبح صعباً.

– المواجهة قد تكون أسهل إذن.

تذكرت فاطمة ما عانته أمها بعد رحيل أبيها، وما فعلته زبيدة حينما وضعت رأسه بالوحل، عندما علم بحبها لرجل غيره منذ أكثر من عشرين عاماً، وكيف حاول أن يُحافظ على سُمعته ولم يُطلق لأجل فاطمة رغم شكه في نسبها، تذكرت كيف ازداد ضغطه حتى أغلقت عينيه تماماً فما عاد يرى، ولم يمر أسبوع إلا وهو صريع.. مات يُكابد الآلام الخيانة بالفِكر، وحاولت الأم أن تتطهر من إثمها فظلت تخدم في المسجد باحثة

عن شيء يُنجيها وتعتصر قلبها كي تصل لنتيجة مُرضية إنها ليست السبب في قتله، وأن الموت أجل أينما حل ما كان منه مفر.

ما أشبه قصص الأمس باليوم، حتى تلك الدناءة يورثها لنا آباءنا.

كأن ما في كتابنا جزء مما في كتابهم.

فتساءلت في ريبة:

- أي مواجهة؟

فقالت زبيدة وقد تجهم وجهها كثيراً:

- مواجهة ذاتك بحقارتها.

- وبماذا استفيد؟

- لن تخسري أكثر مما ستخسرينه لو عُرفت حقيقتك.

- سأجن.. أي حقيقة؟

فقالت وهي تتجه ناحية الباب:

- انتِ تعلمين كل شيء.. فقط تصالحي مع أخطائك قبل أن تُعانقك ولا تترك فيك أثراً نقياً إلا دنسته بذنب.. فالآثام لا تُغتفر أما القرارات الخاطئة فيُداويها الزمن.

ورحلت.

استيقظت فاطمة من نومها محاولة السيطرة على أنفاسها، وهي تتحس جسدها لتتأكد أن روحها لم تُأخذ.. ونظرت في الغرفة محاولة البحث عن طيف أمها في تلك الظلمة وما وجدته، وألقت نظرة على عطية فكان في دنيا الأحلام يعبث بواقعه، تمنت للحظة أن ترحل من جنبه إلى ما ترغب، ولكن الواقع كان أقسى من أن تُفكر حتى في مجرد رحيل.

وتمسكت بما في نفسها.. وحاولت أن تُمرر كلام أمها إلى عقلها باحثة فيه عن حقيقة ذات معنى.. عندما تأتي الفرصة ستُحل كل المشكلات.

ولكن الوقت بين إتيان الفرصة وسنوحها وما تعيشه هو المرار بعينه.

لن تقدر على التحكم بقلبها ولم يعد مِلكها، لقد غادر منذ زمن بعيد، ولم تعد تقدر على السيطرة عليه. وقد يقتلها هذا الأمل الشيطاني بسم الحب وتتجرع الآمه فتخسر كل شيء. ولكنها حاولت أن تطرد هذا الخاطر من رأسها، وما بقي سوى صراع أبنائها لا يجد من يُلقي به جانباً.

٣٢

انهارت الحالة الاقتصادية للبيت.

كل المال الذي ادخرت فاطمة في الأيام السالفة قد صُرف. لم يجد عطية عمل، المشاريع كلها مُعطلة لأن مصر تمر بأزمة داخلية.

ولم يبقى سوى ذهبها أخذت تُقلب النظر فيه، ولم تعد تقدر على التمييز إما أن تبيعه أو تستلف مالاً من سناء الخواجة أو غيرها. عطية ما عاد يُفكر في شيء منذ أن عاد، حتى ماله الذي كان معه انتهى إلا قليله.

فكرت فاطمة في العودة للمدرسة مُجدداً ولكنهم كانوا قد أصدروا قراراً بهدمها، بعدما أخلوها وتم نقل الطلبة منها إلى أم المؤمنين، وحتى لو عادت، هل ستقبل بالإهانة مرة أخرى؟

إن المركب التي تقف مكانها تتوه، وفي النهاية تغرق ويموت كل من عليها .

والتنازلات وقود الحياة الذي يدفعها ناحية إكمال مسيرتها وإن لم تُعجبك، فماذا قدمت اليوم كي تعيش غداً؟

لا بئس اليوم ببعضها، حتى تسير الأمور.

قالت لعطية مُقتضبة:

– سأعود للعمل بالمدرسة مرة أخرى.

فنظر إليها في برود باسماً وهو يقول:

– أما أفسدت كل شيء بغبائك؟

فأشارت إلى صدرها فزعاً وهي تسأل:

– أنـا؟ أنا مَن عدت من السـعودية كالأطفـال فراراً من الغربة ووحشـتها واخترعـت قصة لا يقبلها عقـل طفل صغير.

وأردفت مشيرة بسبابتها للأرض:

– أنا من أُضحي في هذا البيت كي تسير السفينة ولا تَغرق بنا جميعاً.

فقال باستهانة:

– ليتها تغرق ونرتاح.

– إن كنت ترغب في الموت فمُت وحدك.. نحن نُحب الحياة.

فقهقه قائلاً:

– الحياة.. الحياة معكِ جحيم.

– يبدو أنك أصبت في عقلك.

فأرتفع صوته مُزمجراً:

– على الحرام من ديني إن لم تحترمي نفسك ما مر هذا اليوم عليك بخير.

–أتحلـف عـلى؟ فلتبحـث عـن عمـل إذن وتُريني كيـف تحكـم البيـت بقبضـة مالـك دون أن نمـد يدنـا.

– ألسـت مـن أسرف في المـال بغبائـك، مـا فائـدة هـذا الفـرش الجديـد، وهـذا الطـلاء، وشـقة فريـد.. لِم العجلـة، أليـس من حقنـا أن نعيـش ونتدبر

أولاً.. مَـن الـذي فسـد الحياة على من. ثـم إنك امـرأة ولم تعرفي معنـى الغربة وأنـتِ بـين أبنائك تبتسـمين.

فقاطعته في حدة:

– الغُربة عرفتها معك.

– إنكِ أسوأ سجن.

– وأنت أسوأ واقع نعيش فيه.

قـام عطيـة من مجلسـه واقـترب منهـا بجسـده الهزيـل، فوقفـت مُتحدية، فاسـتدار ليُعطيهـا ظهـره، وباغتهـا باسـتدارة ونـزل بكـف يـده عـلى وجهها فأدمـى فمهـا من أثـر اللطمة، فلـم تبك، ومسـحت بظهـر يدها الـدم الفائر، ورمقتـه في بـرود وهـي تقول:

– أول الشـهر اقـترب، ومصاريـف ابنك الدكتـور تزداد كل عـام.. فإن لم ترغـب في البحـث عن عمـل فواجهـه إذن بآثامك.

ورحلـت مـن الغرفة تسـتنجد بغرفـة فـيروز الغارقة في النـوم وتركت من خلفهـا رجـلًا مهزومًـا، لم تعرفـه، ولم يتعرف هو على نفسـه في هذا الشـخص البليـد الفاقـد للحيـاة وكل أنـواع الشـغف، الهش الرخـو الذي ما عـاد هناك هـدف في حياتـه سـوى المـوت، وإن أقبـل عـلى الانتحـار فلـن يقبلـه.. لـن يقبلـك المـوت ولم تقبلـك الحياة.

٣٣

اقتربت نغم من فريد.

تتوجس خيفة، تتقدم خطوة وتعود بداخلها أخرى، وبين إقدام وإدبار صراع داخلي يدفعها لترتمي في صدره وتبكي. كان يجلس وحيداً، كما اعتادت، ولكن على وجهه بسمة رضا وفرحة مستترة خلف بريق عينيها، شجعتها.

فتساءلت معاتبة:

- ألم يكف كل هذا الخصام؟

فنظر إليها ولا زالت البسمة على وجهه، وقال مشيراً لها بالجلوس:

- تفضلي أولاً.

جلست نغم إلى جواره، لم تكن تعتقد أنه سيُرحب بها، كان هناك خاطر يجول برأسها يُرعبها من فكرة الاقتراب منه منذ آخر مرة، رغم ما تمنته من لقاء حقيقي.

واستطرد فريد:

- هه يا نغم.. أي خصام؟

فقالت واضعه إبهامها وسبابتها على ذقنها:

– اعتقد المرة الأخيرة منذ شهور ونحن لم نتحدث.

فقال متحججاً:

– الامتحانات والإجازة.

– ليس عُذراً.

– يُرضيكِ آسفاً؟

– إن لم يكن عن قناعة فلا معنى له.

فتساءل ضاحكاً:

– ولِمَ لم تسألي أنتِ إذن؟

– لأنك الولد.

فقهقه قائلاً:

– أنتِ أمريكية.. حتى الأمريكان عندهم نفس الأزمة.

فقالت مُتحدية:

– أنا مصرية أبًا عن جد.. مهما عشت بأمريكا.. فالطبع غلاب.

– الطبع غلاب.. هذه هي النقطة.

وصمتا لوهلة واستطرد فريد:

– أتعرفين يا نغم.. أنتِ الوحيدة التي اخترقت حياتي واخترقتُ حياتها، لم أكن أعرف فتاة واحدة قبلك اللهم إلا واحدة.. لكني احترمك وأقدر ما بيننا من صداقة، مهما كان الاختلاف بيننا فستظلين أقرب الناس ليّ.. لأن الموضوع ببساطة أنني لا أعرف أحد في هذا المكان غيرك، ولم اعتد أن يكون ليّ أصحاب من بعد فترة الحضانة وأوائل الابتدائية.

انفرجت أساريرها، وتبسمت وحاولت أن تُخفي تلك السعادة في قلبها، ولكن بريق عينيها كان ألقًا كفايةً كي يفضح سرائرها، وتورد خداها من شدة الارتباك. كأي فتاة عند سماع مدح في حقها مهما كانت قوية أو تُظهر من البلادة في مشاعرها ما يجعل الجميع ينفر، لكنها في لحظة تسمع كلمة واحدة تُرضيها من شخص تُحبه أهون عليها كثيراً من تلك القسوة التي تُظهرها.. فتلين.

وأردف قائلاً:

– وسامحني إن قصرت في حقك.. ربما يكون انشغال مني أو خيانة تعبير عما بداخلي.

فتبسمت من الفرحة قائلة:

– لم أكن أعرف أن ليّ كل هذا القدر داخلك.. ولن أغضب مرة واحدة منك بعد ذلك طالما عرفت ما تُضمره.

– أتمنى ذلك.

ومرت دقائق وهما جالسان هكذا، تسترق نغم النظر إليه من حين لآخر بطرف عينيها، محاولة معرفة إن كان يُبادلها تلك النظرات ولو حتى بنبض داخلي يُضمره فستشعر به.

قالت في حماسة:

– ما رأيك أن تقبل عزيمتي على الغداء اليوم؟

فهمهم، وتمتم قائلاً:

– على شرط.

– تفضل!

- أن يكون على حسابي.

فالتفت إليه وهي تقول:

- ليس هناك فرق بيننا.. مرة على ومرة عليك.

- أنا الرجل.

فقالت مداعبة:

- رجل شرقي صح!

- ممتازة.. الطبع غلاب!

فضحكا، وقالت:

- ليس هناك مشكلة.

***

كانت الساعة السادسة مساء.

البحر يحتضن السماء، والأفق البعيد يلوح بشمس قانية تُداعب صفحة الماء باسمة، تنشر لحظات سعادة تُجبر التُعساء فيها على الاستسلام للفرحة. دائماً هي الإسكندرية بصيفها وشتاءها، هي ما تجمع القلوب المُشتتة رغماً عنها، بجوها ولطافة نسيمها لحظة الشروق والمغيب.

إنها المرة الأولى التي يدخل فيها فريد سان جوفاني، أو بمعنى أصدق إنها المرة الأولى التي يقتحم فيها طبقة لم تكن له، عرف معناها بمعرفة نغم، وطرق بابها دون إذن مُجبر على ذلك لأنها من وقعت في طريقه ولم يرغب هو في ذلك.

ويعلم جيداً أن غداءً كهذا سيُكلفه نصف شهريته تقريباً إن لم تكن كلها، ولكنه لم يعتد في حياته الهزائم أو التراجع، ولم يشعر بالخزي في

حياتـه مقابـل المـال إلا في لحظـات انتكاسـته في آخر الشـهر عندما يجـد طفلاً يمـد يده في الشـارع، ولا يجـد في جيبه سـوى مواصلاته التي تقلـه إلى البيت، فيُضنـي بهـا عـلى نفسـه ولا يُخرجها.

دائـماً وأبـداً الفقـر هو مـادة التعاسـة مهـما أظهر الغنـي كَم الضيـق الجاثم على صـدره مـن المال.

طلب فريد بيتزا ورأت نغم أن تُشاركه رأيه فطلبت مثله.

كانـت الطاولـة عـلى البحـر، يبـدو مـن النافـذة الزجاجية كوبري سـتانلي عظيماً .

أمـواج البحـر تتكـسر عـلى قواعده، يصل للشـط مـن صارعـت كل تلك الظـروف كـي تصل. كمـن حاول التمسـك بك مهـما صرعته الحيـاة، كالموج يُغالـب الريـاح ويقفـز فـوق موجـة ويـضرب أخـرى ويبطـش بقوتـه كل الظـروف التـي تمنعـه حتـى تصـل لمبتغاهـا ولـو كان فيهـا ركودهـا ومـن ثم موتهـا على الشـاطئ.

كسر هذا الصمت فريد قائلاً في بلاهة:

– كنت أتمنى أن أجلس هنا يوماً ما وأنا إلى جوار من أحب.

تبسمت نغم لِمَا تركت الكلمة في نفسها من أثر.

وأردف فريد بحماسة:

– أأصارحك بشيء؟

فتهلـل وجههـا. ولكـن سـياط مـن لهـب دفعهـا، فـما كادت تُغالبـه حتى تقهقـرت وانهـار مـا بداخلهـا في لحظة.

وقالت مُشجعة:

– قُل قُل.

– أنا أحب.

– مَن؟

– القصة ابتدت منذ زمن بعيد.. اعتقد أنها منذ أكثر من اثنا عشر عاماً.

ابتلعت نغم ريقها، وحاولت أن تغلب تلك الغُصة في حلقها التي كادت أن تغلب روحها فتقتلها.

واستطرد فريد كمن يحكي لأمه قصة حبه الطفولية وهو لم يبلغ بعد العاشرة:

– اسمها نور.. نور الخليلي.. تسكن في منطقتنا، لم أتصور يوماً أن تلتفت ليّ أو تعرف ما أخبئه لها في صدري. ولكن فريدة أختي بنت (اللدينة) قد اخبرت صديقتها وفاء البيباني التي بدورها قالت لها. لم أكن أتصور أن يصل بي الحال يوماً لأكون لجوارها بكل هذا القرب.

كانت الدموع تغلي في محجري نغم، تَمنت أن تبكي ولكنها تحاملت كي لا تُفسد الأمر على نفسها، حاولت أن تُسيطر على مشاعرها ولكنها غلبتها، فبدا جسدها ينتفض، وحاولت السيطرة عليه فبدأت تهز قدمها اليسرى بعنف.

وأردف فريد بحماسة:

– صحيح لم أعرفكِ على أختي.. فريدة.. تزوجت في الإجازة، هي تُشبهني كثيراً إلا أن شعرها ذهبي مثل أبي.

وأخرج هاتفه من جيبه وأراها صورتها، وبدأ يُعرفها على أفراد عائلته، حتى أتت صورة عائلية لهم جميعاً، فأعطاها الهاتف وهو يقول:

- نحن هنا كلنا.

فأخذت الهاتف منه وقد تعرقت يداها، وما تدري إلا وهي تُقرب الصورة لبسمته وتنظر إليها في شاشة الهاتف. وأعادتها وأعادته له.

تبسمت وهي تُغالب نكبتها ونكستها في ضياع حبها. تمنت أن يُزال كل ذلك وترحل لتوها، تمنت أن ينتهي كل هذا الهراء وتعود من حيث أتت.

ليتني ما جئت إلى هنا.. أي صراع هذا الذي أقحمت نفسي مع أمي فيه لأجل مصر.

هو المصير.. النصيب؟ بل نكبتي وبلائي.

أتت البيتزا برائحة عجينتها تفتح النفس وتملأ الأمعاء الفارغة.

فقالت نغم وهي ترحل:

- عن أذنك اغسل يدي وأعود.

- تفضلي.

لم تكد تُغادر الطاولة حتى انسكب الدمع من عينيها كشلال ماء انتظر فتح مصبه.

وهرولت إلى الحمام وأغلقت الباب وحاولت أن تتمسك فغلبتها الدموع فانهارت، وحاولت أن تنتصر على نفسها مرة أخرى بأن تكتم صوت نحيبها ولكنه صرعها فبات الصوت يقوى، وهي تكتمه بيدها، حاولت أن تتمالك أعصابها وأسندت جسدها على راحتها وقامت، تغسل وجهها، ومع كل قطرة ماء دموعاً تجري على خدها.

حتى سيطرت في النهاية على ما بقي من قوتها، ونشفت وجهها، وأخرجت قلم الإيلينر ورسمت عينيها كي لا يبدو الوضع أسوأ مما هو عليه .

ولكن الدموع لا تُخفى، وأثرها يظهر ولو طمسته العين، فالوجه يتحدث.

لاحظ فريد تغيير ملامحها، فتساءل في حيرة:

– ما لك؟

فقالت قاطبة:

– بعض المغص.

– لكنك لا تبدين على ما يُرام.

– ليس هناك شيء.. يحتاج فترة وتمر.

ثم وهي تصطنع ابتسامة:

– أنت تعرف.. تعب بنات.

فوارى بسمته خجلاً، وأخرج من طبق أمامه شوكة وسكينة وهو يقربهما ناحيتها قائلاً:

– تأخرت في الحمام.. كنت سأقوم لأراكِ.

– الحمدالله ليس هناك شيء.

فتمتم:

– الحمد لله.

انتهيا من الأكل دون كلمة واحدة.. تركت نغم نصف بيتزتها، وترك هو لأصول الإتيكيت قطعتين ونصف في طبقه. ما إن انتهوا حتى أتى ليمون كان قد طلبه بعد الأكل مباشرة.

فقطعت نغم هذا الحبل الممتد بأعماقها من التفكير مُتسائلة:

– ومَن هي نور.. لم تُخبرني.

رشف من كأسه رشفة بالشاليموه. وقال بنفس الحماس الأول:

– كنت أعرفها من الابتدائية.. ولكن لم أجسر يوماً على مصارحتها بكلمة واحدة. كنت أخشى ذلك.. ولا زلت أخاف الاقتراب منها ومصارحتها بكلمة واحدة. يعتقد البعض فيّ الجنون إن رأوا ما كنت أمليه على نفسي في خلوتي لها. ولكني أعلم أن الحب الصادق ينتهي بصدق دائماً إن لم يفتعل المرء كذباً.

فتنهدت نغم.. وأتتها نوبة الضيق مرة أخرى، ولكنها رفستها بعيداً تلك المرة كي تستمع، كي تعرف كل شيء هذا اليوم فتضع لنفسها نهاية. وما أقسى النهايات التي يصنعها المرء لنفسه بدافع الحب، إما تراجع فيه موت، أو قبول فيه مهانة.

وتساءلت في أسى:

– ولِمَ لم تُصارحها؟

– لأنني أخشى أن أتكلم معها ولو بكلمة واحدة.. أخشى منها هذا البريق الخافت في عينيها أن ينطفأ لو خذلتها.. الماديات لا تسمح أن أتقدم لخطبتها الآن. ولكل قصة حب نهايتها ولابد أن تكون الزواج وليس مجرد كلام في الهواء.

– ولكنها علِمت بحبك.

فقال يهز كتفيه يأساً وهو ينظر للبحر في ظلمته:

- لكني لا أجد الشجاعة الكافية التي تجعلني أقف أمامها.

- إن علمت بحبك فلن تجد هي مانع من أن تُحدثها بل ستفرح بتلك الخطوة.. لا تُفسد الأمر على نفسك.. البنات تحببن الشجعان، اذهب وصارحها.

شعرت بأسى شديد، وقلبها يبكي دموعاً وهي تدفعه ناحية حب لم ترغب به وتخسر حبها كي لا تخسره.

إن هزيمة القلب في معركة الحب ليست تلك التي يعترف بها، وإنما ما يُضمره فيقتله ألف مرة كل يوم، ولا يجسر على النطق به.

تباعدت المسافات بينهما، على الأقل بالنسبة لفريد، أو علَّه هو لم يقترب منها، ولكنه مهما ابتعد عنها فأقصى بعد له ألا يُغادر قلبها.

فقال فريد وهو يبتسم:

- سأخبرها في أقرب وقت بإذن الله.. لا أعرف كيف أشكرك.

- لا تشكرني.. سأفرح لك جداً عندما أراك سعيداً بجوارها.

ثم قالت وهي تقوم:

- ألسنا أصدقاء.

وترك فريد الحساب على الطاولة ورحلا.

أوصلته سموحة وعادت هي إلى كفر عبده.

لم يهدأ عقلها من التفكير، وظلت طيلة الطريق صامتة واجمة، ترد بهمهمة إن سألها عن شيء وتحاول أن تُغالب هذا اليأس والحزن في صدرها حتى البيت.

في الفيلا سينتهي كل هذا، أمام شجر الليمون، ورائحة البرتقال وأصص الأزهار.

ستعطف الوحدة على أفضل منك.

مؤكد تلك الغرفة في ظلمتها أحن على من قلبك فهي تحويني بظلمتي ودموعي، وتشاركني أفراحي وأتراحي وليَّ فيها مكان وليس بقلبك ركن باسمي.

أي حماقة تلك التي يدفع المرء بنفسه فيها.. أيُصارع الهوى وهو هواء؟

أنا أغبى إنسانة بالدنيا.

لن يلتفت.. مؤكد لن يلتفت لحُطامي، وسيتركني هكذا. أنا أحق به منها.

لكني لن أمِل.. إن قلبي لا يمل طريقاً نهايته أنت.

أتدري أيها الأحمق؟ أتدري كم أحبك؟

يبدو أنني تعلقت بك بالقدر الذي لا ينفع فيه تراجع ولا نفور.. لقد أحببتك.

٣٤

إن الحزن ليس باباً يُخير الإنسان في طرقه.

فينفتح على مصراعيه لتلفحك الدموع فتبكي.. وإنما هي حالة ينخرط المرء فيها عندما تضيق به الدنيا ولا يجد سبيلاً يحتوي قواه فينهار ضعفاً. ولا يقدر على الخروج منه عندما يُريد، فالإرادة تنصاع لروح سلكت طريقاً لاقت نفسها فيه.. وليس كل حُزن يُعبر عن ضيق يخص صاحبه، إذ يرتبط أحياناً بمقدار إنسانيتك على التأثر بموقف أو رؤيتك لشخص أهلكته الحياة أو إحساس بالعجز في تغيير الأمور.

وترغب في الصراخ قائلاً:

- لست كئيبًا ولكني إنسان.

والدموع التي نظن أنها تُنقي هي ما تُهلك حقاً.. كأن الإنسان يخترع أسباباً لتعاسته من مبدأ إني لا أكذب لكني أتجمل. فيقول: إن الدموع تُريح. ابك إن أتيحت لك الفرص وإن لم تُتح.

وتلك الدموع ما هي إلا إنهاك للقوى، وطرق باب مؤلم يكسر في النفس قوتها، ويُرهق الروح ويقضي على الفؤاد، فلا يترك أثراً داخلك إلا ولمسه. فتستسلم لنوم عميق في النهاية وتلك هي الراحة. وعندما تسترجع شريط حياتك في لحظة سُكر من الدموع تجد أن الأشياء التي كسرته الدموع داخلك لا تُصلح، وإنما تركت شروخاً مشوهة لن يُعالجها الزمن.

جاء قرار بإزالة مدرسة الصالحية، إذ كانت تميل إلى الانهيار.

كان ذلك في إجازة نصف العام. تم نقل الطلبة إلى مدرسة أم المؤمنين بحكم أنها الأقرب. وعادت الريح تعصف من جديد فتُثير أيام الماضي بعنف لا رحمة فيه.

كان لقاء فيروز بينهم في أول يوم لقاء أعين ملأتها الرهبة والضعف. تمنت أن تنشق الأرض وتبلعهم، أو تنقلهم من هذا المكان بإعصار يكونوا في أسفله مُعذبين. مرت ثلاث بنات برؤوس شياطين تُحركهن غيرة وحقد وقلوب ملأها الغدر. لسن بأطفال وإنما نساء عجائز فقدن كل شغفهن في مُتع الحياة فأفقدهن شغف المسير فيها باحثات عن لذة أو مُتعة في لعبة طفولية تُلهيهن. لم تُغني فيروز في هذا اليوم، ظن الأساتذة أنها لم تأتِ لعلة أصابتها، ولكنها كانت بين الطلبة موجودة لم ترد على اسمها في طابور المساء عندما نادوا عليها لتتقدم. خافت وراجعت درس الماضي الذي مر سريعاً ينهش في عقلها، ويُحرك فيها خوفاً شديداً لا تقدر على كبح جماحه.

الماضي صراع مؤلم، والحاضر ضربة عنيفة، والمستقبل الذي لا خوف منه لا حياة فيه.

كن على مقربة منها. تتذكر ملامحهن جيداً، تلك الملامح التي ضربتها في أول معركة في حياتها تنهزم فيها وتلتها الهزائم. كبرن قليلاً واشتد عودهن وباتت قسمات وجوههن قاسية كقلوبهن.

انتهى الطابور.

وبدأت الطبول تُقرع تُنذر بالرحيل ومع كل قارعة ضربة في قلبها تؤلمها. احتكت بها بعنف رئيسة العصابة من وجهة نظرها، أماني الغيطي. ورن صوت ضحكات صاحباتها وهي تبتعد عنهن بنظرة شزراً مُستنكرة فعلها.

لماذا تقسوا القلوب التي لا زالت محتفظة بطفولتها؟

أنكسر فيها شيء أم إنها خاوية منذ خلقها؟

ولكـن الله لا يخلـق قلباً خاويـاً وإنما مُحسـناً، بديعـاً، يتألق بالإنسـانية التي يفقدهـا في المجتمـع بعـد ذلـك. ولكنهن فقدهـن في وقت مُبكـر جداً.

لم تُغادر فيروز فصلها في الفسحة.

وجلست إلى جوارها صديقتها المقربة، غنوة عوض.

لم تقـدر عـلى فهـم مـا يجعلها خائفـة لهـذه الدرجة، ولكن شـيئاً مـا جعلها تحنـو عليهـا ولم تسـخر مـن ضعفهـا، حتـى انتفضـت فـيروز رعبـاً، وبـات جسـدها ينتفـض عرقـاً، جرت غنـوة ناحيـة غرفة المدرسـين في نهايـة الطرقة فأتـت أسـتاذة عفـاف، وحملتهـا عـلى يدها وجـرت بها ناحيـة العيـادة. كانت درجـة حرارتهـا قد ارتفعـت كثـيراً، وأصيبت بحمـى ضربت رأسـها بعنف، فأغمـى عليهـا في النهاية.

وبـين كـمادات مياه بـاردة، وإبـرة نقصت مـن حرارتها قليـلاً، ظلت هكذا عـلى السرير سـاعة، حتـى نقلتها الأسـتاذة عفـاف بنفسـها إلى البيـت قبل أن يُقرع جـرس الفترة السادسـة.

الجميـع يُكـن لفـيروز حُبـاً صادقـاً، ليـس لقـوة صوتهـا وعذوبتـه، ولا لتميزهـا في الفصـل وذكاءهـا، ولا حتـى لجمالهـا، ولكـن لأنهـا تمتلـك حـس دعـابي ليـس لـه مثيـل بـين أحـد مـن طلبـة المدرسـة أجمعـين، فـيروز مـادة خلقهـا الله في الكـون؛ لتبـث فيـه أملاً بـأن الحياة جميلـة، مبنية على التسـامح، والبسـمات التـي تحمـل حبـاً كثـيراً دون مُقابـل.

تُداعـب العابـس، والباسـم، تحـاول أن ترفـع عنهـم همومهـم، إمـا بمثل شـعبي تحفظـه، أو غنـوة جميلـة مـن زمـن رحـل كل أصحابـه وبـات طيفه في فيروز مُجسـداً.

لا يعرف أحد من أين تأتي بتلك الذاكرة التي تجعلها تحفظ كل تلك الأغاني، فضلاً عن حفظها لدروسها وسور من القرآن عديدة.

كانت الأستاذة عفاف تحمل فيروز على يدها، عندما ضربت جرس البيت، فنزلت فاطمة تفتح الباب فصعقت بفيروز، فأقبلت حانية جسدها تحملها عنها، وهي تسأل في رعب:

– فيروز.. ماذا حدث لها؟

فقالت عفاف مُطمئنة:

– هي الآن بخير حال.

فأعادت فاطمة السؤال مجدداً وهي تصعد السُلم مهرولة.

فقالت عفاف بصوت رخيم:

– لا أعرف أي شيء إلا أن صديقتها غنوة أتت تُهرول وهي تصرخ: فيروز سخنة جداً.

وضعتها فاطمة على سريرها، وتحسست جبهتها، فكانت درجة حرارتها قد انخفضت كثيراً وباتت عادية. والتفتت فوجدت الأستاذة عفاف تقف من خلفها مُطمئنة:

– ستكون بخير.. لا تقلقي ستستيقظ من النوم بعد فترة هذا مفعول الدواء.

فأشارت فاطمة إلى السفرة وهي تقول بحرارة:

– تفضلي.

فمدت عفاف يدها شاكرة:

- على أن أعود إلى البيت فأبنائي في انتظاري.

ثم وهي ترحل:

- ربنا يخليها لك يا فاطمة.

- والله لا ينفع ذلك.. شاي أو عصير على الأقل.

- مرة أخرى تكون الظروف أفضل.

- شكراً جزيلاً.

- لا شكر على واجب.

كانت هناك علاقة قوية توطدت بين فاطمة وعفاف أيام مدرسة الصالحية، تعرفها جيداً وتعرف أهلها كلهم، وتحب فيها هذا الهدوء وجدعنة بنات الأصول.

شعرت فاطمة بعد رحيل عفاف بالانكسار لِمَ أصاب ابنتها، فكرت في زيارة غنوة في بيتها، فما يفصلهم عن العودة للبيت وخروج من المدرسة إلا قليل، لن يهدأ لها بالاً حتى تعرف ما الذي أصابها، هل أكلت من الخارج شيئاً تسبب في مرضها أو ما شابه، لقد كانت في صحة جيدة قبل ذهابها. امتد داخلها حبل من التفكير، نقلها إلى أسى وحزن، وعادت للغرفة وهي تنظر لطفلتها الوديعة باكية. وقالت وهي تُحرك شعرها المسدل على جبهتها:

- ما الذي أصابك يا فلذة كبدي وعمري.

وظلت إلى جوارها حتى استيقظت فيروز من سُبات عميق، وباتت تحكي لأمها كل شيء حدث إذ لم تتعود أن تُخفي عنها شيئاً.

٣٥

التف ميدان الأربعين بالسابلة.

صخب كبير وزحمة لم تنتهي منذ أكثر من خمسة وعشرين عامًا مضت. شهدها ولا زال يشهدها، يأتيه طيف الماضي يعبث برأسه، ويُلقيه بعيداً عن واقعه فيُثير فيه جنون الحنين.

لم يكن ليقبل بهذه الفرصة من العمل، ولا بغيرها، منذ زمن بعيد وهو يحاول الفرار من السويس ولا يقترب منها ولو زائراً، لا يرغب في تعذيب نفسه أكثر مما عذبها فقرارات الطيش وأخطاء الماضي لا يُصلحها الزمن. ولكنه أيقن مُتأخراً مصاريف فريد الجامعية، إن احتياج ابنه لم يكن عاديًا كما كان بالماضي، يكفيه بضع جنيهات ومصاريف دروس لا تُذكر، فأقل كتاب كان بسعر درسين من الثانوية.

بحث كثيراً عن عمل، ولم يجد.

حتى أتاه الملاك المُطلع على حوادثه السيد البرنس، ليتنازل له عن فرصة عمل بالسويس محتجاً أنه يمر بأزمة صحية ولا يرغب في السفر، رفض في بادئ الأمر، ولكنه أذعن لواقعه المرير، وبات يُفكر في صراعه المُقبل عليه، وكيف سيمر منه، ألم يُحارب في الماضي كي لا يزور السويس مرة واحدة أخرى، ورفض فرص عمل وتعيين بشركة البترول فيها.

لِمَ أعود الآن أي حماقة تلك؟

لم ينصفه التفكير ولم يُساعده في عبور أزمته.

ولكن من أين عَلِم أنه في حاجة للعمل؟

مؤكد أخبرته فاطمة العاهرة. ما عُدت أرغب في الحياة معها بقدر ما أرغب في الموت. بئس الجحيم الذي يُلقي المرء نفسه به حُباً في الاستقرار. أي حياة تلك التي يدفن المرء فيها نفسه ويئد أحلامه دفعة واحدة كي يفر من الماضي وصراعته؟

أي مشكلة تلك التي يصنعها بنفسه، يبحث عن مشكلة صغيرة ليُنجب مجموعة مشاكل لا متناهية في الكبر. تُرهقهم حتى هفواتهم ووقع نعالهم على الأرض لأنهم مسئولون عنهم.

امتد حبل تفكيره في صورة حب تجسدت في عينين نجلاءين، يُزينهما لونهما العسلي، وشعر أسود حالك، وبسمة رقيقة تُزينها كلمة أحبك.

ليمضي الوقت حيث يشاء أن يُلقي بنا فلم يعد يهم كم منه بقي.

الحياة والموت سواء عند من لا حياة له. أجب على نفسك أيها الأحمق لماذا تبحث عنها وقد فررت خوفاً منذ زمن؟ صارح نفسك بأنك أناني إذن ودناءتك.

لم أكن أدري إن كان الحل فراراً، ولكن الرعب تملكني يومها.

أنت الرعب في حد ذاته. أنت ليلة دهماء لا نهار لها، ماذا جنيت بضعفك؟

لم أجن شيئاً.. لقد انهزمت ألف مرة ومرة.. إن خياراتنا لا تعتمد على مقدار ما نرغب وإنما مقدار ما نخشى، فإن هزمنا ضعفنا جسرنا على فعل كل شيء.

لقد فر من السويس منذ خمسة وعشرين سنة كي لا يلحق به هذا التفكير، ولكنه بات رفيقه في كل ليلة يخلو بها بنفسه منذ أكثر من عشر

أعـوام. بالتحديـد عندما أتـاه هاتف وهو بالسـعودية هزمه وبـدد كل أحلامه دفعـة واحـدة، ولم ينـم ليلـة دون تفكـير مختلط بين السـويس وقريتـه، وصُرع بوفـاة أمه مـن بعدها.

كان يسـير كمجنـون في شـارع أحمد عـرابي، صدمـه أحدهـم في كتفه دون قصـد، وتأسـف ورحل، لم ير منه سـوى طيـف عباءته وفحيحها، وجد نفسـه في نهايـة الشـارع، أخـذ يحملـق في الفـراغ، والشـارع على أشـده من السـابلة، مزدحـم لدرجـة أنك لـو لم تعرف السـويس لقلت أن الشـارع يقطـن به جميع سـكانها. بلـد الغريب، وهـو أغرب تفاصيلهـا، وأكثرهم خسـة وحقارة وكل صفـة سـيئة يسـتحق أن تُلصق به.

عـاد مـرة أخـرى وهـو يفـرك عينيـه المغـبرة إلى أول الشـارع، علـه يجدها بـين الواقفـين، أو بائعـي السـوق، لقـد كانـت أمها تعمـل في هذا الشـارع مذ تعـرف عليها.

هل لا زالت حية تُرزق؟

مؤكـد هـي لم تمـت، فطيفهـا لا زال يـزورني في كل ليلة مطمئنـاً. عليك أن تعـود.. حتماً سـتعود يومـاً ما تبحـث عني.

لا ينسـى هـذا الكابـوس الـذي صرعتـه فيـه، وقالـت هامسـة في لحظـة وداعهـا:

– ذُق من ويل الهجران والغدر.

فزعـه في تلـك اللحظـة كما فزعـه حينها، بـات كالمجنـون ثائـراً، لا يعرف كيـف يمـضي دون أن يجدهـا، انتقـل إلى السـوق وشـوارعه الجانبيـة بحثـاً عنهـا، ولكـن لا أثـر لهـا بـين الواقفـين خلـف فرشـتهم ببسـماتهم المزيفـة. تقاذفـه شـارع إلى آخر وآخـر لآخر حتـى اختلطت عليـه كل الشـوارع فبات كالمجنـون صارخـاً.

أين أنتِ؟

ألـن أراكِ ولـو لمـرة واحـدة فأرى مـا فعلته فيـكِ.. لا أحتمـل حياتي دون نظـرة مـن عينيك تسـامحاً، أو همسـة بنسـيان الماضي.

ولكن الماضي الذي يُنسى لا حاضر له.

أنـا لم أنـس، وهـي لم تنس، الجميع يُمني نفسـه بالنسـيان وحوادثـه رابضة بـين أضلعنـا وفي ذاكرتنـا ينتظـر تلـك اللحظـة التـي تحـين وينفجـر مُباغتـاً صاحبـه بواقعـه المرير.

أليس هو من صنعه؟

لِمَ عنصر المفاجأة إذن أيها الشيطان؟

ترامى إليه صوت رخيم من الماضي؛ فتوقف.

جرفـه إلى الحـاضر بدفعـة في حائـط قـوي فألمـه، حـاول أن يلتفـت ولكن شـيئاً دفعـه كـي يُكمل سـيره وبأن المنـادي قـد أخطأ هدفـه، لابد أنـه أخطأ. تبـدل حالـه في خمسـة وعشريـن عامـاً ففقد كثـيراً من جمالـه بل فقـد كل شيء ولم يبـق سـوى أنفه المعـوج الذي بـرز فأظهـر دمامة وجهـه النحيل كـي يُريه كـم مـن المـاضي يتبقـى بعدما يذهـب ريحه.

بـدا الصـوت قريبـاً لدرجـة كبـيرة منـه، فلم يجـد بد مـن الفـرار ليصطدم بـما تـرك، علـه يكون صديـق له منـذ زمن فقـد كانـت الأربعين حيـه المُفضل وله فيهـا سـهرات وجولات.

قالت صاحبة الصوت وهي تضع يدها على كتفه هامسة:

- عطية.

صُعـق بعينيهـا، وصُعـق ببسـمتها الذابلـة، التي تُزينهـا انفراج أسـاريرها رغـم غبـار الزمن.

هـي بأنوثتهـا الطاغيـة، وبشرتها البضة الناعمـة، وأنفها العريـض الأرنبة، وأسـنانها الناصعـة، التي بـدأت تمنحها بسـمة واسـعة فتُزيل الذبـول عنها في كل ثانيـة لعينيها معاً.

حـاول أن يتكلـم، لكـن الـكلام يأبـى أن يخـرج، لم ينبـس ببنـت شـفة لدقائـق مـرت كسـهم مـارق، وازداد بريـق عينيـه وكاد أن يهتف لكـن صوته خـرج خافتاً:

- ضحى.

٣٦

اشتد زحام شارع أبي قير كعادته في تلك الساعة من النهار. الثانية.

اخترق بوابة كلية العلوم باحثاً عنها في حماسة غير معهودة، لم يكن يعلم فريد أن لقاءه بنغم من الممكن أن يُغير في ضعفه شيئًا ويُحركه ناحية رغبة زمن فات، لم يجسر ولو مرة واحدة على مصارحة أحد بها. مؤكد عليه أن يشكر صنيعها ومعروفها فقد ساهمت في إعادة روحه مرة أخرى.

كانت تلك الفترة فارغة بالنسبة إليها على حسب جدولها معه، وعليها أن تتواجد في حديقة الكلية أو أحد شوارعها جالسة إلى أي شيء سواء سور صغير أو رصيف جانبي. لم يخل من التفكير لحظة واحدة فيما سيقوله لها، كيف يبدأ وبماذا ينطق، هل يبتسم أم يُظهر من الثِقل المعهود في الحب الذي تعشقه البنات، ولكن تلك اللحظة جاءت بعد زمن، تمناه ورغب فيه بكل حواسه وجسده، هل يدعي الثقل الآن وهو على وشك مقابلتها، كانت عيناه تذرع كل الطرق والأرصفة باحثاً عنها، لكنه لم يجدها، كأنه من شدة فرحته غفلت عيناه عنها بنشوة اللقاء واعتبرت اللقاء حدث بالفعل.

همس صوتاً بجانبه وهو ينقر على كتفه:

– فريد.

فألتفت فزعاً، ولم يملك نفسه من السعادة التي غمرته، وما نطق بكلمة واحدة، ووقف مبتسماً كالأبله.. حتى شجعته صاحبة الصوت وهي تبتسم قائلة:

- يبدو أنك تبحث عن شيء ما.

فتهته ولم يكد ينطق بكلمة حتى قالت ضاحكة:

- اهدأ قليلاً وسيأتي الكلام.. لِمَ كل تلك اللعثمة؟

تمنى أن يحتضن عينيها بنظراتها الجذابة، فلا يخرج من بؤبؤ عينيها إلا بكلمة واحدة من أربعة أحرف يطرب إليها وتُرفرف الروح تهليلاً بها.

لم تُنزل نور عينيها عنه، كانت تتطلع إليه رافعة رقبتها كي تبلغ طوله، فقد كانت أقصر منه بكثير، بالكاد تبلغ كتفه. لأول مرة يقتربا إلى هذا الحد، فيرى كل تفاصيل وجهها الذي تمنى يوماً أن يلمسه، أن يمر عليه بأنامله فيستشعر تلك الحرارة فيه، أن يلمس بسمتها، أن يستمع لانعكاس نبضات قلبها باحمرار وجنتيها، أن يسمع صوتها وهي تُنادي اسمها مرة ثانية بنفس النظرة التي يملأ بها عينيه.

شعرت نور به قريباً، روحه تبدت لأول مرة لها رقيقة عذبة، فيها نقاء طفولة لم تعهده وهو جارها وصديق طفولتها التي لم تُحدثه غير مرة أو مرات قلائل بحكم الدراسة ليس إلا. لم تُنكر أنها كانت ترى فيه شخصًا مهذباً، ممتازاً ولكنها كانت تشعر بشيء من الكبر يختال به في شخصه، رغم أنه لم يُظهره مرة، ولكنها كانت تشعر به في دروس الثانوية عندما يتفوق ويُكرم باسماً، لكنها لم تكرهه أو تُفكر فيه خارج هذا النطاق، ويوم أن أخبرتها وفاء البيباني بما عهدت إليها اخته فريدة، لم تُصدق، كأنها كانت تراه دون قلب لا يشعر، أو فقده منذ أن اختار أن يكون ممتازاً في دراسته كأن من تميزوا في حياتهم لا يشعرون أو يُفكرون سوى في مجدهم

المعهود المُزدان بأنانية مُفرطة ورغبة في تجميد قلوبهم حتى يلحقوا بتيار الأحلام.

لم تكن ترغب هي من كل هذه الدنيا سوى في شعور بالاستقرار اللهم إلا مغامرة تُمكنها مرة أو مرتين من لحظات سعادة غير مألوفة لها، ولكنها تعلم أن التحليق يحتاج لأجنحة وهي مهيضة الجناح بقرارات أهلها التي تراها سيفاً على رقبتها لا تقدر على رفضها أو التعنت في جدال لن يُجدي.

هي ضعيفة الرأي، لكنها صائبة الحكمة كمثيلاتها من أبناء القرية، فالاستقرار زينة الحياة، لأن الصراع لا يُثمن ولا يغني من جوع.

تمتم فريد وهو يبحث في عينيها عن جواب:

- كيف حالك؟

اخبرته عينيها بكل شيء، قبل أن تنطق أو ينطق هو، قالت ببسمة لا تشوبها شائبة:

- الحمد لله.. وأنت؟

- في خير ما دُمتي بخير.

فأشرق وجهها، وتورد خداها، وحاولت لأول مرة أن تُخفي عينيها من عينيه، وتتفادى النظر إليهما، وهي تبتسم على أشدها، ثم همست:

- ربنا يخليك.

فقال فريد وهو ينقل البالطو إلى يده اليسرى:

- كنت أريد أن أخبرك بشيء.

- تفضل.

– تقبلين عزيمتي على الغداء أولاً.

– لـن أقـدر عـلى أكل شيء اليـوم.. ولا الغـد لأني أسـير على نظـام ريجيم كـي أحافـظ على جسـدي.

فحاول كسر حاجز بينهما قائلاً:

– هوس اليومين دول.. أعرفه.

فقالت وهي تضحك:

– ليس بهذا المعنى ولكن مثالية الوزن تمنحك الصحة الجيدة.

فقاطعها قائلاً:

– اعرف ذلك.. ولكن يوماً واحداً لن يُفسد الأمر.

– نـشرب شـاي أو قهـوة أو ما شـابه.. لـن أقدر عـلى تناول غـداء خارج المقرر.

– اليوم؟

فهمهمت، فأردف:

– اعتقد أن جدولك ليس فيه سوى الفترة القادمة وينتهي اليوم.

فرمقته بنظرة تعجب، فنظر للسماء وهو يهرش رأسه قائلاً:

– آسف لأني كنت أتجسس على جدولك.

فحاولت أن تُداري عنه بسمتها وقالت:

– موافقة.. اليوم.. ولكن لن نتأخر.

– لن أُثقل عليك بشيء.

فهتفت:

- لم أقصد والله.. لكن على العودة للمدينة.

- وهو كذلك.

- سأنتظرك عند البوابة الساعة الثالثة والنصف.

- تمام.

- سلام.

- سلام.

وتـردد كثيراً بـين أن يمد يده ليُسـلم عليها أو يتركها بجانبـه، ولكنه خشي أن تحرجـه بـألا تُسـلم عليـه فضمهـا لجانبـه وودعهـا ورحلـت. وتركت من خلفهـا تيـار مـن الفرحـة وموجة مـن الصخـب داخلـه لم يقدر عـلى الخروج منهـا، ولم يرغـب في ذلـك، بات كالمجنـون يضحك للجميع في الشـارع، ذرع شـارع أبي قـير عبوراً لمستشـفى المواسـاة وهو يتبخـتر في زهو، كان يرسـم ف الهـواء قلوبـاً ويتابع سـيرها أمـام عينيه وهي تُرفـرف في السـماء، حتى اخترق بـاب المستشـفى وظل جالسـاً على أحـد السـلالم ولم تُفارقه تلك البسـمة.

٣٧

في الساعة الثالثة تماماً وقف ينتظرها أمام بوابة أبي قير.

حاول أن يُمرر الوقت بأي شيء لكن ساعات الانتظار أمر من أن تعبر هكذا دون أن تأخذ معها روحك. بحث عن نغم بين أعين الواقفين لكن لا أثر لها. لم يُفكر أن يرفع سماعة هاتفه ويكلمها، يسأل عنها، كانت فكرة عابرة وطردها عن رأسه، لأن ما ينبض بقلبه أهم من أي شيء.

قبل أن تأتي الساعة ونصف كانت تقف إلى جواره.

كان يجلس على سور الكلية الصغير.. ما إن رآها حتى انفرجت أساريره وقال باسماً:

- أهلا أهلا.. هلا والله.

فضحكت منه.. وفُتح في قلبها باباً جديداً يطمئن له، يحمل شعور بالارتياح لنبرة صوته وجنونه، وخفة ظله التي لم تعهدها من قبل. كانت تظن فيه البرود، وفجأة بلين الخاطر ومشاعر فياضة لا يحمل مثلها من يتباهون بخططهم في الحب ويختالون بكلماتهم، مثل من تراهم في الكلية.. هي تعرف أنها كثيراً عليه، هو أجمل منها وهي فتاة عادية، اللهم ليس إلا تلك العينين العسليتان اللتين عرف الكُحل طريقه إليهما قريباً، وبعض من مواد الطلاء التي منحتها جمالاً مُصطنعاً.. إنه على أي حال دكتور، معه مستقبل مُشرق، وسيكون له حياة كريمة لن تجد مثلها مع غيره فضلاً عما يُقدمه إليها من اهتمام.

لكن أمه عاملة نظافة.

وأنتِ أمك ربة منزل. الأمر سيان. وتلك النظرة من الأنانية هي ما توقف الحياة. استمعي منه فإن كان لك فيه نصيب فسيكون وإن لم يكن فأنفري منه. لم تجد من يُهون عليك فترة الجامعة، أنتِ على أي حال وحيدة.. عادية!

لكن.

قاطعها صوتها الداخلي.. ليس هناك لكن أيتها الحمقاء. أنتِ ترغبين فيه ولو لم يكن ذلك لمَ تبسمتِ له يوم فرح أخته، وكنت ستفرين منه ولم تنقري على كتفه كي يلتفت فتُسهلي عليه الطريق. كفاكِ حركات البنات تلك لن تُجدي ولن تشفع لك إن ذهب.

تساءلت وهي تبتسم:

– إلى أين سنذهب؟

– اعتقد أننا لسنا في حاجة إلا للبحر.. طالما أنكِ لم تقبلي الغداء معي.

– لا تكرر الأمر.. والله هو جدول لا أرغب في إفساده.

ثم مُداعبةً:

– مَن يدري ربما نأكل يوماً في طبق واحد.

قصرت عليه مسافات طويلة بقولها.. لم يتصور لوهلة أنه بجوار الملاك الذي رسم صورته طويلاً إلى جواره في مخيلته، تمنى أن يُخرج كل ما كتبه يوماً في مذكراته، تمنى أن تكون معه الآن فيُعطيها إليها ويرى بريق عينيها يزداد ألقه مع كلمة تعجبها وكل سطر به اسمها. كم سيكون رائع ذك الشعور عندما تأتي عينيها لتُخبره بكل شيء دون الحاجة لإرهاق في التفكير أو شعور بالحاجة لفرار من الواقع.

أنا أحبك يا نور.

الحب كلمة قليلة عما يحمله صدري إليك.

إذن أعشقك.

حتى تلك فقدت بريقها من كثرة قولها.

أنا لا أمضي في سبيل إلا وصورتكِ فيه إلى جواري، تنقلني من دنيا مليئة بالصخب إلى أخرى مليئة بالسعادة ليس فيها إلا أنتِ. أنتِ الماضي والحاضر والمستقبل الذي لا وجود لكِ فيه لا حياة به. فكل نبضة من قلبي هي نفحة من قلبك تمنت إليه الحياة فعاش ولو بخلت عليه لانطفأ ينتظرك تحنو عليه فتُشرق شمسه من جديد.

لقد كانت الحياة قبلك غروبًا لا شروق فيه.

قال فريد باسماً وقد تورد خده:

- اتمنى ذلك.

- لم تقل ليّ أين سنذهب؟

- إلى البحر أولاً ثم أي كافيه ثانيةً.

- لن نذهب إلى أي كافيه.

- لِمَ؟

- اعتقد إن مشهد الغروب سيكون ساحرًا من الشاطئ.

- فقط لأنكِ تشهديه.

فأعترض سبيل عينيها يبحث عن تلك البسمة التي تواريها، لكنها رفعت رأسها للسماء كي تفر منه، وتساءلت محاولة كسر المسافات:

– لِماذا أحببتني أنا دون غيري؟

فقال وهو يُشير إلى صدره:

– سلي قلبي.

– أنت صاحبه.. سيُخبرك أنت فما الحاجة به كي يُخبر غيرك.

– ينقصك أن تفهمي لغته فقط.

– وكيف افهم لغة قلب ليس ليّ.

– لقد مَلَّكتكِ نبضه.. فافتدى نفسه بنبضة منك تسري فيه فينبض بالحياة.

– أنت شاعر؟

– أحاول أن أكتب ما تُمليه على عينيكِ.

– لن أحتمل منك كل هذا الكلام.. فأنا لا أقدر على كلمة واحدة منه.. ثم تقول إنني أبخل ولكني لا أجهل.

لم يتخيل فريد أنه سيجسر على الكلام ولو كلمة واحدة.. ولكن عينيها لا تُشعره بقيد، بل تطلق العنان للسانه فيهيم بها. وتمنى أن يستحضر ما كتبه من شعر، ولكن جميعه غاب عنه، غاب حتى كل كلمات النثر ورسائل الحب، وأوراق الورد للرافعي، تاه كل شيء مع نظرة عينيه الباسمة.

كان شارع لطفي السيد هادئًا لدرجة كبيرة، كأنه قد خلا من جميع الطلبة والسيارات المركونة فيه، أو قل الدنيا كلها قد اختفت ولم يبق فيها سواهما كي يشعرا بلحظة خلوة معًا يتمكنا فيها من رضا قلوبهما ويدفع كل منهما بقلب الآخر إلى الآخر.

قال فريد وهو يعترض طريقها:

– اعتقد أنك لن تبخلي يوماً.. وإن كنتِ تجهلين، فيكفي أن عيناكِ تُخبرني بكل شيء.

– لكني لا أستحق كل ذلك.

– بل تستحقين أكثر من ذلك.

وصمت لوهلة.. وأسند جسده على سور كلية الهندسة وقال في حماسة:

– ثمة حب في قلبي لو وزن بميزان أهل الأرض لخرت الجبال من فرط قوته.. ولو وزن بميزان أهل السماء ما قدر على حمله مَلك.

ونظر لعينيها كي يُدرك وقع كلماته عليها فوجدها زاهلة تبتسم.

واستطرد:

– أتُدركين كم من الوقت مر وأنا أتمنى أن أقول أحبك.. اثنتا عشرة سنة وثمان أشهر وعشرون يوماً.

ثم نظر في ساعته وأردف:

– وستة عشر ساعة ونصف.

فضحكت وهي تضع يدها على وجهها لتواري ما وقع في نفسها من قوله.

وقال في جنون:

– يومًا رأيتك خارج بوابة الكلية بعد سنة كاملة، وكنت أحاول الوصول إليك بأي طريقة لكني لم أقدر حتى أتت الصدفة ورأيتك تبتسمين، وكانت هي المرة الأولى التي أرى عينيكِ مُزدانة بالكحل.. وكانت أجمل مرة.

فتساءلت في دلال:

– ألست جميلة الآن.

– أنتِ جميلة في كل حين ولكن تلك المرة كانت نجاة للظمآن من قفر ضل فيه مسعاه فأنهكه البحث وتمنى شربة ماء تغفر له كي يُكمل.. فكانت رؤياك.

فتبسمت لكلامه.

هي لا تقدر على قول كلمة واحدة تشفع لها. تبتسم وتصمت، ولا تقدر على تصديق ما يحدث تعتقد بأنه هرج، تمنت أن يقرصها أحد في فخذها كي تفوق من غيبوبتها فترى الواقع الحقيقي الذي تعيش فيه، والذي يراها الناس من خلاله، أنها فتاة عادية لا شيء فيها مميز. ولكن هيهات أن يقضي على لحظات السعادة حاقد.

فاستجمعت قوتها وقالت وهي تسير:

– فلنذهب.. لنذهب دون كلمة واحدة كي لا أرتبك وأفسد كل شيء.

فتساءل في حيرة:

– ألن تُعقبي بشيء.

– ألم تقل إن العيون تُخبر بما في نفس صاحبها.

– صحيح.

وأمسك يدها فلم تُدرك المفاجأة إلا وهي تجري إلى جواره كأطفال تحلق خلف فراشة من السعادة، ووضع يده على صدره باسماً بعدما توقف وهو ينهج، وتساءل:

– تعبتِ؟

فراقبته باسمة وهي تلهث.

فأردف:

– لا يهم المهم أننا معًا يستند كل منا على الآخر.. الطريق وإن بدا طويلاً فصورتكِ تُقصر على المسافات.. وإن كان مظلماً فنورك يُضيء كل عتمته.

وسارا جنباً إلى جنب حتى نفق الشاطبي.

تذكر موعده مع إبراهيم في حضرة ببيت أحد الرفاعين يحضرونها اليوم بالعاشرة، وتذكر تلك الليلة من العام الماضي عندما نزل إبراهيم بتلك الفتاة إلى الشاطئ وكيف أقنعها.

كان المساء يمد ورقه.

جلسا على بلوكات كامب شيزار صامتين، مر بجانبهما شاب يحمل ترمس شاي، فنادت هي عليه، وطلبت كوبين، على أن يكون أحدهما به ملعقة سكر واحدة وطلب فريد ثلاث ملاعق، وحاسب فريد. أخذ كل منهم يرشف من كوبه رشفة يتبعه الآخر بأخرى، ظلا صامتين لفترة، يشهدا تخلل الشمس القانية زرقة البحر الصافي في المغيب، وكيف ينبثق النور من تلك الظلمة الدهماء ليُشرق الكون. ولكنه لم يتعجب لذلك، فكانت هي نور قلبه الذي يُشرق فيه الحياة كالشمس تماماً لا حياة بقلبه دونها.

انتهيا من كوبيهما، ووضعهما جانباً.

ونشر الليل أول ظلمته، فحاول فريد أن يتعثر في يدها باحثاً عنها دون قصد حتى لمسها، فضمتها؛ فتأسف. ولكنه عاد مجدداً يبحث عنها وما كاد يلمسها حتى ضربته على ظهر يُمناه وهي ترمقه بنظرة ذات معنى. حملت إليه كثيراً، وتمنى لو طال مشهد الغروب، أو طالت مدة جلوسها إلى جواره ولكنها استأذنت في الرحيل كي تلحق بالمدينة الجامعية فعرض عليها إيصالها فأبت حتى لا يلحظ أحد من زملائها شيئًا فيُوبخونها عليه وتصبح مادة سخريتهم.

٣٨

جلس عطية أمام ضحى المراكبي يتأمل عينيها آسفاً.. يحاول الاستماع إلى داخله لكن شيئاً ليس مفهوماً من كثرة الصخب. حاول استجماع طاقته وما بقي من عقله كي ينطق بكلمة تمحو أخطاء الماضي ولكن شيئاً لم يكن.

وكان السوق هادئاً يكاد يخلو من المارة على غير عادته.

تذكر تلك الليلة الدهماء، كيف ابتدت وكيف انتهت.. وجد نفسه محاطاً بحلقة ضيقة كلما حاول أن يعتذر ضاقت أكثر حتى شعر بالاختناق، لكن بريق عينيها ونظرتها البالغة الأسى لا زالت تُخبره بحبها فتمنحه أملاً ولو لذرة أكسجين نقية من بين غبار حياته ودخانها فتُطيب خاطره. لكنه يعلم أنه لا يستحق. استسلم في النهاية لجملة يستدرجها بها، أو يرى انعكاس وقع أثرها عليها.

قال وهو يخفت عينيه استحياء:

– أتتذكرين تلك الليلة؟

فضحكت وقهقهت. وحاولت أن تسترد حياءها في حضرته، وقالت بصوتها المعهود في حنان:

– أتذكرها. أنا أحيا عليها.

وصمتت لوهلة رمقها عطية فيها بنظرة ذات معنى، وأردفت:

- بل أحيا على كل ذكرى كانت ليّ معك.

فشعر بالدموع تجتاح عينيه، وكاد محجريه أن ينفجرا من شدة حرارتهما.

تذكر كيف استأمنته على نفسها فغدر بها في لحظة سُكر، وكيف هرب دون رجعة، لم يعرف عنها من وقت رحيله شيئًا. وهي التي منى نفسه كثيراً برضاها ورسم معها مستقبلها، وتمنى أن يعيش معها للأبد، ولكن بعض الأخطاء لا تُداوى ولا تُغتفر ومَن سلمت نفسها لشخص سلمتها لغيره بدل المرة ألف مرة. كان يُردد حماقته تلك طيلة المسافة من السويس لقريته بعدما هرب، لم يعرف أحد له طريق، وكان صديق العمر هو من أقنعه بالرحيل عنها لعُهرها، فلو علمت أمه بذلك لماتت كمداً وهي تحاول أن تنسى وضع رؤوسهم في الوحل على يد ولدها الوحيد بعد هذا العمر المديد.

تذكر كيف اختارت له فاطمة وكيف اقنعته بها، وتناسى كل كلمة قالها في الحب لضحى، وكيف مضى الزمن ولم ينس لحظة واحدة معها، يتظاهر بالنسيان أو يتناسى يأبى أن يقبل ذلك. فكانت كل مسكة يد لفاطمة وكل قبلة وكل لحظة سعادة وجماع من خلال عيني من أحب أول مرة في أول سنة من عمرهما، حتى وقع في فخ النسيان واقنع نفسه بذلك حتى عشر سنوات مضت. أعادته من سُبات عميق لماض سحيق.

وهمٌ مَن يقول بأن الحب الأول يُنسى ويمر!

فهو مادة الحزن عندما يأتي في سن مُتأخرة، لأن القلب شب على فراغ تام، وكان أول لقاء له بعدما تعطش أعوام يبحث عن كلمة واحدة. ما أقسى الحب عندما يكسر قلوب العاشقين، الصادقين، المتألمين من الزمن بقدر ما حفظوا قلوبهم لشخص يرعاها فلفظها لقلة خبرته ودناءته.

قال عطية مُتحمساً:

– لقد وفرتِ على مسافات طويلة.

– يبدو أنك ضللت الطريق.

– لم تكن هناك طريق إلا لك.

– ولِمَ فررت إذن؟

– خِفت.

– الجميع يخاف.. لكنك جبان.

– ولكني..

فقاطعته في ثورة غضب:

– أنت أجبن من أن تواجه نفسك بحبي يومها.. لكني أنا المُخطئة.. أنا مَن سلمت نفسي إليك ولم ألتفت.. لم ألتفت إلا وقلبي قد بُتر بحبك فما عاد له نبض.

وأشارت ناحية قلبها تضربه بسبابتها بعنف وهي تقول:

– هذا ما وقع بي في فخ لم أتصور أن أكون فيه. فضيحة حاولت أن اتفاداها كي أعيش ولكني كنت أضحك من نفسي وأنا أتمنى ألا أراك.

فتساءل في أسف:

– ولِمَ لم تسأليني عني؟

– مَن يحفر الحفرة لا يحتاج لسؤال.

– كنت سأحن.

– الحنين للقلوب التي تعرف العهود.. وانت لم تحفظ عهداً.

– ولكنكِ لم تخرجي من قلبي.

– الزمن يُنسي ويداوي.

– وهل داواكِ؟

– دوائي الحقيقي أني لم أرغب في رؤيتك.. كنت اسحق نفسي ألف مرة وأدهس قلبي كي لا يحن إليك.

فتساءل متحيراً:

– ولِمَ ناديتني إذن.

– لم أقدر أن أراك ولا أشبع عيني منك لمرة أخرى.

– أنتِ تُحبيني؟

– لم أحب قبلك ولا بعدك.. لكن الحب أسطورة خيالية تحكيها لنا ستنا أو أبينا في لحظة نشوة بالسعادة ولا معنى له في الواقع ما دام هناك أمثالك.

فقال ودمعة من عينيه تبرق بين جفونه:

– أنتِ تظلميني.

– بل أنت مَن ظلمت نفسك.

فصمت لوهلة وطأطأ رأسه إلى الأرض باحثاً عن كلمة يُداوي بها مرارة الأيام، وتساءل في أسى:

– أتسامحيني؟

– كيف أسامحك بعد ما قمت به. أنت قتلتني ألف مرة.. في كل ليلة كنت أبيت فيها

أرى خنجراً ينهش في ظهري يُخبرني أنك أنت الخائن، وأكذبه بأنك أحن على من الدنيا كلها.. حتى اجتمعت أنت والزمن عليّ؛ فخيبت ظني في الحياة كلها فمِتُ بك ولأجلك ولكني أعيش كما ترى.. امرأة قوية لم يهزمني الزمن بعد، اللهم إلا بعض التجاعيد.. انظر أنت إلى وجهك الذي سخطه الزمن.. انظر لصلعتك التي محت الأيام منها جمالها.. أتتذكر شعرك الذهبي الذي كنت تختال به، لقد فقدته للأبد، لقد فقدت كل شيء ولم يبق منك سوى هذا الأنف.. لقد نحل كل شيء فيك.

ثم صمتت وأردفت:

– حتى عقلك فأصبت بالخبل.

فتساءل دامعاً:

– أتقتصين مني؟

– وإنما أطلب منك الرحيل.. فلم أعد أرغب بك هنا. وخذ ما بقي من قلبي فهو لك، أطلب منه أن يُسامحك، فإن سامحك ستجدني ميتة هنا.. لكنه لن يُسامحك على ما فعلته به فأنت أدنى من أن يُسامحك أحد وأقل من أن يعتبر لك شأن.

كان الشارع قد خلى تماماً إلا من بعض السابلة. نكس عطية رأسه مُنهزماً يحاول أن يتغلب على ضعفه، لكنه لم يقدر حتى على رفع رأسه، وباتت الدموع تسقط على الأرض تتخبط فيها فتكون بركة ماء آسن تأخر نزوله أعوامًا وأعوامًا من عين مخادعة ونفس دنيئة.

واستطرد في سخط:

– انظر لحالك.. انظر كيف تحولت الآن إلى رجل شاحب.. فقدت كل شيء ولم يبق منك سوى هذا الظل الباهت.

كانت تقتص منه على كل ما فعله.

أحبته ضحى..

أحبته حباً لم يتخيل هو نفسه أن هناك من يعيش بقلب كهذا، حاولت أن تسترضيه بكل الطرق، حتى أتى اليوم الموعود الذي لم يطلع عليه شمس بعدها، وفقدت فيه عُذريتها بحي السلام ولم يكن حينها قد عُمر بالبيوت كان خرابة تامة، تتذكر تلك الليلة في كل نظر لعين ابنتها، وكل مسحة على جبينها، وكل ضفيرة لشعرها الذهبي وكل مرة توبخها بها، وتعيب عليها انكسار أنفها المعوج.

قام عطية مستنداً على ما بقي من كرامته، حاول أن يقترب منها، أن يدنو ليسمع صوت قلبها وهو يُخبرها بالبقاء، فصوت العقل قد طفا على كل الأصوات فبات يصرخ فيه كما يرى، ولكنه ما قدر على الوقوف، فاستند على الفرش الفارغ أمامه، وغبشت عيناه، واختلطت عليه الرؤية فما عاد يرى أمامه إلا صورة من الماضي لها تُخبره كم تُحبه.

وترامي إليه من أعماق نفسه، صوت رقيق يُنادي باسمها:

- يا أمّة.. يا دُود.

فلف رقبته، فوجد فتاة جميلة، تُشبهُ كثيراً. فتخبط الحاضر بالماضي، وصُرع بهزائمه كلها دفعة واحدة وفقد كل قواه وبات مهداً بالانهيار.

فقالت ضحى مناديه:

- تعال سلمي على عمك عطية يا سُعاد.

فوجد شاكوشاً في رأسه يضربها بعنف، وهو يهتف فيه لا زالت تُحبك. حتى أنها سمت ابنتها على اسم أمك التي ما مللت اخبارها بحبك لها. وهذا التشابه الحاد بيننا أليس في مثل ابنتك، يبدو أنها ابنتك.. إنها تُشبهك كثيراً.

مدت سعاد يدها لتُسلم عليه، غير أن عطية ما نظر لها، ولم يلتفت حتى نخزته ضحى في كتفه قائلة:

- البنت مادة إديها.

فسلم عليها بيد مرتعشة، وهو يقول مُبتسماً ودموع الدنيا قد انحصرت في عينيه:

- اهلاً يا بنتي.. اهلا يا سعاد.

واستأذنت سعاد فباتت تُنزل من عربة النقل الواقفة أمام الفرش الطماطم لترص على حائط بيت وضع الفرش أمامه.

فنظر عطية إلى ضحي وهو يقول:

- ما أشبهها بي.

فقالت ضحى هازئة:

- الأفكار تُنجب الشبه.

- أتهزئين مني.. أنا أتحدث بصراحة.

- أنت مجنون ليس إلا.

فاقترب منها أكثر وهو يهمس:

- مجنون بحبك.

فقالت في ثقة:

- الحب قد مات منذ خُلق.. مات وهو في مهده الأول.. أو كما قال سيد قطب أتتذكر قوله؟ أنا أتذكره تماماً فهو يرن في أم رأسي.. الأحياء لا يتبنون الأموات. ألست من قالها ليّ ورددتها وانت تهزأ يوماً مِن بعض المارة وسياستهم عندما سألتك.

– من الواضح أنكِ لم تنس شيئاً علمتك إياه.

– خير مُعلم وخير تلميذة.

ثم وهي تشاور ناحية المنطقة الفارغة بين الفرش وأقفاص الطماطم:

– تفضل ارحل.. ارحل ولا تأتي إلى هنا، فأنا لا أرغب في رؤيتك مجدداً.

– ولكن.

فقاطعته بحدة:

– ارحل ولا تكن سبباً في قلقٍ.

ورحل عطية برأس منكس ونفس منهزمة، ولم يكد يبلغ أول الشارع الجانبي من شارع زين العابدين حتى استند على الذكريات وعاد إليها هامساً:

– أليست بنتي؟

– إن عرفت ذلك فلن يُفيدك بشيء. هي بنت مَن هو أفضل منك. ارحل ارحل بعيداً واغرب عن وجهي للأبد.

فقال متوسلاً:

– أخبريني فقط.. أريد أن اعرف إن كانت ابنتي أم لا.. وسأرحل للأبد.

– بل سأترك الفكر ينهش في عقلك ولن أعطيك إجابة مُرضية كي تموت وأنت تتألم. اغرب عن وجهي لا ربحك الله.. حسبي الله ونعم الوكيل فيك.

ورحل محملاً بأعباء الدنيا فوق كاهله. وكانت السماء تُقطر حُزناً والواقع يمضي في سبيله لتحقيق عدالته أو ظلمه، والزمن يجرف معه القصص والحكايات ولا يبقى منها سوى عبرتها.

٣٩

شَكت فاطمة في الغد الطلبة الذين يرعبون ابنتها.

تعاطف الجميع مع حكايتها، وكانت الأستاذة عفاف إلى جوارها تُأمن على كلامها، وتم نقل الطلبة إلى فصل آخر غير فصلها، وتوعدت المديرة لهم بالضرب إن تعرض أياً منهم لها. على أن يحضر أولياء أمورهم إن اعترضوا طريقها ولو بنظرة واحدة. الكل يحب فيروز ويتمنى أن تكبر حتى يرى فيها ثمرة تعليمه وحبه.

عادت فاطمة تحمل ابنتها التي رفضت أن تذهب للمدرسة هذا اليوم، حتى أنها لم تلبس ملابس المدرسة، ولأول مرة تتحجج بمرضها وهي التي كانت تعشق الذهاب للمدرسة وتسعد به منذ أول وعكة بمدرسة الصالحية.

قابل السيد البرنس فاطمة أثناء عودتها من المدرسة، فحمل عنها فيروز التي كانت تغط في نوم عميق، ووصل بها إلى البيت المفتوح بابه، واصرت فاطمة على دخول الرجل، ولكنه أبى أول الأمر وأذعن في النهاية برغبة مُلحة منها تُناديها من أعماقها بحرارة.

اخذ يتأمل مؤخرتها العريضة وهي تصعد السلم على مهل، تتمايل عن قصد، مُتعمدة إثارته، وما كاد يبلغ الشقة حتى تنفس الصعداء من السلم، ودنا منها وفيروز لا زالت في يديه وهو يقول:

– متى يحن علينا الزمان؟

– اعتقد أنه لن ينظر لأمثالنا.

وحملت فيروز عنه وأدخلتها لغرفتها واغلقت الباب من خلفها، وظل السيد واقفاً مكانه فأذنت إليه بالدخول وتركت الباب مفتوحاً، فجلس الرجل وهو يقول:

– اعتقد أن من حقي أن أنعم بحبك ولو للحظة.

فقالت في أسى:

– لا أرغب في تدمير البيت.

– بكِ أو دونك هو خراب.

– سيكون الأبناء هم المظلومون.

– بل ستُنجي نفسك من نفسك.. إن صراعاً من أجل السعادة هو حق كل إنسان ما دام يتعلق الأمر بالحب.

كان السيد البرنس قد عرض عليها أن تطلب الطلاق من عطية وتهرب معه بعيداً عن هذا الصخب، لكنها خشيت الفضيحة، وأبناءها الذين حاولت طيلة عمرها أن ترفع رؤوسهم عالياً.. هل تكون سببًا لنكستهم؟

فقالت وهي ترقب عينيه لتبحث عن شفيع:

– الحب قد يكون أكبر نكسة لأم متزوجة.

– بل يكون هو نجاتها إن كانت تهلك.

– الهلاك أحياناً أفضل من الفضيحة.

– ومن قال إن الأمر يحتمل ولو نسبة قليلة من الفضيحة؟

– وما الذي يُعنيه الهرب.

– الطلاق ليس بهرب.. أطلبيه وبعدها نتزوج على سنة الله ورسوله.. هذا من حقنا.

– أنا لا أقدر على تحمل العيش مع عطية.. لقد ساء وبات شبحاً.

فسألها في عتاب:

– أنتِ تُحبيني؟

– أنت أعلم الناس بحبي إليك منذ زمن.. اعتقد أن عشرة سنوات من الحب منذ أول لقاء لنا، كافية.. ولولا ستر ربنا لافتضحنا، فما علم أحد بالأمر ومر الموضوع.

– أتعتقدين أن لقاءً واحدًا منذ عشر سنوات يكفل هذا الحب في صدري.

– لقد حاولت أن أتناساه ولكنه بدأ ينبش صدري من جديد فيُهيج ذكريات الماضي التي لا أرغب فيها بقدر رغبتي في الخلاص من آثامها.

– إن الإثم الحقيقي هو ألا تكوني ليّ.

– أنا لك بقلبي وروحي.

– وماذا عن الجسد.

– الأجساد تفنى.

– لكنها نعيم الحياة.. وشقاء الإنسان أن يعيش بلا جسد.

فقالت وهي تفرك مؤخرة رأسها:

– سيكون لقاؤها عندما يحين وقتها.

فاقترب السيد منها وهو يلهث كالكلب الضال، ونظر لعينيها وتحسس فخذها فضربته على يديه وهي تقول:

– البنت بالداخل ولا أرغب في صراع آخر أعيش به ضحية نفسي أندم عليه .

ولكنه كان قد انتشى بعطرها فقال وهي يُحرك يده على ظهرها:

– الصراعات تنتهي بالهزائم.. اهزمي كل صراعاتك كي تفوزي بنفسك.

فندت عنها آنة خافتة لمّا اقتربت يده من نهاية ظهرها، أرخت جسدها، ولكنها دفعته عنها، وهو يقول:

– أليس من حقنا مرة أخرى نكون فيها معًا.

وقال وهو يدنو:

– أنا لا أقدر على العيش دونكِ يا فاطمة.. أنتِ حياتي.

فانصاعت إلى رغباته برغبة جامحة، وبات يُعانقها ويُداعب صدرها، فما كاد يرفع عنها عباءتها حتى تناهى إليهما صوت من الغرفة، ولكنه أصر على ما هو مُقبل عليه، فأخذ يعصر شفتيها بشفتيه، ويفرك صدرها، حتى انتشى وما قدر على فراقها، لكن صوت فيروز جاء مُنقذاً لفاطمة باكية، فرفعته عنها ولا زالت مُتعلقة بشفتيه لا ترغب في تركها، حتى قامت ودفعته عنها كلياً، ودخلت الغرفة تُطيب خاطر فيروز من كابوس صرعها في نومها وظلت إلى جوارها لدقائق وسرعان ما نامت.

وخرجت إليه توبخه وتدفعه خارج الباب غير أن تطاول حتى مسك صدرها، فنهرته في صدره وهي تقول:

– أنت تحب شيئاً ليس لك.

– بل أنا أحق الناس به.

– أنـا أحبـك يا سـيد والفرصة سـتأتي عاجـلاً أم آجلاً فلا نسـتعجلها كي لا ننـدم بعد ذلك.

– اتمنى ذلك.

وصمت لوهلة واقفاً على الباب يستند بيمينه وقال في حسرة:

– لكنك تدفنين نفسك بالحياة.

– بعض التنازلات كي تسير المركب لا بئس بها.

– المركب تغرق بمَن عليها مع عطية.

– قد تكون الحياة معه جحيم ولكنها تسير إلى حد ما لأجل أولادي.

– سيعيشون.

– بل سيموتون برحيلي.

– أنتِ ودماغك.. لقد قمت بما على فعله.

– ستأتي فرصة أفضل من ذلك قريباً.

– أتمنى.

ومـدت إليـه يدهـا كـي تُخـبره بـأن عليـه الرحيـل، فسـلم ورحـل مُخلفـاً وراءه خيـط مـن الدنس عـلى جدران هـذا البيت الـذي شـهد واقعتين تعدى فيهـما عـلى شرف الرجـل الغائـب. مـرة منـذ عـشر سـنوات وقد شـعرت به أم عطيـة المشـلولة أنـداك وهـو يتخلـل غرفـة فريـد مُتلصصـاً بعدمـا ودعها مُنصرفـاً وقـد اخـبرت عطية بعـد ذلـك أن زوجته تخونـه، ولكنه جـن جنونه

ولم يُصدق ما وقعوا فيه من الإثم، فخشى مصارحتهما.. فمهما كانت ظنون أمه فقد وقعت على سمع أو سوء ظن، حتى أنها ماتت ولم يستفسر منها بنفسه عن الأمر بعد ذلك أو تكون حليفته في مواجهتهما. ومرت الأيام ولم يلمح بينهما أي شعور مُتبادل وكان يُراقب زوجته ولم يلحظ عليها أي تغيير حتى تلك الأيام الأواخر التي أجتاحه فيها شعور من جديد بالخيانة.

نفر من صاحبه بقدر من نفر من فاطمة في البداية لكن تياراً جرفه إلى الماضي ودفعه بشدة، فشعر بضحى تجتاح جنبيه. ومنذ تلك المكالمة وهو يشعر بخيبة أمل.. وعاد من السعودية، ليدفن أمه التي توفت بعدها بشهر. فانكسر مرتين، مرة بوفاتها والأخرى بأثر الخيانة غير المعهودة، التي لم يتوقع يوماً أن تقع. ولكنها حدثت.

٤٠

تأملت نغم الحديقة الفيحاء أمام فيلاتها بعين دامعة تورمت من كثرة الدموع حتى توردت الجفون، وحملت كوب من النسكافيه وخرجت تتأمل المشهد علها تجد في خلوة الصباح إجابة شافية عما في صدرها.

كان كفر عبده في السادسة صباحاً ينشر بعض الهدوء، أو دائماً هو الهادئ كطفل مدلل نائم أنهكه اللا شيء.

تركت الكوب على طاولة ووقفت تتأمل الأزهار والأشجار. ودنت من ممر الحديقة حتى توقفت عند إحدى شجرات الليمون تُداعب ثمرتها، وتشتم رائحتها، تحاول أن تتذكر متى زرعتها، لقد كانت صغيرة، حاولت أن تعصر ذاكرتها ولكنها لم تقدر على تحديد موعد زراعتها، كل ما تتذكره أنها كانت تتعلق بعباءة أبيها وهو يزرعها باسمة.

تُرى أين هو؟

لماذا يختار الأحياء الموت كي ينهوا مسيرتهم؟

لكن الروح لا تمت.

هي تؤرق المُتعلقين بها. ربما.

ولكن الرغبة في الموت إلحاح من الإنسان كي يُنهي عذابه.

لكني لا أرغب في الموت.

أنتِ ترغبين فيه بكل حواسك كي تنتهي مما ألقيت نفسك به.

سأعود لأمريكا وينتهي كل شيء.

مع مَن؟ ولمَن؟

مع أمي وزوجها.

مَن رحلتي منذ أو لقاء لك معهم.. من جعلوا الواقع كله أنانية في عينيكِ.. مَن حولوا الحياة عندك إلى صراع.. دائماً أنتِ المنهزمة فيه. أنتِ لا ترغبين فيهم بقدر عدم رغبتهم فيكِ.. لمتى ستظلين حمقاء هكذا لا قرار لك.

كل القرارات مؤلمة.

ولكن أهونها على اختاره.

المهالك لا تحتاج لطُرق هي تحتاج لإيمان بالفشل كي تنتهي. وأنتِ قد استسلمت تلك المرة. أه من حماقة القلب الذي يدفع بصاحبه للاستسلام فيموت كمداً.

لكني أحاول النجاة ولا أجد منجى.

ربما حاولنا النجاة ولكن هل الاستسلام هو الحل.. اهزمي هذا الصوت.

لا تستمعي إليه لن يُفيدك الحب بشيء.

لن تقبلي الهزيمة.

أنتِ منهزمة لا محالة.

لكني أحبه.

الحب مُزحة.

الحياة دونه مُهلكة.

العقل يتكيف.

والقلب يُبتر مع الوقت.

لا تستمعي إليه سيقتلك.

بل أنا المنقذ أيها الأبله.

المجانين دائماً أصحاب عقول.

والعاشقين أصحاب قلوب، والبلهاء أصحاب رحمة.. فأرفق بها.

الرفق في الحياة استسلام.

لم استسلم لكني أفكر.

التفكير إن طال اعتبر هزيمة.

الموت لا محالة آتٍ لِمَ نفر منه؟

لا يأتِ سوى للضعفاء.

أنتِ أضعف مما تتصورين.

بل أنا الأقوى.

أنت صوت الباطل داخلها.

أنا صوت العقل الذي ما رغب في الاستسلام.

وأنا قلبها ونبضاتها.

أخرس.. لم تفز في معركة وحيدة في مسيرتك.

دوني الحياة جحيم.

أنت الجحيم الوحيد هنا.. أنت سبب نكستها.. بل سبب نكسات الجميع هنا.

أنا النابض بالحياة.

وأنا المُدبر لفشلك.

أنا أحبه ويكفيني أن أعيش على ذلك.

لكن مجرد التفكير في النسيان يُذكرني به، يؤلمني، يقتلني في النهاية باستسلام وأريحية، لأنني لا أرغب في ذلك.. هذا السكين المؤلم لا أقدر على تركه، قد أسير به، أنزف لا يهم النزيف ربما النزف أقل ألماً من القطع، على الأقل سأنظر إليه من حين لآخر فيُذكرني ببسمته فأبتسم.. لو انقطع عني سأموت.

٤١

لم يلتفت فريد إلى مذاكرته في الأيام التي تلت تقربه من نور.

كان يتخلف عن الكثير من المحاضرات والسكاشن، فقط لأنه على موعد معها، كانت تبدو لدرجة كبيرة في حالة من الرضا عنه. انفتح باب قلبها على مصراعيه كي تمنح نفسها فرصة الحب فتهيم. لكن هناك شيئًا يؤرقها دائماً. الوقت!

الوقت هو العنصر المُتحكم في الحب، ومعه تمضي القدرة رغماً عنها فتستسلم وينتهي كل شيء بالفشل لأن الوقت لم يُنصف صاحبه. سبع سنوات في كلية الطب، ثم يبدأ بعد ذلك في تحديد مصيره، ماجستير ودكتوراه، وصراع دراسي جديد لا ينتهي، مهما كان يملك الشخص نفسه من قلب جوهري وحب مقدس في نفسه يقوده ناحية الإخلاص لا النفي والفرار بل القناعة والوفاء لَمن أحب.

لكن الوقت. الوقت جهد كبير دون مال، وفريد تعلم ظروفه، كانت مع كل كلمة ينطق بها تفتح باب قلبها قليلاً حتى بات الباب مفتوحاً ودخل قلبها ولم يخرج، لكنها لم تُغلق الباب لاضطرابها. فبات هذا الحب مهددًا بالرحيل في أي فرصة.

فكلية الطب التي تظهر كحلم كبير هي كابوس للطبقة المتوسطة، فتقضي على عنصر الحب الموجود في حياتهم ويُنحى جانباً ليحل محله صراع آخر وهو إثبات النفس التي تقود صاحبها وأسرته معه إلى حياة

كريمة بعد عناء، ومكابدة الآلام التي حاولوا أن يوفروا بها حياة كريمة له، وعليه أن يردها.

لم يكن يتصور فريد أن يأتي اليوم الذي يتقرب منها لهذه الدرجة، كان يخشى ذلك، حتى أنه أعتقد أن لسانه سينقطع في حضرتها، واليوم هو يُملي عليها كل ما في صدره دون الحاجة لفرار أو تكلف أو شعور بالخجل، فضلاً عما يعتريه وهو معها، فيكاد وجهه من شدة الخجل ينفجر، وقد سيطر مع الوقت على ما كان ينتصب فيه فبات عادياً، فرهبة هذا اللقاء كانت ولا زالت تُؤثر عليه.

وما كان يظنه قديماً من عدم القدرة على مصارحتها أو الرغبة حتى في الاقتراب منها، كان لأجل ظروف مادية هو أعلم الناس بها. كان يخشى أن يدنو وينطق بما في صدره ثم يأتي السؤال المرتقب، ماذا بعد؟ ألن تأتي لزيارة أبي؟

حتى وإن ذهب سيعود أدراجه مُنكس الرأس خاسراً كل شيء، البنت تكبر وفرصها في الزواج تقل، ثم ما الذي يُثبت أنك لن تفر منها مللاً وتذهب لغيرها، وتفقد هي معك عمرها بعدما تركت من أجلك فرصاً سعيدة كانت ستوفر لها عالماً خيالياً، حتى وإن لم يكن هناك أي فرص. لكن الأهل يتعمدون أن يثيروا بل يُعَجّزوا العريس كي لا يختال ولو بميزة واحدة وتنكسر رأسه، ومن بعدها قلبه.

الحب لغة مادية عند الفقراء. والمال!

ينظرون إليه على أنه المنجى الوحيد لحياة ابنتهم أو لحياتهم معها. فمن يدري قد تكون الفتاة فاتحة الخير على كل البيت. حتى لو سرقت زوجها.

فتُصبح الفتاة سلعة تُباع وتُشترى في مزاد علني بالمهر.

ألا ليت كل الحب مهر.

كانت الساعة الرابعة عصراً.

اشتد زحام ميدان الجندي المجهول عن آخره، فترى الناس فوق بعضها البعض على سيارات الأجرة وكل له صرخته «تعا مندرة بحر مندرة بحر.. بشر يا أستاذ.. عصافرة قبلي يا صاحبي.. محمد نجيب أين.» مر بها هذا الزحام ليسير خلف المحكمة مُتجهاً لأحد باعة الكبدة كان إبراهيم قد عرفه عليه، إنها المرة الأولى التي ترغب في إفساد نظامها الغذائي، وهي من رغبت في الكبدة. عرض عليها الفلاح ولكنها لم تكن تُحب مجلسه.

فاقترح أبو حلمي.

كانت تسير إلى جواره في زهو مُتبخترة، تنظر إليه بين الحين والآخر، فيُبادلها النظرة فتلتقي الأعين.. تسري رجفة من الجسد للجسد، يحاول أن يمسك بيدها لكنها ترفض بدلال ساحبة إياها، فيضحك وتضحك لضحكه.

المرة الوحيدة التي تركت يدها له كانت في ظلمة البحر، وقد انقطعت الكهرباء وكانا يسيرا إلى جوار بعضهما البعض، وأصابت بالذعر فلم تجد مانعاً من أن تترك يدها إليه، ولكنها لم تكن تعلم أن هذا الإحساس الآسر سيتملكها، ففقدت كل أعصابها عندما تخللتها برودة يده، وارتجف قلبها، وتعرقت يداها، وما تدري إلا وهو يرفع يدها مقبلاً إياها، فأرخت جسدها لتلك القُبلة، لم تُعاتبه تلك المرة ولم تحاول أن تفتح معه هذا الموضوع وهي حاسمة معه في كل تصرفاتها طالما تعلق ذلك ولو بلمسة يد، ولكن شعوراً لم تكن لتُجربه من قبل وهي مسكة يد، ما كانت تعرف أن الأمر سيصل لذلك، ولكنه كان أعظم إحساس وصلت إليه فضلاً عن تلك الأحلام، التي تجد نفسها طريحة الفراش تتلوى.

أخذ ينظر إليها بعدما أكلا.

وظلا صامتين للحظة، يتأمل كل منهما الآخر.

قطع هذا الصمت صوت هاتفه.. كان إيهاب.

ترامى إليه صوته دامعاً:

- أختك انتحرت.

٤٢

انتهى كل شيء، وبات ما بداخلها من شدة اضطرابها لا يُحكى، لم تُفكر فيروز في الحديث إلى أمها مرة أخرى بشأن ما تعرضت إليه من شتائم. تحاملت على نفسها، وعادت الهتافات والسب والقذف بابنة الزبالة من جديد. لم يقدر أحد على ضربها ولكنها لم تقدر على لجم ألسنتهم.

كانوا يعترضون سبيلها وتلك المرة زاد الاضطهاد وزاد معه عدد الحاقدين عليها.

فلم يكن الثلاثة التي اعتادت فقط بل اتسعت الدائرة فكانوا ثمان أطفال.

لم تكن تعلم فيروز منهم سوى أماني الغيطي وأميرة بيومي، وأمل محمود. الثلاثي الذي كان يُطاردها أيام مدرسة الصالحية.

حاولت أن تختبئ منهن لكن لا مفر.. وكأن الجميع يبحث عن سبب كي يقضي به على غيره سبب واحد يُنكس به رقبته للأبد، ويقضي فيه على أحلامه كلها ويبدد بها نجاحه.

في الفسحة كانت تقف فيروز إلى جوار غنوة حاولت أن تبكي عندما مررن إلى جوارها وتضاحكن منها لكن صوت داخلها منعها من البكاء، فحبسته، فضلاً عن كل حواسها الباكية، ورحلت وتركت غنوة مع انتهاء جرس الفسحة.

قاست بهذا الفصل الدراسي من الوحدة ما يقتل، تنمر بسب، وقذف، وربما احتكاك ملعون يجعلها تتكور على نفسها أكثر فأكثر، ما جعلها تنضب. ولم تلتفت أمها إليها في تلك الأيام، ولم تلحظ تلك التغيرات التي طرأت عليها، لم تعد فاطمة هي الأم التي تحنو على أحد، باتت غوايتها الجديدة هي كل ما يدفعها بأمل في الحياة بأنانية مفرطة، فعادت لتبرجها من جديد، وعادت لألوان كانت قد فقدتها بعدما عاد عطية كي تسود عليه حياته عن عمد، ولا يراها مرة تبتسم، فضلًا عن كونه لم يعد يقترب منها، حتى إجازته كان قد تمنع عنها، يزورهم حينما يُجبر على الأمر بإجازة رسمية، أو تغلب عاطفته شيطانه فيعود ليرى مَن لم يعد يحب لقاءهم؛ كي لا يشعر بوخزة ضعف تقضي عليه بالشك.

وانتقلت عدوى إهمال فيروز وأثرت على حياتها، حتى لم تعد تنطق بكلمة واحدة لأحد، حتى الحمام التي كانت تدخل أمها معها فيه فتشرف عليها لم تعد تلتفت إليه، كأنها ليست طفلة وإنما امرأة بالغة.

قرفصت فيروز في الحمام، وحاولت أن تمنع نحيبها، لكن دموعاً غزيرة لم تقدر على كبحها.

وزفرت من شدة الألم وآنت آنة خافتة وارتفع من بعدها صوت نحيبها، لكن حمامات المدرسة قد خلت تماماً من الجميع ولم يبق فها أثر لأحد.

وأخرجت كراستها من شنطة ظهرها.. وكتبت.

« أنا أحبك يا ماما.

وأحب فريد وفريدة وبابا. أحبكم جميعاً.

أحبك لدرجة أني لا أقدر أن أتسبب في أذاكِ».

كانت تكتب والدموع من عينيها كزخات المطر تُبدد أثر الكلمات، فتموج الصفحة من حبر القلم.

وأغلقت الكراسة ووضعتها في حقيبتها.

وكان الحمام يبعث على شيء من الرعب في تلك الظلمة مع اقتراب المغيب. فتخلله بصيص من نور لا يبعث على شيء من أمل. وكانت سماء شهر إبريل قد غُبرت وحملت ريحاً قوية تُنذر بصاعقة، ولم تمض دقائق حتى اسودت السماء وأمطرت.

فكت فيروز موس البراية وفعلت كما رأت على شاشة التلفاز.

وبدا الصوت الذي يؤرقها يهدأ قليلاً كلما دنت من فعلتها خطوة، حتى تبدد الصوت نهائياً بقطع شريانها.

٤٣

غابت فيروز، قالوا إنها ذهبت للبيت.

ولكن البيت نفسه لم يعلم عنها شيئًا. بحثوا عنها في كل ركن في القرية وبالمدرسة، ولم يكن في بال أحد أن تكون بالحمام. حتى كسرت إحدى العاملات الباب وهي تصرخ لما رأت خيط من الدم قد حاد عن مسيره إلى المصفاة فخرج من الباب.

وحملتها على يدها وهي غرقى بالدم، تصلب جسدها، وفقدت وعيها، بل فقدت الحياة كلها فما عاد لها نبض، كانت تنزف منذ وقت ولم ينقذها أحد.

ماتت فيروز.

ماتت ثمرة الحياة وجنة البيت، وصوت البلبل في الصباح يُغني، وفي المساء يُنشد وبين صباح ومساء يُداعب كل من يعرفه ومن لا صلة له به قبل أن تنطفئ بالإهمال- مؤخرًا. رحلت وخلفت وراءها عالماً فقد إنسانيته في صور أطفال اعترتهم الأنانية والحقد في سن مبكر.

لم تُدرك فاطمة الأمر في البداية، كانت مقدمات طويلة عن الصبر من أستاذة عفاف، لم تفهم، حاولت استيعاب الأمر، وما تدري إلا وقد حملها أستاذ على يديه يتدلى شعرها على جبينها، وبوجهها بسمة خفية، ودمعة عالقة، وروح لم تُدرك ما فعلته بنفسها.

اقتربت فاطمة من فيروز، وحملتها عن الرجل، وحاولت أن تُيقظها، أخذت تُداعب وجنتيها، وتقبلها، والجميع من حولها يبكي، لم تبك فاطمة من هول المشهد، حاولت نهرها، لكنها تهتز ولا تنبض.

قالت الأستاذة عفاف في أسى:

- البقاء لله.

لم تستمع إليها، فقدت سمعها تماماً خلقت من الجو العام حائط منيع يفصل عنها الدنيا كلها ولا يُبقي فيها إلا صوت فيروز.

قالت وهي ترفعها من ظهرها من على السفرة:

- قومي.. غني معي يا فيروز. تعالِ وضفري إلى شعري وسحبت (الإيشارب) عن رأسها وطرحته أمامها- غني ليّ.. أحكِ عمن يأتون بخيالك ويخبرونك بأنك أجمل بنت في الدنيا.

ثم وهي تنظر إلى مَن اجتمع بالشارع والتفوا من حولها:

- لِماذا لا ترد عليَّ؟

وأخذت تصرخ وهي تضمها بشدة:

- فيروز.

وترامى إلى سمعها أحدهم وهو يقول:

- لقد ماتت.

فقاطعته بحدة وهي تصرخ فيهم:

- ارحلوا من بيتي فلستم مرحب بكم فيه.

واحتضنتها عفاف وهي تصرخ فيها:

- يقولون إنها ماتت وهم الموتى. لم تمت بنتي.

دخلت فريدة مهرولة لمّا ترامي إليها الخبر.. فلم تُصدق، لم تنظر لأمها، بل لرفيقة مراهقتها فيروز.. تذكرت كيف حملتها على يدها، وكيف كانت تُبدل إليها ملابسها، وكيف شعرت بحب الأمومة في وجهها وهي تُدللها، كيف سهرت تُغني معها، وكيف كانت ترقص وتتمايل على صوت غنائها، تذكرت متى ولدت وكيف كان الليل، تذكرت صرخات أمها وهي تصرخ ومخاضها ينزل عنها، تذكرت كيف قال الأطباء أنها ستموت قريباً لضعف مناعتها، تذكرت رعايتها لها، وتذكرت كيف كبرت وباتت أمل البيت كله وصوت الفرحة فيه.

ضمتها إلى صدرها، وهي تنظر إلى يدها. توقف النزيف، توقف تماماً لكن أثر الدم الذي لطخ ملابسها وأرضية البيت لم يتوقف.

استمر نزيف الدنيا، وبات نزيف الأرواح أقوى. وجاء إيهاب وأبعدهم عنها، وحمل فيروز وفاطمة تحاول أن تأخذها فنهرها في صدرها وأبعدها ووضعها وهو يبكي على سريرها، وأغلق الغرفة وأبعد الجميع من الشقة.

وباتت فاطمة كالمجنونة تلطم وجهها وتصرخ فيهم جميعاً، وأمسكت إيهاب من تلابيبه صارخةً:

- أين أخذتها.. بنتي يا أولاد الكلب. فيروز.

وأخذتها سناء الخواجة وجماعة من النساء إلى بيت سناء المقابل ولم تجتز سور الحديقة الصغيرة أمام بيت سناء حتى فقدت الوعي، وسقطت فاطمة مغشياً عليها.

اتصل إيهاب بفريد ومن بعده عطية ناصف.

لم يكن يعرف ماذا يقول، اضطرب اضطراباً شديداً، حتى فقد عقله هو الآخر وبات الكلام منه صادماً فلم ينطق سوى كلمة الانتحار.

انهار فريد.. وبات عطية كالمجنون يُكلم نفسه.

شعروا بهزيمة الدنيا ونهايتها، لم تكن أي هزيمة، إنها فيروز.

هتف عطية:

– ليتني كنت أنا. ليتني كنت إلى جوارها.. لِمْ؟ وكيف؟

وأخذ فريد يجري كالمجنون ناحية المحطة، الجميع أصابهم حالة من الذعر والهلع، لم يقدروا على فهم اي شيء. وتملكهم الجنون والرعب فصرعهم.

٤٤

في العاشرة مساء كانت فيروز في المقابر تُدفن.

احتشدت القرية كلها مودعة.

لف الخبر كل القرية فلم يطرق باب بيت، إلا وقد ترك به حزناً شديداً.

وعاد الجمع من المقابر ولم تعد الأسرة والمقربين منها.

انكسروا جميعاً وانطفأت أرواحهم، فلم يعد لها شروق دون شمسهم.

التفوا حول القبر يودعون.

فاطمة تجثم على ركبتيها، تحمل من التراب وتضعه فوق رأسها، وعطية مستنداً على القبر برأسه، وفريد قرفص إلى قبر مقابل مُسنداً ظهره إليه، وإيهاب يحتضن زوجته. ونور كشاف خافت أشبه بأرواحهم وضع أسفل باب القبر، يُلقي الضوء عليهم مواسياً. لكن الضوء كان مُرعباً، فرأى كل منهم نفسه جلياً، ورأى كم كانت الحياة نوراً وباتت من شدة ظلمتها موحشة. تذكروا كل النعم، ورأوا أيديهم خالية منها تماماً. رأى كل منهم نفسه عرياناً وشياطين الإنس والجن تنهش في جسده.

كانت الحياة سعيدة فباتت غماً يعلوه غم.

أنارت فانطفأت.

أشرقت فأظلمت.

كانت تبتسم، فبات كل عبوس حليفهم.

لم ير أيهم أشد من تلك اللحظة.. كان أول فراق حقيقي يشهدونه.

أيقنوا جميعهم حقيقة الحياة، فذبلوا.

شعر فريد بالدنيا تصغر أمام عينيه.

كفر بكل النعم التي يملكها، وما بقي منه سوى أسئلة مُرعبة لم يقدر على النطق بها.

ولكن أصوات صرخت داخله.

وجود الله تحبطه الانتكاسات.

بل تُظهره أيها الأبله.

إن كل الوجود عدم.

بل كل عدم وجود بحد ذاته.

إن الله يكسر القلوب ويُميتها.

بل يُحييها بالابتلاء.

إننا لا نموت إلا من موت أنفسنا بهذا الابتلاء.

إنه امتحان.

بل انتكاسة.

الكل يقدر على تحويل الانتكاسات لنصر.

النصر الحقيقي لا يأتي دون هزيمة. وأنت لست بمنهزم بل ميت.

ماذا أفعل وأنا العاجز.

وهل القدرة تتوقف على القادر. كل عجز خُلق من عاجز أنار قدرته.

القدرة نفسها ترحل.

وهل الهزيمة تبقى.

كل الهزائم صراعات.. والصراع الأزلي أن تعترف أن لا وجود لله.

وهل وجوده من عدمه يُحبط فكرة الابتلاء.

إنه الطريق.

يبدو مظلمًا وكل طريق مظلم لا نور فيه لا يُعول عليه.

هذا كلام الصوفية الذي لحس عقلك.

بل منطق وعقل.

المنطق نفسه لا يغفر لصاحبه ولا يُنجيه.

الفلسفة صراع بين الحياة والموت.

الموت نتيجة الحياة الفعلية والحياة ظل الموت في العودة.

لكني مؤمن بهما.

أنت كافر بكل ذلك.

بل مؤمن والله مؤمن.

أنت الكافر بكل النعم أنت الجاحد بكل شيء اعترف أمام نفسك لا تخف .

فصرخ فريد بصوت عالٍ وهو يضرب الهواء:

- ارحلوا عني لا أرغب في أحد.. ارحلوا ملعون أبوكم.

لم يلتفت أحد لصرخاته، دوى الصوت في المقابر فأيقظ كل الأرواح، بات المشهد مرعبًا فأنطفأ نور الكشاف، فأظلمت أرواحهم.

ما أقسى الظلمة التي تُريك كم أظلمت من الداخل.. فما أظلمت رؤياك للحياة إلا من انعكاس ظلمتك.

أتت سناء الخواجة لتحمل فاطمة فأبت في البداية ولكنها فقدت كل طاقتها وباتت تنقل الأرض في مشيتها وعباءتها البنفسجية كلها تراب، ومحمد فؤاد أخذ عطية الفاني الذي ما بقي منه سوى هيكل ميت رحل كل شيء فيه ولم يبق سوى هذا الطيف الذي يرونه وقد حمل إيهاب زوجته، ووجد فريد نفسه محاطاً بظلمة موحشة وحيداً من جديد. عاد إيهاب فحمله على كتفه وبات يتمايل في مشيته وطقطقة عظامه تُسمع مَن في القبور لعدم رغبته في المغادرة. وأظلمت السماء، واختفى القمر، وبات الهواء مكتوماً لا يسع الأنفاس، وانعدمت الرؤية، وأصبحت روحها تُرفرف حول القبر ترتقب.

٤٥

حاولت فاطمة أن تنتحر من بعد فيروز، محاولة فكرية فقط.

لكن الألم كان أقوى من أن تقبله. تمسكت بالحياة حتى في أقسى لحظاتها قسوة.. فقدت كل بريقها دفعة واحدة، لم تكن لتلتفت لنفسها، وهي التي ما كانت المرآة تُفارق يدها.

امسكت بكل لعب فيروز، كانت تحتضن كل واحدة منها، وتنظر في كل تفاصيلها محاولة تذكر كيف أعجبتها وأي حياة كانت ترسمها لهم وأسماء كل منهم.. أخذت تُردد أغانيها كالمجنونة، وتبكي، لم تترك غرفتها وظلت على هذا السرير تنام وتصحو وصورتها لا تُغادر عينيها.

هل يُعاقبني الله على أخطائي؟ إنني بشر وكل البشر خطاء.

ولكنك تماديت في الخطأ.

أيكون العقاب بهذه الدرجة.

إن الابتلاء أحياناً يُخفف من حدة اللقاء الأخير.

لكني فيما أنا فيه الآن إنها الحياة.

أنتِ أضعف من أن تُبدلي النهاية فتختاري الموت، الكل هنا مسير ولا يقدر على تحويل دفة الدنيا كما يرغب.

الدنيا.. هي دنيا والله.

وبعد ذلك.

سـأنتقم مـن الحيـاة في نفـسي.. مؤكـد لـن أعيـش هكذا مجـردة مـن النِعم كطفلتي .

أتجحدين بما أنتِ فيه من أجل لذة.

وبما تُفيد الحياة دون لذاتها.

الجحيم ينتظر.

بل ما نحن فيه أشد بلاءً من الجحيم.

هو كوة منه.

بل باب كبير وفُتح على مصراعيه وما عاد لنا منجي.. فلنعش إذن.

إن الانتصارات الصغيرة لا تتوج.

ولا الكبيرة يُلتفت إليها.. نحن فقراء.

الفقر ليس عيبًا.

العيب أن تترك الحياة تُجبرنا على خيارتنا من أجل وهم.

الحقائق أصلها أوهام.

عندمـا تجتمـع الحقائـق مـع الأوهـام سـأختار الأوهـام لأنهـا الأكثـر لذة من هـذ السـخط.

أتستسلمين لنزواتكِ؟

بل أصارع لأجلها.

وحاولـت طـرد هـذا الـصراع الداخـلي، لكنه عـاد وبقـوة وصـوت رابع حـاد يـصرخ فيها:

- مَن قتل يُقتل ولو بعد حين.

فتكورت على نفسها وحاولت أن ترقب صاحب الصوت لكن لا أثر له، حدقت أنحاء الغرفة بنظرة ملأها الشك.. دمعت عيناها وارتعبت، وشعرت بجسدها ينتفض، فشدت على رجلها وحاولت أن تُسيطر على أنفاسها وتنهدت بشدة وبات صوت زفيرها يعلو وصرخت:

- ملعون أبوكم كلكم.

لم يلتفت عطية الجالس بعلبة سجائره في الصالة يُدخن.

لم يكفيه علبة كل يوم، فاشترى من سوبر ماركت أبو فريدة الذي فتحه إيهاب في نهاية الشارع بدلاً من محل أبيه الفرارجي (قاروصة) سجائر كاملة له. يسحب منها ما يكفيه يُنهي كل يوم بالأربع علب والخمس، بات شبحًا يعيش في عالم افتراضي بنفس مسترخية وبلاهة تبدو في وجهه الذي اختفت ملامحه وباتت كلها عظام بارزة، وعينيه المحمرة من الأرق والدخان.

أصبح عطية ناصف في أقل من سنتين مجرد جسد، هالة فاقدة لكل معاني الحياة، تسير على الأرض وما هي بسائرة، لو أتت ريح خفيف لحملتها معها ولن يُبالى أحد به؛ لأنه لم يكن موجوداً.

انتقص أكله، وفقد وزنه، ولم يعد يُقبل على شيء سوى السجائر، وعرف طريقه للحشيش كلما توفر معه بعض الجنيهات. وإن سمحت له الفرصة (فبرشام) لا بئس به؛ كي يقوى على ممارسة يومه، كان (الترمادول) لا يُغادر جيبه إن سمحت له الظروف بشرائه، حتى اعتاد عليه، لم يكن قد أدمنه، فهو يخشى أن يُدمن مثل هذه الأشياء ولكنه يأخذ بحذر ما يكفيه كي يبقى متيقظاً.

يقول في نفسه دائماً بعد كل ربع حبة ترامادول:

– أنـا أخـذ هـذا السـم كـي اسـتيقظ.. كـي أعاقـب نفـسي عـلى كل خطأ فـادح ارتكبتـه في حقـي.. أتمنـى أن أُقيـم محاكمـة لنفـسي أشرح فيهـا بصوت عـال كل انهزامـاتي، استسـلامي وخنوعي لـكل شيء.. أنا جبان حقـاً.. بئس الإنسـان المُسالم.

دخـل غرفة فريـد يتمايـل، فوجده مُنكـس الرأس يُحـدق في كراسـة، ينظر إليهـا بعـين دامعـة، لم يلحـظ فريد دخـول أبيه الغرفـة رغم صريـر الباب.

ولم يقطـع عليـه تفكيره، كان يُحدق في شيء يبـدو مهماً. كان يتمنى أن يجلب كتابـاً يقرأه من مكتبتـه التي منحها لابنه. طلعت الفكرة في رأسـه مرة واحدة، ولم يكـن ينـوي القيام بهـا، لكن صـوت داخله ناداه مـن أعماقه بأنـه في حاجة لكتاب يقرأه، كي يرى أي بؤس وصل به. أي رواية تلك التي رمى نفسـه بها.

إنهـا ليسـت رواية بـل ملحمة سـيئة، وواقـع مدنس مـن الخيانـة والدناءة والخسـة والحقارة.

كلها معانٍ واحدة لكن لكل منها حادثة في نفسه وصفها بها.

أنا لا أستحق الحياة.. ولا أستحق الموت.

لن يقبلني الموت وقد رفضتني الحياة.

وأغلـق باب فريـد وخرج إلى الصالـة الفسـيحة ينظر إلى ألوانهـا الجديدة، فحـن إلى اللـون الأزرق الباهـت الـذي كان يميـل إلى البيـاض عنـد أطرافه، مـا أغـرب هذا اللـون البنـي بأشـجاره الكثيفة المرسـومة في هـذه الأجناب.. لقـد كان هنـاك فـارق دائـماً، لـكأن البهجـة كانت تصحـب البهتـان الواضح للأشـياء، وهـذا السـقف المُـزدان بالجبـس ما أقبـح ألوانه.

لقد تلطخ كل شيء جميل بالدم، وبالخيانة والدناءة والخسة والحقارة.

أنت أناني.

لم أكن يوماً أنانياً أنا الوحيد الذي ضحيت.

جميع من يفعل شيئاً هيناً في الحياة يقول إن أكثر من ضحى.

بل ضحيت ولم أكن أنانيًا.

أنت جبان وخسيس وحقير وخائن، وكل صفة ترى فيها غيرك هي انعكاس لصورتك التي لم ترغب في مصارحة ذاتك بها. من خان؟ ومن عُرف بدناءته؟ ومَن عاش حياته مُحملاً بثقل لم يقدر على مواجهته حتى صُرع لأجله.

لم أكن أرغب في كل ذلك.

أتدري.. الجميع يقول مثلك عندما يكون المأزق كبير.

ولكني أفضل من غيري.

أنت أحقر إنسان في الكون. أتحب أن تسمع قصة حياتك وكيف اتسخت بدناءتك.

أعرف كل شيء.

أنت لا تعرف سوى ما ترغب في سماعه.. سُعاد ابنتك.. أنت لا تقدر على أن تُناديها بذلك.. ولن تذهب مرة أخرى لضحى كي لا تفقد ما بقي من كرامتك إن كانت هناك كرامة حقاً.. أنت مجرد شبح لا وجود سوى لأفعالك الدنيئة.

ولكن الجميع خانني.

مَن هم الجميع؟

فاطمة.

أتُمثل لك جميع الناس.. أليس الإدانة بثمن؟ كل شيء له ثمن في الدنيا، أنت لا تجني سوى ثمار حياتك.. كيف يزرع المرء الشوك ويتمنى أن يجني الورد... هيهات أن يحدث.

لكن كثيراً يحصدون الورود وهم ما زرعوا إلا الشوك.

الشوك الحقيقي في أنفسهم، كل الفرحة في عيونهم هالات سوداء لا معنى لها.

أنا لا أرغب في الحياة.

ولا ترغب هي فيك.. أنت زائد عليها برائحتك الكريهة التي تفوح منها سجائر تعلوها سجائر وأصابعك التي بدت كالمومياوات أنت مجرد شبح لا وجود له.

لكن هناك مَنْ يعتمد على.

هو مُنكسر مثلك.

بل هو الأقوى.

الضعيف لا يُنجب إلا مَن هو أضعف منه.

لكني....

فقاطعه صوته الداخلي بحدة:

أنت لست معنياً بشيء.. لقد رحلت وما بقي منك سوى هذا الصراع الداخلي.

أنا هنا دائماً كي أقوم بدوري.

أنت كومبارس.. والحياة لا تحتاج للمزيد منكم.

بل أنا البطل.

بطل الانتكاسات والانهزامات.

على الأقل فزت في شيء.

أهذا هو صراعك وما تستحقه وأنت بهذه القوة العقلية.

خمدت مع الدنيا.

تستسلم مجدداً.

الاستسلام أحياناً نجاة.

النجاة من الموت موت.

ولكني لا أرغب في الحياة.

ولا تقدر على طلب الموت.

لو سُمح لي لِمتُ بكامل إرادتي.

لن يقبلك الموت. الموت يقبل الأبطال الأخيار.

وأنا بطل.

أنت مجرد كومبارس حقير.. والجميع يُصفق للبطل، وقليلون هم من يلتفتون نحو الكومبارس ولن يلتفت أحد لك لأنك ظل ميت.

الظل له أثر على الأقل.

لقد تلاشى.

وقرع جرس البيت وأتت فريدة لتُعد لهم الغداء، هي الوحيدة رغم قربها من فيروز التي قدرت على الخروج من تلك الهوة، فرق معها الحب، فأحياها، فقدرت على الوقوف من جديد كي تُكمل.

وكانت الساعة على مشارف السادسة والحياة تميل إلى الموت، والشمس تُرسل في المغيب طيف استقبالها بأكفان قانية وأخرى ذهبية؛ لتعود بالحياة لَمن يستحقونها، فقد سأمت من أنفس أنهكت نفسها فأهلكتها. وحاولت الفرار.

٤٦

مر شهر كامل على وفاة فيروز.

سافر عطية إلي مصر في فرصة عمل أفضل من السويس، إلى العاشر من رمضان، فلم يعد يطيق النظر في وجه زوجته نهائيًا، ولو جلس أكثر من ذلك لقتلها. تبدل حال البيت تماماً فأصابه الشحوب والموت.. فلم يترك جزءاً في جدرانه إلا هدمه.

أجروا الدور الأرضي من البيت للدكتور إسماعيل أيوب، صاحب أشهر صيدلية بالقرية تحمل اسم أبيه. لطالما كانت فاطمة ترفض ذلك؛ لأن جهاز فريدة كان ملء الدور كله فيما سبق. أستأجره الرجل بألف جنيه بعد مساومات. ونقلت فاطمة غرفة الفرن بأكملها إلى بئر السلم.. وعادت فاطمة لحيويتها من جديد، وشعرت بطيف الحياة مختلفاً، فاختل عقلها وزادت من بهرجتها وتبرجها، وفَجرت في النهاية بأفعالها فما عاد أحد قادر على التصدي لِما يصدر منها.

لم يكن فريد في تلك الأيام يرد على أحد.. خرجت نغم من كبوتها بخسائر كثيرة، ولم تنس حبها له. حاولت أن تتصل به، لكنه لم يُجِب.. كان ينظر لرسائلها ويصمت. وحاول إبراهيم معه ولم يقدر على الوصول لشيء، حتى سليمان قد سأل عنه.

لم يكن يرغب في هذا الصخب من حوله.. كان ينتظر مكالمة واحدة تُخرجه مما هو فيه، من شخص يُحبه. ارتقب هذه المكالمة ولكنها تأخرت،

كان يعد الأيام حتى رفضت الأيام عدها، وما يدري إلا وقد مر شهر كامل؛ أفقده كل توازنه؛ فبات شاحباً ذابلاً، وأطلق لحيته أمامه فبات كمشايخ القرية من الدعوة السلفية.

عاد إلى الجامعة مُنطفئ، هرب من البيت الذي يُذكره بكل الذكريات السيئة، البيت الذي بات خرابة تنهش في أرواح الجلوس فيه. فقد شغفه بكل الحياة وبات مجرد شبح يرتقب اللقاء المعهود.

تذكر آخر مرة كانت معه.. أبو حلمي، وصوت إيهاب صارخًا لقد انتحرت أختك.. ظن أنها فريدة في بادئ الأمر وكانت فيروز.. أي جنون هذا؟

لماذا لم تتصل بي أين هي؟

ألا يجدر بها أن تكون إلى جواري؟ أليست هي الأقرب من كل هذا العبث والسخط من حولي.. لقد انتظرتها كثيراً لكن طيفها فقط هو ما كان يؤرقني.

أين هي؟ مؤكد ستكون بالجامعة يجب أن أراها.

حاول أن يتصل عليها، ولكن هاتفها كان غير متاح دائماً ثم رُفع من الخدمة بعد ذلك.

جُن جنونه. وحاول الوصول إليها فقضى أياماً أمام كلية العلوم.

كان لقاؤه مع نغم مليئاً بمشاعر تمنت أن تُخرجها إليه. لكن منظره روعها، وأثار في نفسها السخط على الحياة.. كيف وصل به الحال لذلك؟

بكت عندما أخبرها وقد كان يؤثر الصمت على الحديث، وعندما ألحت أخبرها بكل شيء.. تَمنت أن تحتضنه ويبكيا سوياً.. عاتبته كما عاتبه إبراهيم وسليمان، لكنه لم يسمع سوى صوت الشفقة وشد ما يكره أن

يـرى الشـفقة في عيونهـم. لم يلتفـت لـكل مَـن حولـه كان يرقـب صوتـاً آخر لكنـه لم يـأتِ. تأخـر كثيراً.

سـأل في زيارتـه يـوم الخميس وفـاء البيباني فقالت لـه» آسـفة؛ إن خطبتها كانـت من أسـبوعين عـلى وكيل نيابـة يقرب لأبيهـا من الإسـكندرية».

وقع الخبر عليه وقوع الصدمة على من أصابته الجلطة فكان موته.

تمنى أن يموت قبل أن يسمع هذا الخبر.

حاول أن يستجمع كل قوته ولكنه خار في النهاية.

سـمعت فاطمـة صـوت بـكاءه فجـرت ناحيتـه؛ لتعلم مـا الـذي أصابه، لكنـه لم يتكلـم، حاولـت أن تُرغمه على الحديـث فما كان منه سـوى الصمت. ولأول مـرة يلتفـت عطيـة لأحـد مـن بعـد وفـاة فـيروز دخـل إليـه الغرفـة، وأغلـق البـاب وظـل صامتـاً، وفريـد قـد أسـند رأسـه عـلى ركبتيـه بعـد أن ضمهـما إلى صدره.

قال عطية في هدوء بعدما نفث دخان سيجارته:

– لا ينزل بالرجل الأرض سوى امرأة.

كان صـوت أبيـه ذا طابـع خـاص، خاصـة في أيامـه الأخـيرة، أصـاب صوتـه خشـونة غير معهـودة ورزانـة وثقل في نطق الحـروف فباتت بـارزة. لم يلتفـت ولم يرمقـه حتـى بنظرة.

فاستطرد عطية:

– أتظـن أننـي لم أكـن أعلـم أنك تُحـب.. لقد رأيـت الحـب في عينيك منذ المـرة الأولى.. لكنـي كنت أحسـب الأمر سـيمر وفـترة مراهقة تُوقـن منها أن الحيـاة لا تُحتمـل ولا تُبقـي لنـا سـوى بعـض ذكريات الحـب مُحملـة بالدموع والفقر.

وأشعل سيجارة أخرى غير التي انطفأت، وأردف:

– أنا هنا كي لا أقسي قلبك.. أنا أعيش فقط من أجلك أنت.. فيروز ربنا يرحمها ماتت وتركت فيَّ أثراً لن يُداويه سوى الموت.. والموت يرفضني.. وأختك قد ذهبت لبيت زوجها وهو يرعاها ويُحسن رعايتها.. ولم يبق ليَّ في الدنيا سواك.. يُحزنني أن أراك تُضيع نفسك ولا أنصحك.

ومسح عن عينيه دمعة، وهز كتفيه استهانة بعدما تبسم ساخراً:

– أنا أعلم أني لست أهلاً لتلك النصيحة، لكني بما مررت به في الحياة أقولها لك: إن القلب الذي ينبض لصاحبه ويوجهه سيقتله بكل نبضة نبضها لغيره.. ستموت.

وسحب نفساً من سيجارته، وأخرجه مع سهلة حادة، تحشرجت لها أنفاسه، وأخرج منديلًا من جيبه وتمخط، وقال ساخطاً:

– الحياة كالموت كلاهما رغبة.. الأولى تأتي في سن مُتقدمة.. والثانية إن سيطرت عليك فطلبتها مُبكراً فستموت كل يوم، ولن تحصل عليها إلا في موعدها. اصنع قاربًا صغيرًا يكفي لأحلامك، ضع به فقط مَن اشتراك دوناً عن الدنيا.. حب من يُحبك وابتعد عمن صدَّر إليك صورة لم ترغب بها. وسامح حتى مَن جعلك تشعر أنك لا تستحق الحياة. وعش حياتك ففيها الكثير من الفرص التي تحتاج منك التفاتة.. التفت قبل أن يجي الوقت الذي تفقد فيه بصيرتك.. واعتزل ما يؤذيك كما قال بن الخطاب.

تمنى أن يصرخ فيه:

– كيف يعتزل المرء ما يؤذيه ومعه جزء من روحه إن لم تكن كلها.

وقام من مكانه راحلاً، ونفث آخر نفس بسيجارته وفتح الباب وعاد كأنه تذكر شيئاً، وقال بعدما سعل:

– لا أنتظر منك رد عما استمعت إليه.. أنا أعرف أنك عاقل كفاية كي لا تُلقي بنفسك في تيار الموت.. مهما كان الفراق صعباً.. ولتعلم أن هناك من يُحبك حقاً حتى وإن كنا نحن، فحبنا يكفي فنحن أهلك.

وأغلق الباب ورحل.

لم يكن يعرف فريد أن أباه يحمل إليه كل هذا الحب.. لقد شعر بالخبل الذي أصابه في الأيام التالية لوفاة أخته، بل من قبل ذلك منذ عودته من السعودية وقد ذبل تماماً؛ وباتت تصرفاته غريبة لدرجة مُرعبة حينما يعود في إجازة. فلم يُنكر أنه أحب الكلام وأثر فيه.

لكن أثر الحب لا يُنسى هكذا، ولو عشت عليه ألف عام إلا خمسين.

وعاد إلى المدينة.. وواظب على دراسته، وكانت نغم إلى جواره خطوة بخطوة، والامتحانات على مقربة شهر فلم يعد هناك وقت.. لكنه أصر على لقاء نور كي يستفهم عما فعلته معه، ولو أضاع كل حياته في انتظار لقائها.

٤٧

قال فريد:

– لكننا لا نختار مَن نُحب ومَن نعشق.

– ولا مِـن حقنـا أن نُحمِّـل مَـن أحببنا أعبـاء اختياراتنا. كمَن علق سـتائر الوهم في سـماء بـلا عمد.

فقال فريد في أسى:

– ولكنه يكون قد أحب حقاً.

فأجابت بصرامة:

– هذا نتيجة حماقته.

– ولكنك قد فكرتِ ولو...

فقاطعته محتجة، وقالت ببرود كأن الكلام قد رص داخل رأسها من قبل:

– مَـن أخـبرك عـن ذلـك فقـد أخطـأ، الحقيقـة أن الفـرص التـي تـأتي لا تتكـرر ولا تنتظرنـا، فكـر بعقلـك لا بقلبـك كـي تنجـو.

فشـحب وجهـه قليـلاً واخترقـت قـواه قـوة كادت أن تُلقيـه عـلى وجهـه صريعـاً، فحـاول أن يتمالـك نفسـه، والقلب يخفـق ويضطـرب ولا يقدر على كبـح جماحـه، وعيناه من شـدة الدموع التـي كتمها تكاد تنفجـر في محجريهما..

حمقاء.. مَن يُحِب مثلي في هذا العالم ويُلَّقي به هكذا.. واستجمع كلماته ليدفع بها، لكنه ما كاد ينطق بحرف حتى أطبق ولَم ينبس.

فقالت بشيء من ثبات بعدما رمقته بنظرة بلادة بأن ارحل:

– إنك لا تهدي من أحببت، ولا تُجبر من أحببت على حبك. فالحب كالهداية.

ورحلت ورحل طيفه معها، وتعلق بصورتها لا يرغب في أن ينساها أو تسوء ذكراها عنده. وشارع أبي قير يعج بالسيارات، وشمس الأصيل تُخبره بأن كل شيء راحل عند المغيب، فقط سر على شاكلتك أو تحول لحيوان روتيني لا يري من الحياة سوي اليوم بيومه.

واستيقظ من نومه صريع أحلامه، هو لم يكن يتخيل أن يُصيبه القدر فيها هكذا، تلك اللحظة التي استجمع فيها قوته أمس كي يُخبرها تتبدد اليوم رماداً، كيف يُقابلها، وبأي وجه. مؤكد سينعكس الحلم ليصبح حقيقة.

تذكر أول مرة رآها في الصغر على باب المدرسة، وتذكر كيف كان يجري كي يلحق بنظرة منها، وهي تهرول عائدة من الدرس، تذكر كيف تحولت السنون السالفة كلها إلى قرار لا يملكه لأنه أحب، كيف يقنعها، أحقاً لو أحبته ستضحي بعريس اليوم لتنتظر طبيب العمر، ولكنه يُحبها، بل يعشقها.

ولكن الحب وحده لا يكفي!

وبهت، وبهت كل شيء في حياته إلاها فباتت هي ما يُنير الفؤاد في عتمة الحياة ويبتسم له الثغر في شدة البكاء، فكيف للحب أن يُنسى؟

ولكن قراراً لا زال يُثلج صدره.. يملكه.. أرعبه الكابوس ولكن الحياة أشد قسوة من الكوابيس مهما اشتدت ظلمتها.

ووقف على باب الكلية تلك المرة بعدما عرف موعد خروجها بالتحديد، اتفق مع إحدى صديقاتها على أن تُخرجها وترحل عنهما ليتحدثا بعدما عانى كثيراً كي يصل إليها.

كان الجو من شدة عتمته مؤلمًا، كأنه انعكس من نفسه فأنطفأ. كل الصور تبدو لدرجة كبيرة مُتشابهة في ظلمتها.. والطرق من شدة عتمتها موحشة، فقد كانت من يُنير له تلك الطرق وباتت اليوم ظلامها الدامس.

قال يستأذنها بصوت مهذب وهو يتطلع لعينيها التي وراتها:

– أمن الممكن أن نسير بعيداً عن هنا لنتحدث قليلاً.

فقالت في برود:

– أنا اليوم مخطوبة.. وخطيبي يثق بي، وأنا أحترمه جداً.. ومجرد وقفتنا معًا تنتقص من قدره وأنا لا أقبل بذلك.

– فقط دقائق.

– إن كان هناك شيء فلينتهي هنا.

فقال بصوت رخيم:

– لِمَ يا نور؟

فقالت وهي تُراقب الطريق بعينيها فراراً من لقاء عينيه:

– دعنا نعترف أنها كانت فترة.. وانتهت.

– فترة.

وضحك مستهزأً، مُتحسراً وهو يقول:

– الحب فترة.

فقالت في جفاء:

- قد يكون.

- وإن لم أكن أصلح لقلبك.. لماذا سمحتِ ليَّ بالقرب؟

- لن تفهم الأمر.

- صارحيني وسأفهم كل شيء.

- بل انساني أسهل مع جملة الأشياء المنسية.

- الحب كالنسيان كلاهما لا طاقة لنا به.

- حاول.

- لن أقدر على الحياة دونكِ.

- أنا لا أرغب في وجودك فيها.

- كل شيء يرحل ولا يبقى سوى الحب.. المال والمناصب وكل شيء.

- إن تعلقي بالحياة مرهون بما تُقدمه ليَّ من فرص.

- أنتِ تقتلينني.

- الموت الحقيقي أن نعيش على أمل ميت.

- الموت في سبيل حبك غاية.

- ما أكثر الكلام وما أقل الفعل.

- لكني أفعل ما بوسعي وأنتظر أن أنتهي من دراستي وسأكون كلي ملكك.

- الحياة نفسها لا تنتظر.. ستكبر وتنسى.. وستضحك على تلك الأيام.

- بل ستضحك هي مني وتسخر.

– لا تستسلم أنت تستحق من هي أفضل مني.

فقال منكسراً:

– أنا لا أرغب فيمن هي أفضل منكِ.. أنا أرغب فيكِ.

وقالت وهي تُنهي الجدل:

– وأنا لا أرغب فيك.. انساني.

– لكننا لا نختار مَن نُحب ومَن ننسى.

حاول أن يفر من تلك الجملة لم يكن يرغب أن يرى رد الفعل في هذا الكابوس المرعب الذي رآه.. سيتحقق كله على يديها.

نور لا تقتليني.. أنا لا أرغب في ظلمة أعيش بها من بعدك وقد أضأتِ كل حياتي.

فقالت بغلظة:

– ولا مِن حقنا أن نُحمل من أحببنا أعباء اختياراتنا.

فقال في حسرة:

– لكني لست بعبء.

– لست بعبء.. لكنك تجعلني أحمل عبئًا ثقيلاً بك.

كانت ملامح وجهها كلها باردة تخلو من الحياة.. ليست تلك الفتاة التي كانت بالأمس القريب تبتسم؛ فتبتهج الدنيا لبسمتها، وتُطيب خاطره فتزرع فيه زهوراً وأشجاراً من الحب ومادتها العشق.. رأى فيها شبحاً غريباً يضرب بسكين في صدره لا يرغب في نبضة منه قد تؤلمه بيوم ما.

امتلأت حدقته بالدموع، وكاد محجريه ينفجرا من شدة ما منعه، وحاول أن يتماسك لكن دمعة من عينيه عرفت طريقها لخده، فحاول أن

يواريها فرفع سبابته وتظاهر كأن شيئاً لم يكن.. مع إنها لم تلتفت. لقد كانت تراقب الطريق.. كان شارع أبي قير قد فرغ من الزحام، وبدت الأشجار مرصوصة في حذا واحد، كالمعزين في صوان العزاء، وها هو يحمل كفن حبه الذي أثلجته الدموع فقضت عليه، يحاول أن يطلب العفو من قلبه على ما ألقى به فيه، لكنه يأبى أن يُطاوعه دون أن يهلك وقد هلك.

فقال فريد يترجاها:

– امنحيني فرصة واحدة.

فقالت بلسان حكيم تود أن تُنهي اللقاء مرة أخرى:

– إننا لا نرغب في الأشياء بقدر ما تسوقنا إليها أقدارنا.. وكل الأقدار خير ولو أحزنتك.

– فماذا لو كان قدري أنتِ؟

– ما لم يسوقه القدر إليك فهو ليس لك وإنما وهم.

ووجدت أن عليها الرحيل فالحديث أثقل صدرها، وتَمنت أن تنشق الأرض وتبتلعها أو تبتلعه هو دونها، فهي تُحب الحياة وتعشق الفرص.

وقالت وهي ترحل مواسيةً:

– سيرزقك الله بمَن هي أفضل مني.

ورحلت.

وظل فريد جامداً مكانه لا يقدر على فعل شيء.. خارت قواه، فحاول أن يستند على ركبتيه براحته، لكنه ولوهلة شعر بقوة تخترق جسده فجلس على الأرض مستسلماً. وطرق باب عينيه الذي كان ينتظر أن يفتح عن آخره وبكى، انحدرت الدموع من عينيه، فانتثرت على الأرض في بقعة أخذت في الاتساع مع ما ينهمر.

حتى مرت من جواره سيدة عجوز شمطاء تحمل في يدها مناديل تُرزق منها، لُصق صدرها بظهرها المحدودب، ووضعت نظارة كبيرة على عينيها، أخفت كل ملامحها، لكن تجاعيد وجهها بدت عميقة الأثر، كأن الزمن قد خط فيها ألاعيبه، والبشر قد رسموا منها انكساراتهم، ترتدي عباءة سوداء تعفرت من كثرة ما ارتكزت إليه من أرصفة، ولفت رأسها بإيشارب من نفس اللون، لم يُخف من شعرها بقدر من أظهر. رقت لحاله، فجلست إلى جواره، وبوغت بيدها على كتفه، ظن أول الأمر أنها نور جاءت لتواسيه، لكنه صُعق بالعجوز.

قالت وهي تدمع لتُرفق به:

– أياً كان ما يُبكيك فالجأ إلى الله؛ فعنده تطيب النفوس.

فقال وهو يمسح عن عينيه الدموع:

– لقد تعذب قلبي.

فقاطعته المرأة وهي تربت على كتفه مُشيرة للسماء:

– الله.. هو علاج كل مريض.. مهما كان داؤك فالعلاج عنده.. ولا تبك فإن أثقل ما يُدمي القلوب هي الدموع من أجل بشر.

وصمتت لوهلة وأردفت:

– لا يستحقون.

وأخرجت منديلاً من علبة جديدة وباتت تُلطف من وقع الدموع على وجنتيه وهي تمسح برفق وتحوقل وتبسمل، حتى طاب خاطراً وعادت إليه بعض قوته؛ فنهض شاكراً إياها ورحل، ولا زالت روحه المنهزمة عالقة في هذا المكان لن تبرحه.

٤٨

لم يعرف طريقاً يسير فيه، بعدما قذفته الطرق وحملته الهموم من شارع إلى زقاق ومن زقاق لعطفة، ومن عطفة لنفس المكان الذي أدمى قلبه مجدداً.

كانت الساعة التاسعة مساءً وقد خلا شارع أبي قير تماماً.. أخذ ينظر لباب كلية العلوم المُغلق، وهو يتأمل طلتها البهية منه، وتذكر كل تفاصيل اللقاء بينهما.

كيف تموت الذكريات.

بجهل صاحبها بها.. حمقاء، وأنا أغبى منها. ما كان ليَّ بحبها.

وفكر ملياً.. فلم يجد فريد أمامه سوى نغم.

لا يعرف لِمَ هي بالذات، وليس إبراهيم مع أنه يجد معه سعادة خلوته.. ولكن خاطراً عابراً أنار بصيرته. ربما لأنها بنت وقد احتاج من يعوض وجود نور.. لكنها لم ترحل من قلبه، ولن ترحل. أو علّه اتصل بها كي تأتي فيرى فيها صورة نور مجدداً، أو يهزم صراعاً داخلياً بأنه فشل في الحصول عليها.

طارت نغم من الفرحة، رغم ما كان بصوته من حزن.

لكنها المرة الأولى التي يتصل فيها فريد لأنه يحتاجها.. احتياج حقيقي لا يشوبه شائبة، انتظر أن تأتي ولم يمر وقت طويل حتى رآها أمامه

بسيارتها الفخمة. لأول مرة يلتفت إلى بريقها الآسر وبروزها المنمقة. لأول مرة يلتفت إلى سيارتها، ربما لأنه لم يكن يشغل باله بغيره وما يمتلكون وكانت قناعته تُجبره على الرضا. والآن وقد فقد كل قناعته دفعة واحدة فبات التحليق في سماء التملك لشياطينه يغلبه، فما ترك إليه باباً للتفكير كي يقضي على فقره.

هو يرى أنه مهما كان من حياته وملابسه وشكله المهندم فهو فقير مقارنة بمن يراهم. لكم تمنى ألا يرحل من القرية إلى الإسكندرية، ويختلط بالناس وطبقاتهم الاجتماعية؛ كي لا يلتفت لدنيا غير التي يعيش فيها، وعالم آخر مليء باللذات والمقدرة على تحقيق الرغبات. لو أنه يمتلك سيارة مثل نغم، لكانت كل الأمور الآن على ما يُرام على الأقل كانت سترضى به نور؛ وترفض وكيل النيابة بكل ماله وسُلطته؛ لأن من يملك سيارة كهذه يستند على مال أضعاف سعرها أضعافًا.

ولكن هيهات.

إن الفقراء لا يرثون سوى الفقر.. الجوع لا يورث سوى جوع مثله، فهل هناك من عاش فقيراً ومات غنياً؟! كلهم حمقى، جميعهم لا يعرفون أن لهم حقوقاً في هذا البلد الذي يبطش به حكامه، ويل لنا من ظلم أنفسنا.

تزاحمت الأفكار في رأسه وكره الحياة، ولأول مرة يتطلع لصور الحياة الحقيقية.. دنيا الملذات والمال وصراعات الناس بقتل الناس وسفك دمائهم.

رأى في نغم الجالسة إلى جواره أغبى فتاة في العالم، لكنه رق لحالها.

علم أنها تُحبه، ما الذي يبعث بفتاة في هذا الوقت كي تُنقذ فتى أحمق مثلي من صوت يبعث على الحزن.

رأى بسمة في عينيه تُشعره بأن الدنيا بخير، احتوته بكل ما يملك وما لا يملك؛ لأنها تشعر به، احتوته وقد لفظته الدنيا، وما الحب إلا احتواء في لحظة رفضك العالم.

قالت نغم باسمة وعيناها من شدة الألقة تنطق كماسة ثمينة:

– كيف حالك يا فريد أتمنى أن تكون في خير.

فقال فريد وهو ينظر من زجاج سيارتها لتساقط الضوء الأصفر الباهت على الطريق:

– الحمد لله.. بخير.

– لكنك لا تبدو كذلك.

فقال مستسلماً:

– أحاول.

فقالت تستسمحه:

– أخبرني يا فريد.. افتح ليَّ قلبك ولن تندم.

فقال متحسراً:

– ما عاد قلبي مغلقاً.. بل اهترأ؛ فبات كباب مفتوح.

– أنا أرى فيه انهزامك.. أشعر أنك خسرت شيئًا عزيزاً اليوم.

– بل خسرت كل شيء.

– وما الذي فعل في ملابسك هذا؟

فأخذ ينظر إلى تيشيرته الأبيض وبنطاله الجينز الكُحلي، فرأى أثر التراب وقد أنهكتهم الحركة، فقال غير مكترث:

– الدنيا.

– أنت تنزف.

– ما الفرق؟ قلبي ينزف، وروحي تنزف، والشوارع كلها تنزف.. نحن نعيش على هذا النزيف.

– دعك من فلسفتك تلك وأرني ذراعك.

كان قد جُرح في كوعه دون سبب يذكره، ربما أحتك بإحدى السيارات أو دراجة بخارية مارة، وأحدهم يصرخ فيه ويسبه. لم يتذكر شيئًا. ضمدتها نغم بمنديل بعدما طهرتها بعطرها، وأمسك المنديل.

وأخذت السيارة تقطع طريق البحر بسرعة؛ فقد اعتادت نغم أن تسير بها والطريق تبدو مزدحمة في اتجاه المندرة على غير عادته.

قالت نغم وهي تلف من دوران سبورتنج:

– اعتقد أن علينا أن نجلس معًا لتحكي ليّ.

هز فريد رأسه بالإيجاب.

ومضت السيارة حتى ركنتها على البحر في مكان خالٍ، وقد علقت الانتظار. ونزلا على الكورنيش حتى ارتكنا إلى إحدى الشرفات.

الساعة التاسعة والنصف، والمارة على الكورنيش في ازدحام ظاهر، ولكن حركتهم بدأت تقل متجهة ناحية النفق، فخلت به إلى ركن آخر وانزوت بعيداً عن أعين الناس، ووقفت قبالته وقد جلس مستسلماً يُداعب بحذائه الأبيض بعض الحصى.

قالت نغم وهي ترفع رأسه براحة يدها:

– أخبرني يا فريد ما الذي حدث.. فأنا قلقة عليك جداً.

وأخـذت تُحـدق في عينيـه فما وجـدت بهـما إلا احمـرارا عميق الأثـر، ناتج عـن دمـوع غِزار، وجفـون متورمة. تمنـت أن تأخذه في حضنهـا، وتبكي دون أن تعـرف سـبب بكائـه، تمنت أن تهـون عليه كل آلامـه، أن تغفر لـه كل آثامه في حقهـا، ولا تتذكـر منه سـوى بسـمة رضا.

حـدق فريـد في عينيهـا، ورأى نظـرة حنـو فيهـما. مـا أعظمهـا نظـرة. لـن يجـد مـن ينظـر إليـه بهـا، عينـان خـضراوان عميقتـا اللـون، صافيـة كطفل لم تُنهكـه الذنـوب فأفقدتـه بريقهـما، داعـب الهـواء شـعرها المنفـوش فداعـب وجههـا؛ فحاولـت رفعـه بيدهـا اليـسرى، ولا زالـت ممسـكة بذقنـه بيمينها. جميلـة نغـم كلحـن عـود أصيـل، أو سـيمفونية أوركسـترا عظيمة. متجانسـة لأبعـد الحـدود، كالسـماء في لحظة صفـا، والقمـر في بدره، والشـمس في دفء الشـتاء. كالطبيعـة عندمـا تحنـو عـلى البـشر في صـورة وردة تتفتـح بالعطـر، فينتشي العُشـاق.

ارتسـمت عـلى ملامـح وجههـا بسـمة نـور الحانية، فابتسـم. فظنـت نغم منـه الحنـان، فابتسـمت لبسـمته. لكـن تلك البسـمة لم تكـن لها، ولـو علمت لبكـت. فهـي تكـره نـور ولم ترهـا لمـرة، ولم تسـمع عنهـا إلا قليـلاً، لكنهـا أعمـت قلبهـا كثـيراً وأرهقـت روحهـا أكثر.

وتبـددت تلـك البسـمة فظهـرت نغـم بوجههـا الطفـولي. فاختلـط عليـه الأمـر، ولكنـه حـاول أن يُركـز كلامـه عـلى نغـم كـي لا يُؤلمها.

قال فى أسى:

– لقد رحلت نور عني.

فتساءلت مواسية:

– لِمَ؟

وكانت قد تركت وجهه وأراحت كفها، فقال وعينيه تلوح فيهما أثر دمعة:

– لقد تقدم لخطبتها وكيل نيابة من أقرباء أبيها.. لم تجد مانعاً من أن تقبله.. مع أننا قضينا وقتاً معاً أعتقد أنها أحبتني فيه.

– هل أخبرتك بحبها.

– لم تُخبرني وأخبرني قلبها.

– لكنها لو أحبتك حقاً لتمسكت بك.

– أنا دون مال.. لست على استعداد لذلك.

– لكن معك المستقبل.

فهز كتفيه استهانة وضحك ساخراً وهو يقول:

– المستقبل.. إنه أكبر خدعة على مَن يعيش بالماضي.

– فلتخرج من ماضيك إذن.

فضحك وهو ينظر للبحر:

– الماضي.. هو صراع لا أقدر على الفرار منه، يغزوني بكامل إرادتي، ليّ معه ذكريات مهما كانت مؤلمة فأنا أرغب فيها؛ بها أُكمل. كمَن يسير على حصير من الشوك، في نهايته موته، ولن يقدر على التوقف والاستسلام كي لا يُصيب جسده فيقتله، والموت أهون من القتل مع أن النتيجة واحدة لكنها أقل ألماً. وليس من أحد يأخذ بيدك فيه.

– فلتعش في واقع أكون أنا معك به.

– ما ذنبك أن تُشاركيني وأنا فاقد للحياة؟

فنزلت على إحدى الشرفات وجثت على ركبتيها.

وقالت وهي تضم يديه:

- لو فقدت حياتك أمنحك حياتي.

- لا أقدر على سلبك حياتك بيننا اختلاف كبير.

- كل الاختلافات تهون لأجلك.

وظل يُحدق في الأفق البعيد وظلمة البحر تنعكس من ظلمة السماء، وجميع أشعتهم من نفسه المطفأة تغرب.

وباغتته فريدة قائلةً:

- أنا أحبك يا فريد.

فكان وقع الكلمة عليه يحمل نغمة موسيقية جميلة، أبهجت قلبه، فسمعها بصوت نور، فطأطأ رأسه فإذا بنغم لا زالت جاثية على ركبتيها، وهواء من خلفها يُداعب خصلات شعرها. ظنت أنها بنطقها لتلك الكلمة في هذا الوقت من الممكن أن تملك عليه قلبه، لكنه لا يكد ينظر بعينيه لغيرها إلا وصورتها تحوم أمامه وتتملك هذا الوجه.

رفع يدها ناحية فمه ولثمها، كان شعوراً مختلفاً، انتفض جسد نغم له، وانفرجت أساريرها، وشعر فريد بأثر القبلة في يدها، التي ارتعشت وباتت تنفض عرقاً من بعد دفء.

فقال مواسياً:

- أنتِ أقرب الناس لقلبي يا نغم.. لكن.

فقاطعته، وهي تضع يدها على فمه:

- لا أرغب في سماع أكثر من هذا الآن.. دع ما بقي على.

– لكنك ستتحملين ما لا طاقة لكِ به.

– أقبل بأي شيء وأكون إلى جوارك.

– لكن.

قاطعته باسمة:

– أنا أحبك وهذا يكفي دون كلمة لكن.

لكن شيئاً في صدره يُحركه ناحية الهزيمة، لم ينتصر اليوم ولن ينتصر بالغد، ستهزمه الحياة وتُصارعه وتكرر هزائمه، لم يرغب في حدوث ذلك، تظاهر برفضه مع إنه رغب فيه بجُل حواسه، لكن قلبه وروحه رفضا.

وظل يتطلع لعينيها، تُخبره حيناً أنها نور، وأخرى تصدمه بأنها نغم. وظلا صامتين لفترة طويلة، عدلا من جلستهما، فعادا كما كانا. تمنت نغم أن تحتضنه وكادت أن تقبل، لكنها لم ترغب في إحراج نفسها أكثر من ذلك. مع إيمانها أن الحب لا حرج فيه.

وأمسكت بيده، وسارا جنباً إلى جنب حتى السيارة، فما رغبت في ترك يده، حتى أقبلت عليه، فشعر بدفء صدرها، ورعدة جسدها، فانتفض القلب من مكانه؛ ليُبعدها فليس بعد اليوم انكسارا، لكنه قبض على ظهرها، فارتعش جسده، وجال في خاطره صورتها، وانعكست في عينيه بسمة محتها دمعة سرعان ما أبعدها برفق باسماً ولثم جبينها فتنهدت، فلمس أثر التنهيدة، فهيجت مشاعره، فرفع رأسه شاهقاً، فانتشى بعطرها، ونظر إليها فكانت تُحدق فيه، وتمنت أن تحتضنها عيناه كما احتضنها في صدره.

٤٩

تحول البيت لخرابة لا حياة فيها.

أحدهم يرغب بكل ما يملك في الدنيا ولا يتمنى الموت، وآخر أنهكته فما عاد يطيق الجلوس فيها لحظة واحدة. يتمنى أن ينتحر، لكن بماذا يُفيد تعذيب الميت.

أضحت حياة عطية ناصف سكوناً وشحوبًا خارجياً، وصراعًا داخليًا لا يقدر على القضاء عليه، أصبح يقضي كل وقته في العمل، لا تُغادر جيبه شرائط الترمادول التي يقضيها إليه بن صاحب الصيدلية التي افتتحت في بيته مؤخراً. يأخذ منها ما يُساعده على العمل، والوقوف صامداً أمام صراع يهزمه ألف مرة ويقاوم مرة واحدة، ينتصر عليه عندما يستمر في الحياة. يتمنى القصاص والانتقام من نفسه وممن حوله، ولكن روحه بعيدة تماماً عن أن تدفعه للتخلص مما يرغب فيه أو تُساعده على ما يعتمل في عقله. أما عقله فهو المادة الوحيدة الحية في تربة ميتة فقدت كل ما لديها، يعمل ويُبدع في العمل، ويحل ويربط كل المشاكل، وليس هناك موقع يدخله إلا ويكون له فيه بصمة يُطلب من بعدها. تغاضوا جميعاً عن شحوبه، لكن عقله هو ما يُحركهم ناحية قبوله، فضلاً عن إخلاصه للعمل، ولو كان عطية راغباً في منصب أكبر من مشرف لناله، لكن هناك ما يربطه ويقبع على روحه جاثماً بين أضلعه لا يخرج به عن نطاق المعقول.

إن النبض الذي يجعله يعيش حياته حتى الآن هو الأمل الباقي لديه، الذي لا يرغب على الأقل في تدمير مستقبله وحياته، فكل الأموال التي كان يعمل بها كان يتركها إليه ولم يعد يعطي لفاطمة إلا ما يسد حاجتها وحاجة البيت بعدما رحلت عنه جنته.

تذكر فيروز التي لم تكن تخلو من باله، رآها في الشارع في عين طفلة تُشبهها، ليس بالقدر الذي كانت فيه فيروز من جمال، وخفة، وروح جميلة في دنيا محت صور الجمال برفضها، بكى، بكى حتى انهار أمام الناس في الشارع، كان بالقاهرة يعمل وقتها بمكرم عبيد. وشوارع القاهرة التي لا تهدأ رأت دموعه.

إن الدموع التي يراها الناس في الشوارع لانكساراتنا هي أصدق ما تذرفه العين لمناجاة الماضي في صور الحاضر.

سار كالمجنون، ما بداخله واقع يحتضر، وصورته ثائر محتدم.

كل من في الطريق رمقه بنظرة شفقة، وشد ما يُهلكه أن يرى في أعين الناس شفقتهم وهي تنهش جلده وتُعريه فتفقده حياته.

لم يدر بنفسه إلا وهو يُكلم فاطمة بعين دامعة، يسأل عن حال فيروز.

بكت، وهي التي عزلت عن قلبها الإحساس بالحياة، وصارت تجري ناحية اللذة. أثلج جسدها، وباتت تنتفض من شدة الألم. لم تنبس، وتناهى إليه نحيبها، وتنهيداتها. جرت ناحية غرفتها التي أغلقتها منذ رحيلها، فلم تكن ترغب في الذكريات التي تؤلم حتى ولو كانت فلذة كبدها. أخذت صورتها وتلك الكراسة المليئة بالدم، وحقيبتها التي كانت معها لحظة انتحارها، وأخرجت كل لعبها وملأت بها السفرة في الصالة، وبات كل شيء أمامها يدفعها ناحية الانتحار.

هرولت للمطبخ وأخذت سكيناً ومرره على يديها لكن السكين كان بارداً، جرح يدها عدة جروح، كي تشعر بالألم الذي عاناته ابنتها، وكانت تعلم أن هذا السكين بارد، هي لم ترغب في الانتحار بقدر ما ترغب في التخفيف من حدة الألم الذي يقبع في صدرها، ويأخذ روحها عندما يُذكرها أحدهم.

أخذت ترفع الملابس وترميها في الهواء وهي تبكي، وتشد شعرها، وتلطم بعين دامعة.

ماتت الحياة من بعدك.

مات كل شيء كان ينبض.

وأخذت تتمايل وهي تغني ممسكة بعروس كانت تلعب بها دائماً:

ماشي حبيبي ماشي

ماشي ده بكره ماشي

وقولوا لعين الشمس ما تحماشي

لحسن حبيب القلب صابح ماشي

واشتمت في مريلتها التي كانت ترتديها آخر يوم، رائحتها ورائحة الدم الذي لم تغسل أثره، وحاولت أن تجد منفذ إليها. وخارت كل قواها ففقدت الوعي وسقطت على الأرض مغشياً عليها.

وفي غير تلك الأيام كانت تتغنى بجمالها المفرط، فتبرجت وتمايلت وتمايل معها الزمن وأعين الناس جميعاً. الكل اشتهاها لم تمر إلى جوار أحد إلا وهو يتمنى القرب، لم يروا هذا الجمال الطاغي والأنوثة القاتلة بحكم المحكمة شرعاً وقانوناً بالخيانة، وجسم فذ له كل مَن رآه أو حُكي له عنه لكنه من الداخل قد مات.

لكن في القلب رجل.. وعلى الورق آخر.

وعقلها يحمل كل الرجال.

لم تعد قادرة على إمرار الحياة من رأسها دون أن تنتقم من أي إنسان وبأي شكل، تمنت أن تُفقد الجميع حياتهم وتراهم وهم يُسلبونها دفعة واحدة. ليس مهمًا أن تُصبح سادية ما دام المجتمع كله أشرار.

كانت تحلم باليوم الذي تعيش فيه لتقتل من عايروا فيروز بأنها بنت الزبالة، أن تقتلهن، أن تخنقهن بيديها كي تستشعر لذة خروج الروح من الجسد انتقاماً، ثم تُلقي نظرة على الجسد المُحتضر وهو يرتعش لافظاً آخر أنفاسه فتنتشي. مع إنها رأت حماتها يوم موتها، ولم تذرف دمعة واحدة إلا بعدها بأيام وتظاهرت بالحزن. هي لا تُحركها عاطفة الآخرة، وإنما الدنيا هي ما تبقى عليها، وتُبقي عليها حية تُرزق. كأنه صراع في مضمار لا نهاية له، مهما كانت الظروف والمنتصر فهي تحاول وتعاقر كي تُثبت لنفسها أنها قادرة على تخطي أي شيء، وبأي ثمن ولو بلذة قليلة ولحظات سعادة معدودة.

كان إلى جوارها صاحب القلب، وصاحب اللذة، وراسم الحياة في طوره الأول، ومُنقذها من الطور الأخير.. فلم تعد تلقاه في بيتها، وإنما بأماكن عدة خارج القرية وداخلها في أوقات مختلفة ومختلة.

الوحيد الذي كانت تعجز أمامه هو فريد.. وهو يرمقها بتلك النظرة الحانية المنكسرة بالفقد.. تعلم أنه كان يرغب في شيء لم تقدر على إتيانه به.. ففقد روحه مرتين مرة بفيروز وهو الذي تعلق بها حد النهاية، والأخرى بمن أحب.

فبات التفكير حليفها، إذ كيف تقتص من الدنيا، باقتناص الفرص التي تنقلهم من الحياة التي يعيشون فيها إلى أخرى أفضل.

وبات هذا الصراع داخلها لا تقدر على الاستسلام له دون نتيجة مُرضية، في صباحها ومساءها وفي أحلامها وكوابيسها، وأحلام يقظتها حتى في الفراش الذي يضمها مع السيد البرنس. كانت فكرة واحدة هي ما تُسيطر عليها كي تقتص لابنها وبنتها من الدنيا.

رغم ما بات حليفهم في الأشهر الأخيرة بعد وفاة فيروز، فقد انتصر عطية أخيراً على نفسه وبدأ في صناعة ثروة تنقلهم من الفقر إلى أخرى تنعم بالحياة رغم بخله عليها غير المعهود لكنها كانت تعلم أين يضع ماله، فقد فتح حساب بنكي باسم فريد وأعطاه فيزا يسحب بها منها ما يُريد ويكفيه ويزيد.

لكن الفكرة لا زالت في رأسها ولن تذهب هباءً. خاصة بعدما تفرغت لها بفقدان السيد البرنس بآخر مرة تشاجرا فيها سوياً عندما ألح بطلب الزواج منها ورفضته.

٥٠

اجتهد فريد في آخر شهر بالكلية، وحاول أن يفصل بين ما يعتمل داخله وما يدور خارجه، فأنصف حينما أدى مذاكرته على أتم وجه. انتهت السنة الدراسية وأبلى فيها بلاءً حسناً لم يكن يتوقع فيه أن يكون الثالث على الدفعة بعد كمية الغياب في محاضراته وسكاشنه، كانت الفرحة عارمة، لكنها ناقصة.

كان يُثبت لنفسه أنه يقدر على فعل أي شيء، إلا أن يُحب غيرها. أثبت نفسه، ولكن لِمَن؟ لم يشعر بالنتيجة الفعلية لهذا النجاح في إطار غير مألوف بالنسبة إليه، أو رغبة مُلحة في القضاء على خاطر لا يترك عقله، فقد فَقد روحه وقلبه في المكان الذي سلبتهم له.. هناك أمام كلية العلوم.

كيف يسترد الشعور بالحياة وهو ميت؟ إنها إلى جوار قلبه دائماً وأبداً لا يقدر على تجاهل هذا الأثر مهما مر عليه من زمن ومهما كانت الظروف.

حاولت نغم أن تطرق باب قلبه.. لم يعد يملكه، ولم تقدر على محو أثرها. لقد ملكته نور فأصبح الفرار مستحيلاً؛ لأن مفتاحه ضاع مع من ضاعت.. ولم تمل لحظة في التمسك به، لكنه كان يُظهر عكس ذلك. لم تُسافر لأمريكا في الإجازة، وظلت بالإسكندرية كي توفر وقتاً أفضل ليتلاقيا وتكون إلى جواره، فقد فرغ عقله بعدما انتهت الامتحانات التي أجاد في الفصل فيها بين ما يقتله وبين رغبته في النجاة.

وكانت اللقاءات حادة، تخلو من مشاعر، رغم ما تقدمه إليه نغم.

دنت منه ذات مرة وقبلته، كانت أول مرة يُقبل فيها فتاة، شعر بأنه فقد شفتاه، فلم يعد قادراً على استردادهما، ولكن عقله نقله من مكان لمكان وحلق به بعيداً، فوجد نفسه غير قادر على الاستمرار، كانت نغم تضغط على ظهره وتعتصره ضامة إليها صدره كي تذوب الأرواح، لكنه ظل جامداً مكانه، لم يرفع حتى يده محاولاً الإمساك بها، كان أشبه بعمود إنارة، فقد بريقه فأهمل الناس وجوده، ولا زال المصباح مُعلقاً به يتمنى من يأتي ليُصلح الأمر فيُحيي إطفاءه.

أبعدته نغم عنها في يأس وهي تبحث في عينيه عن كلمة تداوي ما جرحه، لكنها كانت خالية من كل الكلام إلا دمعة علقت بمقلتيه.

فتساءلت مُتحسرة:

- ماذا أفقدك الهجر؟

لم أفقد شيئًا.. وجدتكِ!

كان يتمنى أن يقول لها ذلك.. بعدما شعر بها في صدرها وعلم حق العلم أنها تُحبه، لكن قلبه الذي فقده لا يرضى بغيرها مهما قصرت المسافات.. كان يتمنى أن يُقدرها، أن يقول بكل بساطة أنا أحبك.. تألم حقاً وفقد كل شيء، ولا يرغب في فقدانها هي الأخرى.. حاول أن ينسى كل شيء لكنه غير قادر على نسيان خسارته، إن الحرب كانت مؤلمة لقد انهزم قبل أن تبدأ وهذا صراعه وتلك خيبته.

قال وهو يُنحي وجهه عنها هرباً:

- جل شيء.. حقاً.. جل شيء، إلا الحنين وبعض الذكريات التي تؤلمني وأعيش عليها، ولا أقدر على نسيانها، وبها حياتي تشكلت ودونها أموت.. لقد حولتني الذكريات إلى شبح.

لكـن عينيهـا دمعـت وروحها سـبقتها منذ زمـن بالدموع، منـذ أن لاحت في عينيـه تلـك النظرة البـاردة، فلم يقبـل أن يضمها إلى صـدره بنفس الحرارة التـي كانـت مقبلة بها عليـه.. كانت تتمنـى أن تنشـق الأرض وتبتلعها، لكنها تأبـى إلا أن تُعذبهـا بقلبهـا، وهـي التـي مـا فعلـت شـيئاً في حياتهـا تسـتحق عليـه كل ذلك.

كانـت تتمنـى أن تلقـى نـور، وتقتلهـا كـي تقتـص منهـا فيـما تركتـه مـن بواقـي إنسـان لا يشـعر بالحـب، فقد كل الحـب دفعـة واحدة رغم مـا يعيش بـه وعليـه، ولم يعـد راغبـاً في الحيـاة دونهـا، وهـي تعيـش حياتها مـع خطيبها الحـالي كـما حكـى لهـا فريـد، عندمـا رآهمـا يبتسـمان أثنـاء مرورهمـا بالشـارع الـذي يقطنـان فيه.

أحدهـم يعيش عـلى الذكريـات والآخر يصنعها.. ما أقسـى الحيـاة عندما تسـلب أحدهم روحـه وتمنحها لآخر فيُكمـل بروحين!

حاولـت أن تُخفـف مـن حـدة مـا يؤثـر فيـه لكنـه كان يتـألم وبشـدة، يضطـرب كثـيراً، ينتفـض جسـده مـن شـدة البـرد في عـز الصيـف، ويبكـي وهـو يضحـك، يسـخر مـن الدنيـا ويهـزأ.

أخذته معها لجلسة سمر كانت تهرب فيها من همومها، بنايت كلوب.

ولم تكـن السـهرة ممتعـة حتـى بـدأ يسـكر، ويقـترب منها من حـين لآخر، يلثـم خدهـا، ويشـعر بالنشـوة تُحركـه ناحيتهـا أكثـر فأكثـر. ولم تقـدر عـلى المـضي قدمـاً فيـما سـيفعله وتُشـاركه فيه، لكنهـا رحلت بـه، لأول مرة تشـعر به يبتسـم إليهـا من قلبه. وفي الطريق يُمسـك بيدهـا ويُقبلهـا، ويُراقب كل ما تقـوم بـه، حتـى توقفت بالسـيارة مـن شـدة اضطرابها، فـما عـادت تقدر على القيـادة، وارتمـى في حضنهـا، وأخـذ يعتصر فمهـا، ويُداعب صدرهـا بكل ما أوتي مـن قـوة كأنـه ينتقـم من نفسـه. يبتعـد حينـاً وسرعان مـا يقترب.

البحر كان خالياً تماماً بجليم، ولا أحد على الكورنيش في الرابعة صباحاً.

وبدت السيارة كغرفة نومة مظلمة، من زجاجها الفاميه.

وأنزلت نغم الكرسي كي ترتاح ولو قليلاً، ولأول مرة تشعر به يحتضنها بشدة، وبات يلهث وهو يقول:

- لا تتركيني.

تبسمت لوقع الكلمة في نفسها، وكادت أن تطير من الفرحة لمّا أقبل على ذلك، وتشجعت فأقبلت عليه بأضعاف ما كانت ترغب في ذلك وتخشاه، لكنه ولوهلة صعقها قال وهو ينظر في عينيها باسماً ودمعة من عينيه تسري على خدها:

- أرجوكِ يا نور لا تتركيني.. أنا أحبك.. أحبك بالقدر الذي ستتوقف الحياة فيه دونك.. أنتِ قدري وأنا قدرك وها هي الأقدار تسوقنا إلى بعض بعدما تفرقنا.

تضرّج خدها من شدة الألم، وكادت الدموع أن تُذيب محجريها من شدة غليانها، ونزلت دمعة من عينيها لتختلط بدمعة من عينيه على خدها فتضل الطريق إلى رقبتها فتصل لفمها، كي تتذوق مرارة الحب والفقدان.

لأول مرة تحتقر نفسها هكذا وتشعر أنها قللت قيمتها لهذه الدرجة.. ولم تعد تفكر ولو للحظة إلا في العودة لأمها بأمريكا دون الرغبة في العودة لمصر مجدداً أو على الأقل كي تُنهي شيئاً في صدرها يقتلها. كي ترتاح، مع أن الهجر لا يولد سوى الشوق، والشوق شوك يؤلم صاحبه.. فالحب طريق ممهد بالورود وطريق العودة منه كله أشواك.

٥١

في ظروف غامضة تزوج السيد البرنس من سناء الخواجة.

كانت صدمة للجميع، الكل بين حاقد وحاسد، ولم يفرح أحد من الرجال أو النساء، رغم ما تقدمه إليهم سناء الخواجة من خدمات كثيرة لا يقدر أحد على نكران فضلها بها.

ظلت فاطمة تأكل في نفسها كثيراً، فقدت كل ما تملكه ومن مَلكته جسدها وروحها وكل شيء فيها دفعة واحدة، هكذا بقرار سريع وصراع بسيط .

تمنته سناء الخواجة قديماً ورفضها. ولو تقدمت لغيره لقبلها رغم ما هي فيه من غنج وسوء سمعة على مستوى شخصي يُجسده بعض الأشخاص ويعلم مسلكه، لكن لا أحد يقدر على الكلام.. أو كأنه يكيد فاطمة باختياره هذا.. لكن العجيب حقاً أنه لم ينظر لفاطمة ولو نظرة واحدة بعدما تزوج.. ولو مجرد نظرة عابرة، حتى دخوله للبيت كان في أوقات تمنعها من الخروج من البيت ليلاً.

أرته سناء الخواجة حياة جديدة كلها ترف وزهو وخمر وسهر ومتعة في الفراش ومتعة خارجه، ومتعة في كل ركن يحلو لها أن تمرر به ذكرى وتنقشها على الجدران.

اكتشف فيها السيد مع الوقت جنونها، وما تركته الخمر والحشيش من أثر في عقلها فمحى منه القليل الذي لا يبدو للعيان. لم يكن يتصور

أنها تُقبل على كل تلك الأنواع من الخمور والأجدر من ذلك أنها كانت تعلم أنواعهم جيداً كبار مان ممتاز في عمله.. ليس غريباً عليها إذ أن زوجها المرحوم الذي تترحم عليه القرية كلها جعفر الخواجة التي حملت اسمه، كان صاحب كأس ولذة رغم علامة الصلاة التي في رأسه كالجنيه الذهب. وهو الذي علمها كل فنون السمر، وأتلف ما بقي منها.

فكانت سناء الخواجة فتاة إسكندرية من بحري عندما رآها ولأول مرة بحلقة السمك، وأصر على الزواج منها، بعدما طلق زوجاته الاثنتين، ولم يكن له (عيل ولا تيل) فكانت هي كل شيء في حياته، وصغرت بسنه إلى العشرين فرأى معها رغد الحياة وطيبها، وأضافت له بغنجها في الفراش متعة لم يكن يرى أنه قادراً على رؤيته من غيرها؛ لتمكنها فيما أبدعت. حتى أنجب منها بنتًا، وبعدها بفترة مات وماتت بعده ابنته؛ فترك كل أثر سيء محاه عن زوجته التي نجاها من عمتها، التي كانت تُعذبها في الصغر، وكانت تعيش معها فنجدها بكرمه وعطفه فضلاً عما كانت تعيش فيه من المعاناة من بعدهم من الوحدة.

تراكمت كل تلك الأثار السيئة فوق رأسها، فلم تجد طريقاً تفر إليها إلا الهرب بالسكر والعربدة؛ كي تنجو من التفكير المُهلك. ولّما كان السيد البرنس صديق زوجها ورأته مرات معه قبل وفاته، فهو أول مَن فكرت فيه كي يُنجدها من الوحل الذي تعيش فيه، أو يتشاركها على الأقل، فإن رغبتها في الزواج ليس فقط لإرضاء شهوة جامحة، وإنما للقضاء على الشعور بالوحدة والتفكير القاتل الذي أودى بها كثيراً للانتحار.

لكن النهاية لم ترغب في أن تعيشها هكذا، أو أن يصل الأمر لهذا السوء.

ومع مرور الوقت اكتشف السيد مرضها النفسي الذي يغلبها أحياناً كثيرة، فتتكوم على الأرض أو تُخاطب أشخاصاً لا وجود لهم بالحياة مع أن تلك حالاتها في كل الليالي التي كان يتطلع فريد إليها من خلف شرفته.

ذهب بها لدكتور نفسي فوصف إليها علاج محذراً إياه من تركها وحيدة؛ كي لا تُجرب الانتحار، فقد باتت عدائية جداً ومتقلبة المزاج في وحدتها. وعاد من جديد السيد البرنس يطرق باباً قد أغلقه دون رجعة في ذلك.

فكان الباب موصدًا بكل الأقفال، وكاد أن يُجن لكن القرار لم يعد قراره وحده، والرغبة ما عادت تتوقف عليه، بل تُقدم بنتائج تُقبل أو تُرفض من الطرف الآخر وهي فالنهاية من لها تحديد الأمر.

عاد السيد البرنس والقرية كلها -من الأرض السوداء التي كانوا يشهدون بها فرح إسماعيل أيوب بن صاحب الصيدليات الأشهر بالقرية- على صوت تفجير في بيت سناء الخواجة إثر تسرب الغاز، وماس كهربي أشعل الشقة حتى باتت رماداً وكانت هي بالداخل، فصعق الجميع.

٥٢

انتهي شهر رمضان، وانتهي العيد، الجميع يحاول أن يفر من صدام ولقاء ولو بالأعين، فقد البيت كل ما فيه من حياة، إلا عندما تأتي فريدة لتودهم. يتراص الثلاثة أمامها كأنها قاضي محكمة، وعليهم أن يضعوا الأقنعة ليُنافقوا أنفسهم رغم ما تُظهره أعينهم من الزيف. حتى ترحل ويعود كل منهم إلى ما كان عليه، فريد ما عاد يطيق النظر في وجه أمه رغم ما يُكنه إليها من احترام، يستجلب عطفه بين حين وآخر، ولكن نظرته إليها تبدلت بعد وفاة فيروز سخطًا، وتبدل حالها المفاجئ ليس له فقط بل للجميع فلم تعد تلك هي الأم التي عرفوها قديمًا، تخشى عليهم الريح الغابر ونسمات الخريف. ولم يقدر على مصارحتها بكلمة واحدة فلها حياتها وله حياته، لكن أبيه بين الفينة والأخرى هو ما يوده ويسأل عنه، ولو مجرد كلمة يُطيب بها خاطره فيردها ببسمة تكلف مليئة بالندم على فرصة الحياة التي منحها إياه أبوه.

***

رأيتها بعد مرور أكثر من عام.

مضي وقت طويل على آخر لقاء لنا.. كانت تبتسم بسمة باهتة، فاقدة لكل شيء، لا زالت هادئة كما اعتدتها.. قسمات وجهها تبدلت قليلاً كأنها كبرت فوق عمرها أعمار، زاد وزنها قليلاً أو كثيراً لا يهم لكنه زاد.. هناك

شيء انعكس داخلها بعينيها، شيء لن يُداويه الزمن، كأنها فقدت روحها بعيداً في مكان ما، أو تعلق قلبها في ظلمة سحيقة ما كادت أن تسترده إلا بأن تدفع الثمن كي تبتعد عن الجميع.

كانت السماء غبراء، والسحب تكاد من شدة ازدحامها تُنذر بصاعقة تقترب.

عبرتُ الرصيف الأول إلى آخر كانت تنتظر سيارة أجرة تقلها إلى مكان لست أعلمه.. ترددت كثيراً، خفق قلبي كأول مرة رأيتها حقيقةً بعد كلام طال زمن.. وكأنه الخفقة الأولي.

أقترب أم أرحل.. أدنو منها أم أذهب إلى وجهتي، هل ستقف تستمع، أظن أنها تناست أنّا كنّا يوماً ما.. شعرت بذنب عميق ينزغ في جنبي فيقتلني، أين كنت عندما بهتت، لماذا لم أشاركها كل هذا الحزن، ألم نكن أحباء يُكن كلاً مِنَّا للأخر احترام ومودة.. بل يُكن له ما لا يُقدمه العالم أجمع، إنه اللا شيء بالنسبة إليها والحب الذي قتلتني به.

شعرت بوخزة تزداد كأنها ستبدد جنبي بأكمله بعد نهش لم يتجاوز الدقائق التي تسمرت فيها مكاني ولكنه بدا قرن بل قرون من الزمن.

لقد مر زمن، قاسيت فيه الكثير، ومؤكدًا قاست فيه أكثر منيّ، إنها الأنثى الأنقى التي تشعر و.

واقتربت واقتربت أكثر ولكن كانت قد ركبت السيارة، ووقفت بحذائها كنت أتمنى أن تراني ألمس عينيها مرة أخري، أن أشعر بنبض قلبها إلى جواري ولو لمرة واحدة أخيرة، علَّها تكون المُجددة لَما بدده هذا العام، ولكن السيارة قد تحركت وتعلقت أنا بها علَّها تنظر للخلف، حتى تبدد طيفها بين الزحام، وفقدت نفسي معه.

ومر خاطر يصرخ بداخلي.. محاولاً إقناعي بأنك أسوأ شيء في حياتي. طردته أشر طرده، ولم أحاول أن أستمع إليه مرة أخرى رغم مطاردته.

ولم أرغب أن أكمل هكذا وحيداً، ولكني لم أَجِدُّ مَن يُعوضني عنكِ في رحلتي فمضيت دون ملجأ أو مأوى سواكِ. ربما لم أبحث لأني أعلم سلفاً أنني لن أقبل بأحد، لن يحل في الغياب مكانكِ سوى صورتك، فكل الناس مهما اختلفت هي صورة منكِ تُذكرني فيكِ وبكل تفاصيلك، رغم أن لا أحد يُشبهك.

رأيتك أمس الأول تبتسمين، كنتِ مارة إلى جواري، والتفتِ، فتلاقت أعيننا وسرعان ما تلافت فطوق الغيم مقلتي، ما إن تبدد طيف رؤياكِ ولا زال الطيف داخلي يكبر حتى جسدتُكِ واقع أحياه، ليس فيه سواكِ ولم أرغب أن أري شيئًا يلوث عيني بعد لقاء عينيكِ، فرحلت مُغمض العينين مُنكس الرأس في عالم غير ما نعيش فيه؛ كي لا أري أحد غيرك.

أغلقت باب غرفتي، وحل صمت رهيب لا يخلو سوي من كلمة قُلتها منذ زمن وأتذكرها ترج جسدي بين الفينة والأخرى:

– إننا لا نرغب في الأشياء بقدر ما تسوقنا إليها أقدارنا وكل الأقدار خير ولو أحزنتك.

ورحلتي ورحل معك كل شيء، وتركت من خلفكِ حُطام إنسان لا يقبل بالحياة دونك. هشيم تذروه الرياح لتوزع حطامه في كل مكان، ينتظر عودتك كي تجمعي ما بقي منه فتداويه بحنانيكِ.. صورة مجردة فقط، هي صورة أعيش عليها وذكرى كلمات ووقع موسيقي لخطواتك الرشيقة تلمس الأرض؛ فتهمس لقلبي بأن أستمع، فأرهف السمع وأرهق الفؤاد وما الفؤاد سوي قريح بندبات الهوى، والهوى منه مجرد ريح عطن عابر ترك فيه كل سمومه وأخذ كل الخير ورحل، أخذكِ مني وترك ليّ عذاب لا أقدر أن أستوي به، لكنه حلو المذاق لأن فيه طيفك، بل كلك.

ضاقت الغرفة عليّ من بعد اتساع، وأحلت ظلمة رهيبة، وخوف ينزغ في جنبي فيقتلني، تحسست وجنتي فإذا بالدموع تنسكب كما شلال أغرقت صدري بدمع من الفؤاد لا من العين، فقدتُ فيه حياتي وبه تتجدد.

قلبي المُتيم المسلوب يسأل عمَن حمله واحتمله

كيف ينسى الذكرى والعاشق منه لم يتحمل

انتظرتكِ كثيراً ولم تأتي.

تركتني عالقاً بين طَي الذكريات لا أبرح مكاني، ولا أحاول حتى أن أخرج من تلك الدوامة.

لم أعد أري في عيون الناس سوى عينيكِ، وبسمتهما بسمتكِ، وتفاصيلها تفاصيلك. لم أعد أرى في الناس إلا انعكاس صورتك، وأنا طريح الأرض في ظلمة دهماء لا أقدر أن أحرك ساكناً فقد أصبت بالهزيمة.

كل مرة أحاول؛ تبوء بالفشل، أين أنتِ؟

أعتقد أنني الآن مُهدم، فاقد لكل الإحساس، ميت من الداخل قوي البنية من الخارج نصف عاقل ونصف مجنون، نصف بالحاضر ونصف بالماضي، ولا مكان للمستقبل دونكِ..

أنا أنتظرك كل ليلة، وكل نهار وكل مطلع شمس وكل غروب، ومع كل دورة قمر لا يكتمل إلا إذا وضعت صورتك إلى جواره فبات البدر طالعاً. كل الأيام التي كنّا فيها معاً كانت لها معني، اليوم بات كل شيء مجرد من معناه، تركتني وحيداً ووحيداً لم أكمل، توقف الزمن وما توقف.. رأيتكِ بالأمس وما رأيتك، ليست تلك حتى صورة منكِ، كنت أحسبها أنتِ وسرعان ما رحلت الصورة عني، تمنيت أن تنشق الأرض وتبلعني،

لم أصدق أن حالك سيكون قد تدهور هكذا، كيف سرِتِ إلى هذا المنعطف السيء فباتت كل ملامحك باهتة. السبب الحقيقي خلف كل هذا أنا.. أين كنت أنا عندما تركتكِ تنطفئين هكذا، لماذا لم أروي ظمأكِ بالحب فتُضيئين السماء من جديد، لتكتمل صورة القمر بك؟ أين كنت عندما رحلتِ؟ حاولت كثيراً أن أراكِ أن أقترب حتى منكِ في كل تلك المرات وفشلت، لو كان حالفني الحظ والشجاعة فاقتربت، لو كانت الحياة عطفت وانحنت بحنانيها كي ترحم شخص من مليارات البشر قد فقد حياته بفقدانك؛ فأنتِ حياتي.

أتدرين؟

هناك صوت يصرخ فيَّ:

أيها الأحمق هذه حياتك لقد خلقت وانتهى الأمر.. وأنا لا أقبل بتلك الحياة ولا أرغب في الفرار من واقعي لأنكِ كنتِ أجمل شيء فيه وبات اليوم دونكِ وحل. وأعلم حق العلم أن الحمقى فقط هم من يُعانون لأنهم الصادقون. ولكن يهون على أن أتناساكِ.

حاولت كثيراً أن أمرر تلك الفترة، وأمنح قلبي لغيرك، مجرد محاولة فاشلة رأيت فيها خيانة وشعرت بألم يقتلني، طوقني فلم أقدر على الفرار منه، تلك الراحة وأنا معها شعور بالخيانة تجاهك حتى وإن خسرتك للأبد، أنا أعيش على أمل عودتك كي تجمعي حطامك هذا؛ فتنفخي فيه من روحك فيصير بشراً كاملًا بوجودكِ.

كان يبكي وهو يكتب تلك الكلمات، حتى تخبطت الدموع بالأوراق فتموجت الأحرف وبهتت، ولكنه يتذكرها جيداً فقد حُفرت بقلبه فعاد وكتبها مرة أخرى كي يحفظها بصورة أفضل، لكن الدموع مرة أخرى انسكبت على الورق فأفسدته، فلم يجد بداً من أن يُكمل هكذا على أوراق مبللة بالدموع، فلم يعد في حاجة للاحتفاظ بهذا الورق، ما دام في قلبه محله.

كان البيت خاليًا تماماً ولا أثر فيه لفاطمة، لم يُفكر في أمه أو أبيه؛ بات أنانياً مثلهما وليس هذا من طبعه، لكنهما من علماه آخر فترة أن يعيش المرء فيها وحيداً خيراً من أن يعيش بين من يمنحونه شعوراً بالغربة، وهم الوطن.

فقام، ونظر من الشرفة مُتطلعاً بوجه شاحب، رأى بيت سناء حطاماً يعلوه حطام، ورمى بصره على أول الشارع، فوجد أمه آتية تتبختر في زهو، وفي نهاية الشارع من الناحية الأخرى أبوه يجر ظهره من خلفه منحنياً مما فعله الزمن به، بوجه شاحب وعين ذاهلة لا تعي ما الدنيا وما فيها.

وتناهى إليه صوت هاتفه يرن، فمشى ناحيته ونزعه من الشاحن.

كانت نغم.. سألت عنه بلهفة وحرارة للقائه، وأخبرها بعودته في الغد صباحاً فقد انتهت إجازته كما تعلم فليس هناك جديد في ذلك.

ولكنها كعادتها تتساءل عنه كثيراً تلك الأيام الأخيرة؛ لِما وجدت من الطمأنينة في عينيه، بمنح نفسه فرصة للتقرب منها بحق. ولم تكن تعلم ما يُخفيه عنها بعد تلك الليلة الدهماء.

وأنهى فريد هاتفه معها.

وكانت السماء ترسل سكوناً، والأرض تنزع الهدوء من دواخل الناس، وحرارة شهر مايو تبعث فيهم الكراهية، وتنشر على وجوههم العبث، ولا زالوا يُصارعون مستمسكين بالحياة.

٥٣

أوصلته نغم من الموقف إلى المدينة الجامعية بسموحة، كما اعتادت بعد عودته من إجازته، لكنه لم يعد في الصباح، بل تأخر مساءً لظروف مرَّ بها، لم تضغط عليه نغم كي تعرفها بعدما رأت في عينيه خاطرًا أخافها منه.

لم ينم فريد ليله بين إقبال وإدبار حول موضوع نغم. هو يعلم أنها تُحبه، ولكنه حاول معها، وما إن يقترب منها حتى تلوح له صورة نور، فيشعر بالخسة والدناءة في نفسه، وينتظر أن يختلي بها كي يبكي على ما يفعله معها وقد أمنته قلبها. لكنه حاول كثيراً ولم يجد نفعاً من التقرب أكثر من ذلك.

رأى أن يأخذ رأي إبراهيم فيها. وقد أعلمه مُسبقاً بقصتها، وشجعه أن يُكمل لمميزات كثيرة تحملها نغم، من جنسية أمريكية ستنقله من هذا الوحل الذي يعيش فيه، لجمالها وأنوثتها الطاغية، ويكفي قبل كل ذلك أنها تُحبه، وأنها باقية عليه بعد معرفة كل ظروفه، ولم تمل لقاءه ولو مرة رغم ما يفعله معها من قلة أصل.

لكن الأمر تلك المرة وصل به حد النهاية، وهو لم ينظر لتلك المميزات التي رآها فيها، هو يحب فقط أن تكون صديقته لا حبيبته. فلم يعد يرغب في تأنيب ضمير أكثر من ذلك، فرأى أن عليه مصارحتها بكل الكلام دفعة واحدة ويُنهي الأمر.

فسأل إبراهيم الجالس على سريره وهو يشرئب بعنقه من السرير:

- كنت أود أن أخذ رأيك في شيء.

فقال إبراهيم بصوت مبحوح:

- تفضل يا صديقي.

- أود أن أبعد عن نغم وأصارحها بكل ما في صدري.

فنزل إبراهيم من على سريره، وهو يُحدق فيه ذاهلاً وقال:

- لقد أخبرتك من قبل كم تُحبك هذه البنت؛ ولو تركتها لن تجد من يشفع لقلبك أو يُطيبه ولو بكلمة واحدة.. إن حبها نادر في صدقه.

- لا أقدر أن أضحك على نفسي أكثر من ذلك.

- لماذا؟

- حاولت أن أنسى نور لكني لم أستطع.

- تُنسى الأيام بالأيام والأشخاص بالأشخاص.. فإن رحلت نغم فلن تجد من يهون عليك أيامك وستعود إليها.

- لا أقدر على ذلك.

- حاول فوالله أنت الخسران دائماً وأبداً.

فقال حاسماً الجدل:

- سأخبرها بالغد وليكن.

فقال وهو يصعد لسريره:

- أنت حر ولكنك ستندم.

فهز فريد كتفيه استهانة، وتكور على سريره محاولاً النوم لكنه لم ينم، وظل يُفكر في نغم، فتختلط عليه صورة نور فتُعذبه، فيحاول جاهداً أن يُنحي الاثنتان عنه جانباً كي ينام ولو ساعة يسند بها طوله لكنه لم يقدر، وظل في حيرة من أمره، تُعذبه وتؤلم صدره، لم يكن يتخيل أنه سيصل به الحال إلى سُليمان صديقه. تذكره، فأخرج رأسه مرة أخرى من السرير وتساءل بصوت خافت:

- إبراهيم.. صاحي؟

فقال إبراهيم الذي يلعب في هاتفه:

- نعم.

- ألا تعرف أين سليمان الآن؟

- اسكت ألم تعرف ما أصابه.

- لم أعرف والله.

وخرج فريد من سريره وسحب كرسياً، ليُنصت.. فدنا إبراهيم من بداية السرير، وقال بصوت هادئ وعين جاحظة:

- لقد سافر إلى سوريا كي ينضم للمقاومة.

فتساءل فريد ذاهلاً:

- مَن أخبرك بذلك؟

- يقولون في كلية الهندسة أنه مطلوب من الأمن الوطني لحوادث إرهاب.. سمعت أصدقاء له من الإخوان كانوا يعرفون أننا على صلة قرابة.. وحذروني من ذكر أي شيء عنه.

– وما الذي أوصله لكل ذلك.

– لقد اكتفى من مصر بعدما رمته بالإحباط مرتين.. مرة بفشله في الحب.. والأخرى بفشل الثورة التي اعتلاها الإخوان وتخاذل الناس فيها.. فرحل يرغب في الشهادة.. مغفل.

– صحيح مغفل.

وعاد إلى سريره مرة أخرى وصوت بداخله يدوي.. مغفل.. بل أنت المغفل.. ألم تكن تخشى أن تصل إلى حاله يوماً.. لقد بت اليوم رفيقه في مصيبته؛ فخسرت كل شيء بل وهزمتك الحياة وحملتك بكل أعبائها. أما هو فأختار مصيره ورسم حياته كي لا ينهزم وأنت لا زلت هنا تقاوم هزيمتك.

وظل على حالته تلك حتى صوت الفجر، فحاول أن يقوم من سريره ليُصلي؛ لكن شيطانه غلبه فنام. واستيقظ في التاسعة على صوت هاتفه يرن.. كانت نغم تُخبره أنها تنتظره أمام باب المدينة.. حاول أن يتراجع عن إخبارها بالأمر لكنه قد حسم كل شيء داخله.

ركب السيارة إلى جوارها واجماً، لم ينبس ببنت شفة، ولم ترغب هي في نبش ما بداخله؛ فهي تعلم أنه يُحب أحياناً أن يسترد حيويته بهذا الصمت. وأراد أن يخرج بها إلى مكان هادئ، كي لا تفضحه بردة فعلها، هو يعلم أنها ستبكي، ولا يرغب في رؤية أحد لدموعها.

فقال دون أن يلتفت:

– ما رأيك في أن نتمشى على البحر معاً.

فتبسمت وأومأت برأسها بالموافقة.

وكانت السيارة قد توقفت بإشارة سيدي جابر بشارع أبي قير،

والشارع يعج بالناس والسيارات تتزاحم وأصواتها تتداخل بشده.. ودخلت شارع المشير متجهة للبحر، وتوقف عند نفق كامب شيزار ونزلا يسيرا إلى جوار بعضهما البعض.

الشمس تنشر أشعتها الحارة على البحر، والسماء صافية في زرقتها، فضلاً عن تلك السحب البيضاء التي تكتلت عند الأفق. وبعض نسمات الصيف خلسة تخطفها الأمواج لتنقلها لمن بالشط.

وقف فريد في مكان خالٍ، وقد خفت حركة الناس قليلاً.

وقال ناظراً للبحر:

– لقد حاولت أن أحبك يا نغم لكني فشلت.

وصمت لوهلة وأردف:

– حاولي أن تنسي أنني كنت في حياتك.

فقالت وهو تواجهه:

– نحن لا نختار مَن نُحب ومتى ننسى.

– ولا من حقنا أن نُحمل من أحببنا أعباء اختياراتنا.

تذكر نور.. هذا كلامها، وذاك الحديث هو ما ضايقته به يومها، يوم سلبته قلبه فبات أسيراً لهواها.. فقال في نفسه أي حماقة تلك التي يُعيدها الزمن على مسامعنا فيُرهقنا بها.. ما أسوأ الحياة التي تحمل لنا الآثام فنأثم.

فقالت في أسى:

– قد تُحيينا التجربة.

فقال في ثقة بلهجة لا تخلو من برود:

– بل تقتلنا لأنها لم تغفر لنا آثام الماضي.

– الماضي جزء من الحاضر.. وقد نموت إن لم نتركه يرحل عنا.

– قد مِتُّ منذ زمن بعيد ولا أرغب في توريط أحد معي.

– ولكني أرغب أن أموت لأجلك، وأكون معك في حربك وسلمك.. أنا أحبك.

– الحب خدعة كبيرة لا معنى لها.

– بل هو كل شيء ليِّ.. لا تدع اليأس يُسيطر عليك لفشلك من أجل أحد، لم يلتفت لحطامك فهدم ما بقي بداخلك.

فلطمها على وجهها وهو يصرخ فيها:

– إنها أحسن منكِ ومن أي شيء في الدنيا.. لا تذكرين اسمها على لسانك.

دمعت عيناها، وكادا أن ينفجرا لشدة احمرارهما، وهي الفتاة المدللة التي لم يضربها أحد من قبل. حاولت أن تُسيطر على أنفاسها، ومسحت دموعها، ولم تقدر على كبح جماحها فانهارت من البكاء.

شعر بألم شديد في نفسه، يُخبره بحقارته وخسته لفعلته.. وأنه لم يقدر على مسامحة الزمن فيما فعلته فيه نور.. أو علَّه يُعاقبها؛ لأنها مَن اقترحت عليه أن يقترب أكثر، وتَمنت ألا يتلاقيا.. كان عليه أن يرحل عنها منذ أول بريق لحظه بعينيها.

ضمها ناحية صدره بقوة، وبكى لبكائها.

وأخذ يُبعدها عن صدره فيرى دموعها، ويبكي وينتحب كمن رأى مصيبته، يحاول أن يتأسف فيُطبق ولا ينبس.

مـا أقسـى ألمـاً لا يُحكـى إلا بصمـت.. ولغـة الصمـت لا يفهمهـا إلا الأقربـون وهـم قلـة. وقد لمس طيف شـعورها بأسـفه مـن نبضة قلب آسـفة أرسـلها لقلبهـا القريـح الدامـي.

ولكن شيئًا به تغير.. فقد روحه ولم يجد دافعاً حقيقياً أن يُكمل.

ما أقسى أن تجد الحب ولا تجد الدافع!

ما أقسى أن يجرف قلبك تيار الواقع.

ورغـب في الرحيـل، رحيـل لا عـودة فيـه، حتـى ولـو أرهقـه وقتلـه مـن التفكـير، ولـو شـعر بتأنيـب ضمـير صحبـه وألزمـه فراشـه مـن شـدة الألم والقصـاص منـه. كان عليـه أن يُنهـي هـذ الأمـر الآن، الحياة لم تعـد بها فرصة وحيـدة تسـتحق أن يُكمـل لأجلهـا، فـكل شيء قـد رحـل برحيلهـا عنـه، الرحيـل المزيـل بروحـه.

٥٤

تساءل السيد البرنس هامساً:

– ألم تجدي أفضل من هذا المكان كي نتقابل فيه؟

كان هـذا البيـت المهجـور بـالأرض السـوداء المترامية في أطـراف القرية، مظلـم إلا مـن بعـض أشـعة هاربـة مـن أعمدة بعيـدة تصـل إليه. مكـون من طابـق واحـد دون سـقف، وأسـوار عاليـة، وأرضية مـن حصى مُختلـط بكتل مـن طين جامد. وهـو وقر لمدمنـي المخـدرات، والزنا، ممن يتخـذون الأرض ملجـأ ومـأوى لهـم في الليـل. تقابـلا فيـه مـرة واحـدة منـذ زمـن وهـا هـي الزيـارة تتكـرر، وعواقـب الأولى كانـت جحيـم، أمـا الثانيـة فلـم يُدبـرا فيها شـيئاً بعـد. فما تلاقـت الشـياطين إلا ونزفـت الأرواح.

فقالت فاطمة وهي تتلفت حولها خيفة:

– عطية يُراقبني.. والبيت أصبح جحيماً لا يُحتمل.

– لـن أصـبر أكثـر مـن ذلـك لقـد أخبرتـك مـن قبـل أني مللـت هـذا الوضـع.. اطلبـي منـه الطـلاق وينتهـي كل شيء.

– لن أقدر على ذلك.. على الأقل الآن.

– وأنا لن أقبل بوضعي هذا.. لقد ماتت سناء وأصبحت وحيداً.

– أنت طماع.. لقد كنا نتقابل الأيام الماضية أكثر من الأزواج.

فقال وهو يدنو منها:

– أنا أرغب فيكِ كلك.

فحاولت ان تُثنيه عن قربه، وقالت في دلال:

– أمنحتك جزءاً وتركت جزء؟ لقد كنت إليك كلي.

فقال بعدما اشتم عطرها:

– الحياة خالية ومرعبة.

– فكر فيَّ وسأملأها عليك.

– فرص الحياة باتت قليلة.. علينا أن ننعم بها.

– يا أخي بعد الشر عليك.

فقال وهو يبتعد عنها يوليها ظهره:

– يا فاطمة لن أتحمل، حياتي دونكِ أكثر من ذلك.

وصمت لوهلة وأردف:

– لقد قدمت السبت وانتظرت الأحد.

فقالت معاتبة وهي تواجهه:

– لقد منحتك أكثر مما ينبغي.. وفعلت من أجلك ما لا تفعله امرأة مثلي.. فقط لأني أحبك.. عليك أن تُقدر ظروفي وتنظر فيها وتحسب الأمر بالعقل.

– فلننتهي منه إذن.

- سيكون الأمر صعبًا جداً.

- لِمَ؟

- عطية لم يعد يأمن على نفسه مني.. لا يأكل من يدي ولا ينظر إليّ إلا احتكاراً.. حتى عندما ينام يُغلق على نفسه الغرفة.. يظن أني سأقتله.. وعمله الجديد بالإسكندرية بات يُقلقني فلم يعد يغيب عن البيت إلا في ساعات عمله.

فرفع السيد يده للسماء داعياً:

- يا رب خذه وريحنا.

ثم اقترب من فاطمة وتركت جسدها بين يديه يعبث به كيفما شاء، فتعانقا، وتعلقا، وبات كل منهم كجسد واحد ملتحم.

في صباح اليوم التالي، لم يكن هناك بيت في القرية كلها إلا وهو يتحدث عن علاقة السيد البرنس بفاطمة.. فقد سمعهما أحد الساهرين في الأرض في هذا الوقت، وذاع الخبر على الجميع.. الأغلبية صدقت لتردد السيد على البيت كثيراً، فضلاً عن أنوثة فاطمة التي تعرضها كمن يبيع لحمه في سوق الرقيق على السابلة والسيد الذي تسبقه سُمعته وتفوح سيرته السيئة أميالًا.. والبعض تجاهل الأمر، وآخرون ظنوا الخبر مجرد حقد للإيقاع بالرجل في حبال امرأة، كي يخلقوا حديثاً يكون لهم سمراً في تلك الأيام الخالية من كل شيء فابتدعوا تلك القصة.

لكن الشيء الذي بات حقيقياً أن الأعين حاصرتهما فأخذت تنهش فيهما.. ولم يصدقوا الأمر ولم يكذبوه فلم يُسألوا عنه، لكنهما تعايشا في حياتهما كأن شيئاً لم يكن، كمن يتساءلان بلسان حالهما عمَن يحمل دليلاً وحيداً للإدانة فليتقدم به، وسيُصدقه الجميع حينها. لكنهما في النهاية قد جُرحا في شرفهما.

٥٥

أغلق إيهاب محله بعد المغرب، لأول مرة مذ افتتحه وعاد للبيت.

استدعته أمه للنظر في شأن زوجه المصون كما تقول. تأخرت فريدة في الإنجاب، فلم تكن تطيق وجودها، وكثيراً ما تقع في الخناق مع إيهاب بسببها، وقد صرف عليها ماله جله كي تُنجب ولم يحدث شيء. لم تطيق جميلة فريدة لأسباب معلنة صريحة وأسباب أخرى كثيرة، فقد تملكت ابنها ولم تترك فيه جزءاً إلا وهو ينبض بحبها، لدرجة أنها زارت دجالين ممن يقرؤون الورق، أو يفكون الأعمال، كي يفتوها في زوجة ابنها، ولم تفلح في شيء، وأشياء أخرى أكثر.

وها هي الفرصة تأتيها كي تنتقم منها، وحاول إيهاب أن يؤخر الأمر ولو قليلاً حتى أتت أمه بمَن ذاع الخبر في القرية كلها كي يُخبره أنه سمعهما ورآهما بأم عينيه وهما يلتحما معاً في هذه الخرابة بالأرض السوداء.

نجحت جميلة في النهاية بشحن ابنها تجاه زوجته، وحاول الأب أن يهون الأمر عليه ولكن سطوة المرأة كانت أكبر من أن ينتصر صوته.

كانت فريدة تجلس في غرفتها، تتوجس خيفة من هذا اللقاء، هي تعرف أن حماتها تُخطط لهزيمة كبيرة لها دون أن تُصارعها حتى.. ستتركها في حرب لن تعرف فيها نجاة، ظلت تبكي طويلاً بعدما عرفت خبر أمها.. كانت تشعر ولو بقليل من الخيانة لكنها كذبت عينيها ووساوسها وكل شيء لأنها أمها.

نصبت الأم المحاكمة.. وليس اليوم بناجٍ.

جلسة نطق بالحكم دون مرافعة أو الاستماع لشهود أو الاستناد لضمير القاضي، لأنها قد حكمت في الأمر منذ زمن، ولكن فرصة تنفيذه تأخرت... جلسة دون نقض.

وقف محمد فؤاد الفرارجي كئيباً، بوجه عابس وملامح قاتمة قاطباً.. غير قادر على إثناء زوجته عما ترغب فيه.. لا يُريد أن يكون السبب في تدمير حياة ابنه، وهو يعلم مقدار تعلقه بها، ولا يرغب في القضاء على حياة طفلة وديعة كفريدة، فهو لا زال يعاملها كطفلة صغيرة. كثيراً ما كانت تبث إليه شكواها باكية، فينظر إليها ويضمها لصدره كطفلة. وقد حفظت البيت وصانته ولم ير منها مكروهاً، يكفي أنها تحملت جميلة بعجرفتها ومعاملتها الصعبة المعقدة الفهم والرضا.

قالت جميلة مهددة:

– طلقها وإلا تركت البيت ولن تجد ليَّ أثر.. ولتنظر فيما يقوله الناس عنك من بعدي.. تركت أمك ترحل وتمسكت بابنة العاهرة.

فقال الأب:

– رفقاً بها ولحالها فليس لها ذنب.

فصرخت فيه:

– الذنب ذنب أمها الفاجرة التي لم تنظر لسمعتها وسمعة بيتها وأبنائها لأجل نزواتها.

ونظرت لإيهاب وقالت بنبرة أقل حدة:

– سأزوجك من ست ستها.. يكفي أنها لا تُنجب، وقد حرمتك من الخلفة طيلة هذه السنوات.

– أعطيها فرصة يا أمي فهي غير هذه الدنيا كلها.. هي دنيا وحدها.

– أرحل وأترك لك البيت لتعيش فيه وحيداً.. وستتركك هي من بعد ذلك، لأنها لو تُحبك حقاً لخشت على كرامتك وحياتك ورحلت عنك .

تعبأ إيهاب بما يكفي من أمه على مر السنين السالفة، ولم يقدر على تغيير فكرها ناحية فريدة حتى أتت تلك الصاعقة، ولابد من الطلاق.

استحضر صورة شخص واجم فقد قلبه وروحه وما بقي منه سوى عقل سينطق بكلمات مُرتبة دون أن ينهار، وصعد السلم بخطوات وئيدة لا يرغب في إكماله. ودخل الشقة.

نقر إيهاب على باب غرفة النوم ثلاث نقرات ودلف بوجه عابس.

قال في هدوء:

– أعتقد أنه حان وقت طلاقنا.

كانت فريدة تجلس القرفصاء في نهاية سريرهما، وأحنت رقبتها ووضعت رأسها على ركبتيها بعين أنهكتها الدموع، كنعامة تدفن رأسها بحثاً عن طمأنينة.. ولم تنبس ببنت شفة ولم تحرك ساكناً.

فاستطرد إيهاب:

– الأمر ذاع صيته في القرية كلها في غضون أربع وعشرين ساعة والناس لا ترحم.. وأنا من الممكن أن أقبل بأي شيء إلا أن أُهان في شرفي.

كانت تلك كلمات أمه، لقد حفظها كاسمه من شدة توبيخه.

فرفعت فريدة رأسها قليلاً، وقالت بصوت مبحوح:

– لا تأخذني بذنب أمي.

فصمت للحظات يبحث عن كلمات يُشبع بها رغبة ملحة في الإجابة، ومحاولة إرضاء الذات في الرحيل، رغم ما ترغب فيه الروح المنكسرة من بقاء.. هزمته عينيها المليئة بالحب تجاهه. لقد تعلق بها بالقدر الذي ما عاد لقلبه تراجع ولا نفور؛ هو يعشقها.. ولكن يهون على المرء أحياناً أن يعيش ميتاً ولا يُنكس رأسه على خياراته.

فقال بصوت خافت هزمته عينيها:

– علينا أن نتحمل أخطاءهم.

– ظلم والله ظلم.

– الظلم الحقيقي هو ما أصابني منكِ ومن أمك.

– لكن لا دخل ليّ في ذلك.

فقال وهو يلف جسده كي يتحاشى نظرات عينيها الثاقبة:

– لن أتحمل من اليوم أخطاء أحد.

فغلبها البكاء، وهانت عليها نفسها، فأطلقت العنان لمآقيها مغلوبة على أمرها، فانتهكت الدموع وجنتيها.

وقالت وهي تحاول أن تسترد أنفاسها:

– شدَّ ما يُهلكني أن أراك تتألم لأجلي.

– لقد هانت على نفسي فصغرت أمام أعين الناس.

– حاشا لله أن أكون سبب انتكاستك.

– بل كنتِ أكبر الأسباب.

وصمت للحظة ولكنه أنفجر كأن الكلمات ما عادت ترغب في كتمان، وألتفت وهو يصرخ:

– لم أنهزم لأجل نفسي مرة، وانهزمت من أجلك ألف مرة، ولكني كنت ابتسم كي لا تري ما بداخلي فتُحبط بسمتك.

فتمتمت باكية:

– أنت تقتلني ألف مرة بكلماتك.

– ذوقي ما كابدته منكِ.

– أتمنى ان أحمل عنك كل ما تُعانيه.. أنا أرغب في البقاء معك ولو فقدت كل شيء؛ لأن برحيلك سيكون كل شيء مجرد من معناه.. سأفقد حياتي إلى الأبد.

فغمغم وهو يحاول أن يتمالك دموعه:

– لم تكن هزيمتي الأولى لكنها أطفأتني.

فقالت مستعطفة:

– تمسك بي تلك المرة فقط.

– التمسك بحبال الوهم وهنٌ.

– سأذوق الوهن من بعدك.. وواقعه مرير.

– ما تذوقت الآن أمر من أي شيء.

أشتد البكاء عليها، وخارت كل قواها، وبدت عينيها شديدة الاحمرار كالحديد المنصهر تُحرقها من الداخل، وتلك البقع من البهاق المنتشر في وجهها، بدا واضحاً مع كل دمعة تسيل على خدها، فتضرج بياضه وباتت كشبح.

وقال إيهاب وهو يهم بالخروج من الغرفة باكياً:

- أنتِ طالق.. ستصلكِ كل مستحقاتك في بيت أبيك.

وتوقف عند الباب والتفت ليُلقي نظرة أخيرة عليها، كانت تنتحب وجسدها تشنج من شدة البكاء، ففكر أن يعود فيحتضنها الحضن الأخير، لكنه لم يقدر على ذلك وقال بصوت مبحوح باكياً:

- أتمنى ألا أجدك عندما أعود.

لكن شيئاً دفعه ناحيتها باكياً، وضمها لصدره وهو يصرخ من أعماقه منتحباً لقسوته.

٥٦

الموت ليس الغاية التي يتمنى الجميع بلوغها، أحيانًا يُصبح الوسيلة لتصحيح مصائر البشر وتحديد مسيرتهم. كل ما هنالك أن تلغي ضميرك، بل تُنحي نفسك جانبًا، وتستحضر صورة شيطان لعين في قاض من أهل الأرض تكون أنت وتنتقم.

شعر عطية بالخيبة؛ فانتكس.. وصرعته الحقيقة؛ فانهزم.

حاوطته الأعين، وكبلته الألسنة، وسقطت كلمات الناس على أذنه كما الشهب على الشياطين، ساعات قليلة فصل في مصيره. زوبعة في صدره، وإعصار برأسه، وخوار في نفسه، قوة وضعف يعتليانه ولا يدري أيهما سينتصر، ولا يرى منهم إلا الانتقام. فسار يجر خيبته، وانتكاسته.

لمعت عيناه في ظلمة البيت القديم، بيت السيد البرنس، ظل يرتقب وصوله في بسطة السلم العلوي. الساعة الحادية عشرة ليلًا، والجو يعلوه ضباب، من فوقه ظلمة، ومن تحته سكون، اللهم إلا نبضات قلبه المرتعش. تحسس جنبه، ليؤمن على سكينه، بيد ترتعش من الخوف مما هو مُقبل عليه، وبات الشرر يتطاير من عينيه، والوقت يأبى أن يمر، والمقصود ما حل. مر أمام عينيه شريط عمره، وحياته، وصديق عمره، وخيانته، وأبناؤه، وزوجته، لكن الصورة التي ظهرت جلية لا تشوبها شائبة لهي ضحى، بسمة عينيها، وعذوبة صوتها، وتلك الليلة المشؤومة

التي أفقدها عذريتها وفر، والماضي السحيق، الذي دفنه بيديه، فأنبت ابنته، كأنها زرعة شيطان أنبتت ملاك، هو متأكد تمامًا أنها ابنته، لكن العجز الذي فيه والظلم الواقع عليهما دونه لهو أهون عليه إن عاش بينهما .

تناهى إلى سمعه صوت أقدام تترنح على السلم، ثقيلة الخطى، تجر معها انتكاسات الزمان، وتكشط في قلبه، كما تكشط عقارب الساعة في صفحة مهترئة حتى تتوقف، وتكون نهاية العمر. السيد في حالة سُكر واهية، يُغني، ثم يُقهقه، ثم يتوقف مُتأملًا ظله. مرت تلك الدقائق التي رقى فيها السلم، كالسنين السالفة التي عاشها عطية، من فرط سُرعتها هزمته، ومن شدة بطئها كسرته، وأرعبته.

ولمَ توقف السيد أمام باب الشقة في دورها الثالث، وهم عطية أن ينقد عليه من أعلى، شعر بشيء يُكبل قدميه من الحركة، تذكر فيروز، وفريدة، وفريد، تذكر الموت، وأرعبته فكرة القتل، فما كاد يهتز جسده حتى سكن، ودخل السيد يترنح إلى شقته، وضرب الباب، فهوى صوته كمطرقة أثارت فيه الضعف، ونزل عطية يجر كومة من الهزائم حصدها طيلة عمره. كان يتمنى أن يهزمها ولو مرة، أن ينتصر في حياته مجرد انتصار يُزيل ختام تلك الخيبات كلها، لكن حتى الانتصارات تأبي إلا أن تُحبطه.

انطفأ الشرر الذي اتقد، هزئ منه كما تهزأ الطيور التي تُحلق بعيدًا من صائديها حينما تقترب من الأرض وتمنحهم أملًا في صيدها. لن يُكلل حياته بفريسة، ولو كانت خيطًا واهنًا من حلم رأه بالأمس. رأته فاطمة الجالسة أمام التلفاز بطرف عينيها وهو يفتح الباب، فلم تلتفت، ومر من أمامها كرائحة نتنة لجسد فني وتعفن منذ زمن، وحان وقت دفنه. كانت تخشى أن تنام، قبل أن يدخل إلى غرفته، ويُوصد بابه، حتى لا يطرق بابها ويفعل بها ما تخشاه، لربما قتلها ولا يُبالي. فالحياة بالنسبة إليها كنز غال.

أصابه الصمت، وخيم عليه، فسلبه كل طاقته. ارتمى على سريره كعود ثقاب اشتعل ليحرق كل الغرفة، ومعها الذكريات وكل شيء، وعاد من جديد الشريط ذاته يمر أمامه، فشعر بخوار في قدمه، حاول أن يُحركها، فلم يقدر، ود لو يبكي من العجز، لكن عينيه تأبى، والدمع من روحه ينزف. أعتلته رهبة، ثم رغبة في الانتقام مجددًا، ثم فشل، حاول مجددًا أن يقوم من سريره، لكن قدمه تعجزت بل شل جسده تمامًا، وعيناه فقط هي ما تتحرك، وبدأ يرى ما لا يُرى، حاول أن يصرخ وصوته مكتوم، كأن حبال صوته قُطعت، وشريط الماضي كله أمام عيناه، صور، وصراخ، وكذب وخداع، ودناءة وخسة وحقارة، وماض بعيد، وحاضر انتهى.

تمنى لو قام من مكانه لينتقم، أن يُعيد الزمن ويقف يراقبه من جديد، أن يقبل ضحى، أن يعيش كما كان يتمنى، ولا يهرب، لكن الماضي صفع حاضره، وصفع كل حياته فأفسدها. وندت منه آنة خافتة، وانتفض جسده، واختنقت روحه، فحاول أن يستردها، لكن قوة غاشمة أقوى منه قبضتها.

***

لم تكن جنازة عطية بالعدد المهول التي تعرفه القرية في جنازاتها، لكن عددًا لا بأس به قد سار فيها. ولم تَنج الجنازة من همس في شرف الرجل، والبعض بات يرمي الكلمات من هنا ومن هناك، الجميع حمل المرأة موته، وهزله من قبل. ولم يلوموا عليه إلا لأنه أدخل غريبًا في بيته، وما آمن مكر الدهاء إلا الملائكة، فتسخطهم بشر ملعونين. بدت الكلمات لفريد السائر كسياط من لهب، مع كل كلمة يسمعها، دمعة تنجرف على خده، لم يكن يبكي على أبيه، لقد كان يبكي على نفسه، على شرفه، على طعنات الزمن المتوالية دون رحمة، ود لو يصرخ: رحمتك يا رب. لكن الصرخات المكتومة خير ألف مرة من صرخة تهزمك بين الناس، ما دمت ستنهار

في البيت. ولكن ما الفرق بين أن تُهزم بينهم وأن تُهزم في غرفة ما عادت ترغب حائطها في التعرف إليك، أو التودد لدموعك.

انتهى المشيعون إلى المقابر، ونادوا على فريد، لكنه لم يُقبل على الكفن، لكن إيهاب وأباه قد تصدرا المشهد، وأنهيا كل شيء، وعاد الجميع لبيوتهم يُدندنون بسيرة الرجل، وسيرة زوجته. لكن الغريب في تلك الجنازة أن السيد البرنس قد حضرها، ما جعل الناس تهمس أكثر وأكثر، وأكلته نظراتهم، لكنه كالجبل لا يُبالى بحصى أعينهم.

٥٧

بعد الجنازة بأسبوع، كان السيد البرنس يسوي أمور ممتلكات زوجته القديمة ويبيعها كلها، بثمن لم يكن ثمنها، لكنه لم يعد يطيق الجلوس في القرية، من كثرة نظرات الناس، فخشى أن يلتفوا حول بيته ويقتصوا منه لنسائهم جميعًا. واستيقظت القرية في صباح يوم الثلاثاء على هرب الرجل وعشيقته. فرت فاطمة تاركة من خلفها حياة مُدنسة وأبناء لن تمنحهم الحياة قدر ما سلبت منهم. كأنه حساب السعادة التي مرت في حياتهم، وعلى أثره.

أصيبت فريدة بالهلع إثر الصدمة.

ولم تكن تلك صدمتها الكبرى، لكن رحيل إيهاب عنها هو ما شكل كل حياتها، وهزمها ألف مرة ومرة.. كلما جلست لتُفكر ولو لدقيقة ترى نفسها تُحلق بعيداً وتقتلها الوساوس وتطوقها أعين الناس حتى فقدت عقلها تماماً.

تجوب الشوارع في ملابس رثة، مهترئة، يقذفها الأطفال بالحجارة هاتفين: «المجنونة أهيه.. المجنونة أهيه» ولم تفقد السلمية فتُعاقبهم على السباب وما يقذفونها به، ظلت على تلك الصورة من الاستسلام والهزيمة. تعرى جسدها، إثر التعذيب الذي لاقته على أيديهم، وفقدت بريق شعرها الذهبي الذي أبيض تماماً من البهاق الذي عرف طريقه لكل جسدها فصبغه في لمح البصر. ولم يلتفت أحد لها.

مرت إلى جوار إيهاب بمحله، ولم تكن أمه لتُغادره فظلت تصحبه إلى المحل في كل يوم، كي لا تترك له ولو فرصة واحدة كي ينفرد بذاته فيؤنبها ويتذكر صنيعه بفريدة فيُقتل بالفكر.

ومرت فريدة كعادة مرورها من الشارع، ومن خلفها الأطفال يزفونها بالحجارة، ولا تُلقي لهم بالًا رغم ما تُعانيه من ألم. جرحت قدميها فباتت تنزف دماً، وهي حافية القدمين. ترتدي عباءة شاحبة، لا تقدر على تمييز لونها لكثرة أنواع التراب والطعام الذي اختلط بها مهترئة من الجانبين؛ لتكشف عن ساقين كأعواد ثقاب ملطخة بالدماء. شحبت كثيراً، بل تحولت إلى شبح، لم يعد في جسدها بقعة للون جلدها الأصلي إلا اخترقه البهاق فحوله. وشعث شعرها الأبيض فما عادت لها ميزة واحدة تُعرف من بالقرية من هي.

توقفت أمام المحل كعادتها، تأملت اليافطة الكبيرة الحمراء اللون المهداة من شركة كوكاكولا» سوبر ماركت أبو فريدة.. إدارة إيهاب محمد الفرارجي» ووقف إيهاب يبكي وينتحب على ما وصلت إليه، وخرجت الأم تحاول أن تُبعدها عن المحل، فما كان من نصيبها إلا بسمة رسمتها فريدة على وجهها ومرت.

أحس إيهاب العجز بعد ذلك. بعدما أصيبت بالجنون، لم تمر أيام حتى أصيبت بنزيف حاد، نقلها أحدهم إلى المستشفى ففقدت جنينها وقد كانت في الشهر الثالث.. لم يكن يومها يملك القدرة على النظر في وجه أمه عندما أخبره أحدهم بالحال. تمنى لأول مرة أن يفقدها للأبد أو يموت وينتهي كل شيء.

أما فريد فكتب ورقة في نهاية مذكراته بعد الحادث وبعدما أيقن جنون أخته.

«الحياة قاسية جداً.

قاسية لدرجة أنها تسلبنا كل ما نملك دون أن تمنحنا في المقابل لحظة نبتسم فيها، لحظة سعادة نحفر ذكراها في قلوبنا ونمجدها فنجعل لها عيداً.

وتأبى حتى أن تمر علينا مرور الكرام، مستكثرة أن نعيش دون صخب يؤذينا.

هي أسوأ شيء حقاً.. ليتني مِتُّ منذ أن خُلقت.. ليتني ما خُلقت.

لم تُنصفني الحياة ولن يُنصفني الموت.. ربما تُحييني التجربة.»

وكان يوم رحيله يوم فرح نور، زُينت شوارع القرية كلها بالأنوار، راقبها بنظرة شاحبة قاتمة، وعين باكية، ونفس لا ترغب في البقاء، وقلب لا ينبض إلا بالرحيل.. واختلطت عليه الرؤية فلم يعد يُميز، لكن قراره الأوحد هو ما أتى في رأسه حينها.

وكان الليل مُرسلاً هدوءه، والشوارع تبدو ساكنة تماماً والسماء تُقطر حزناً، والقمر لم يعرف طريقه للحياة فقد اختنق. فرمق الأنوار بنظرة وداع مطفأة ورحل.

رحل عن القرية دون أن يعلم أحد بمكانه وهل لا زال حياً أم مات، اللهم إلا رجل من القرية كان في زيارة للسيد البدوي بعد اختفائه بسنتين قد رأه في حلقة ذكر ولم يصدق أنه هو.

٢٦ مارس ٢٠١٨

الكنزي
ALKANZY